طريق الحوت

رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
٢٠١٨/٩/٤٥٥٩

٨١٣,٩
الغفوري، مروان أحمد
طريق الحوت ، مروان أحمد الغفوري .- عمّان: دار أزمنة للنشر
والتوزيع، ٢٠١٨
(٣١٠) ص
ر.أ. ٢٠١٨/٩/٤٥٥٩
الواصفات : / القصص العربية/ / العصر الحديث/

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

ISBN 978-9957-09-780-6 (ردمك)

طريق الحوت: مروان الغفوري (كاتب من اليمن)

الطبعة الأولى : 2018

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق ©

أزمنة ®

أزمنة للنشر والتوزيع
تلفاكس : 5522544
ص.ب: 950252 عمّان 11195
شارع الشريف ناصر بن جميل ، عمارة 55 (الدوحة) ، ط4
E.MailLinfo@azminah.com
Website:http://www.azminah.com
azminahazminah

جميع الحقوق محفوظة ، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر .

تصميم الغلاف: أزمنة (إلياس فركوح)
فوتوغراف الغلاف: M´asum Karez (أفغانستان)
الترتيب والإخراج الداخلي : أزمنة (إحسان الناطور)
تاريخ الصدور : أيلول/ سبتمبر 2018

روايـــة

مروان الغفوري

طريق الحوت

أثر

«وقال الرب لموسى مد يديك إلى السماء، فمد يديه. وكان هناك ظلام دامس غطى أرض مصر لثلاثة أيام».

سفر الخروج 10: 22

إله الأشجار

في تلك الليلة، الرابع عشر من يونيو 2014، أسقطت الرياح القادمة من هولندا ستين ألف شجرة وقتلت ثلاثة رجال متشردين في أماكن مختلفة. قال بيان للشرطة إن المتشردين، بالرغم من موتهم في أماكن متفرقة، ربما كان يعرف بعضُهم بعضاً. سُدت الطرق وانهارت مواعيد القطارات، وخرج مطار دوسلدورف عن الخدمة حتى ظهيرة اليوم التالي. قيل إن طائرة ركاب مدنية سقطت في نهر الراين، لكن أحداً لم يعد لذِكر تلك القصة في قابل الأيام.

كتب أحد الروس الذين يعيشون بين المُدن على جدار: «الرب موجود ويعيش في هولندا».

شوهدت العبارة تلك على السياج المحيط بدير كنيسة نيكولاوس، على الجهة المطلة على المقبرة. كانت مكتوبة بخط كبير، حتى إنه أمكن مشاهدتها من موقف الترام الذي يبعد مئات الأمتار. ولما عجزت الراهبة

أورسولا عن محو الكتابة، قبل قدّاس الأحد، فقد نزعت غطاء رأسها وغطّت به «هولندا».

ولأن الرياح القادمة من هولندا بقيت تروح وتجيء لأيام، بعد أن تخلت عن كونها عاصفة، فقد استمرت الأشجار العجوزة بالتساقط في الأرجاء، وشوهد حجاب الراهبة أورسولا عالقاً على شجرة بلوط تتوسط المقبرة. ثم بعد ذلك أخذته الرياح وألقته على واحدة من نوافذ مستشفى نيكولاوس، المحيط بالكنيسة، وهناك التقطته امرأة كانت تكنس أرض الغرفة وربطت به ركبتها.

خلال الأيام التالية بقي السكان في منازلهم، لكن المشافي امتلأت بالجرحى.كان بعض الناس يخرج ليرى ما إذا كانت الحياة قد دبّت في أرجاء المدينة، ثم يعود مسرعاً.

أما الجوالون الروس الذين يعيشون بين مدينتي إيسّن ومولهايم فقد ذهبوا يكتبون عبارة «الرب موجود ويعيش في هولندا» في أماكن عديدة من المدينة. مما دفع الكاتدرائية في مدينة كولن لنشر بيان على صفحتها ينصح المؤمنين بالظواهر الطبيعية «الأشجار والرياح، قال البيان» باحترام عقائد الآخرين، ويطلب منهم النأي عن الكنائس.

انتهى البيان، الذي عجّ بالنجوم والأشجار والرياح، بجملة «الرياح إلى زوال».

وفي مخبز الكنائس الباردة القريب من كنيسة القديس نيكولاوس قالت

الراهبة أورسولا، وكانت قد ناهزت الثالثة والسبعين من العُمر، إن الأشجار آية، وأن أنبياء كثيرين عاشوا فوق الأشجار. فقالت لها البائعة وهي تسلمها ثلاث قطع من الخبز الأسمر المرصع ببذور عبّاد الشمس إنها قرأت شيئاً شبيهاً بذلك. استشهدت البائعة بحكاية البارون فوق الأشجار لإيتالو كالفينو، قائلة إن البارون كان نبياً وأنه عاش فوق أشجار إيطاليا أثناء الحرب، ولم تقل أي حرب.

هزّت الراهبة رأسها وغمغمت:

«هذا ما قلته للتو. الأشجار آية، لكنها أيضاً إلى زوال».

مساء السبت، الرابع عشر من يونيو، هبّت عاصفة قادمة من هولندا. لم يشاهد السكان عاصفة بتلك الضراوة منذ ربع قرن. وفي اليوم التالي بدت مدينة إيسّن أشبه بساحة حرب. خرج بعض السكان من منازلهم وعاينوا الشوارع القريبة ونظروا إلى منازلهم من الخارج ثم عادوا مسرعين. ما من أحد كان قادراً على الضحك في اليوم التالي سوى الروس الجوالين والقليل من الأكراد. قالت الصفحة الأولى لجريدة بيلد، وقد تمكنت من الوصول إلى منفذ بيع في محطة القطارات المركزية، إن رجلاً هاتف الشرطة الليلة الماضية، وأخبرهم أنه يحاول زحزحة شجرة عن طريق الترام في شارع الجامعة. نصحته الشرطة بالعودة فما من ترام كان يعمل في تلك الساعات. قال خبرٌ آخر في الصحيفة نفسها إن رجال الإسعاف وجدوا رجلاً ميتاً بالقرب من الجامعة، وكان يحمل حقيبة فارغة على ظهره وفيما يبدو فقد كان يحاول إزاحة شجرة عن طريق الترام.

دخلت الرياح في ظلام المدينة، واستمرت بضراوة متصاعدة حتى منتصف الليل، وتعطلت الهواتف لعدة ساعات على نحو متقطع. لم تكن رياحاً وحسب، بل عواصف ماطرة. ولكثرة الأشجار التي أطاحت بها رياح تلك الليلة فقد اعتقد بعض السكّان إن الرياح جلبت معها الأشجار من هولندا.

وبينما بقيت الرياح في الخارج، في أغلب الأحياء، فقد دخلت الأمطار إلى المنازل. أصوات سيارات الإسعاف كانت هي علامة الحياة الوحيدة على ظهر المدينة. ما عاد أزيزها يثير الجلال والرهبة كما يفعل في سائر الأيام.

خرجت بعض الحيوانات الشريدة من الغابات والحدائق، وراحت تركض في الشوارع وبعضها لقي حتفه، مثل تلك القطة الزرقاء التي كانت تعيش في حديقة المدرسة الفرنسية، وكانت معروفة على نحو واسع. وفرّ كلبان شريدان من موقف للشاحنات على الحدود مع مدينة مولهايم وسلكا طريقاً طويلاً محفوفاً بالمخاطر إلى أن وجدا كنيسة نيكولاوس. سمعت الراهبة أورسولا نباحهما ففتحت باب الكنيسة. صبت لهما الحليب، ولم تكن الرياح قد بلغت أقسى درجاتها، ثم صعدت إلى الأدوار العلوية لبرج الكنيسة الشمالي لتراقب الأمطار من خلال نافذة صغيرة.

ولما اهتزت الكنيسة فجأة، بعد أن هوت شجرة كبيرة إلى جوارها، صرخت أورسولا «إلهي أغث الكلبين»، ثم قرعت الأجراس. بقيت تقرع الأجراس ساعة من الزمن، فسمع السكان علامة الحياة الثانية.

أحست أورسولا بالإنهاك فأسندت ظهرها إلى الحائط ثم انزلقت عليه إلى الأرض، وغفت قليلاً. صعد الكلبان إلى الأعلى، وراحا يداعبانها، محاولين إيقاظها. كانا: كلباً وكلبة. فبينما لعق الكلب قدمي أورسولا ذهبت الكلبة تلحس خدها وذقنها. نهضت أورسولا مرة أخرى، وقرعت الأجراس، فجعل الكلبان يئنان ويركب أحدهما على الآخر، ثم ناما بالقرب من أورسولا والجرس. وكلما أدرك أورسولا النعاس نهض الكلبان وأيقظاها لتقرع الأجراس.

كل المدن القريبة من النهر تكون مدناً حول النهر، إلا مدينة إيسن فقد تركته وذهبت إلى المناجم. تقع كنيسة نيكولاوس على تلة مرتفعة. على الجهة الشمالية من الكنيسة توجد غابات شتوبنبيرغ، أو ما بقي من ذكرى لتلك الغابات. قام عمال المناجم الذين دأبوا على العمل في أقصى شمال المدينة بقطع الأشجار وبناء منازلهم، وكان ذلك أيسر بكثير من قطع المسافات الطويلة بين المناجم والضواحي البعيدة.

وكما هو حال المنازل المبنية على تلال الفحم تغوص كنيسة نيكولاوس في الأرض بضعة سنتيمترات في العام. ليس لدى السلطات من وسيلة لاحتواء تلك المشكلة. أما أورسولا فقد رأت الأمر على نحو مختلف. الجميلة أورسولا، التي التحقت بالكنيسة في الخامسة والأربعين من عمرها، كان طولها آنذاك ١٧٨ سنتيمتراً. قرأتْ أن المرء ينقص طوله في الكنيسة سنتيمتراً واحداً في العام. وخمّنت: سأصبح قزمة عندما أبلغ التسعين. ونظراً لأن كنيسة نيكولاوس تغوص أيضاً في الأرض فإن

أحداً لن يلاحظ أن أورسولا قد أصبحت قزمة. عندما قررت أورسولا الالتحاق بالكنيسة صرخ فيها كريمر، صديقها الذي فرّ من النظام الشيوعي في شرق ألمانيا «العاهرات الصغيرات يصبحن راهبات عندما يكبرن». كانت عبارة قاسية ستعذب كريمر لأكثر من ثلث قرن من الزمن ولن تترك أثراً لدى أورسولا. في ذلك الحين اكتفت أورسولا بهز رأسها قبل أن تهمس في الرجل كما لو أنها قد أصبحت راهبة بالفعل:

«إنك فيما سوى سوء استخدامك للحرية فإنك لم تستفد شيئاً من الحياة هنا. يجدر بك أن تعود إلى موطنك».

ما من شيء بمستطاعه أن يصف لنا حجم المَرار الذي ملأ أحشاء الرجل في ذلك الوقت.

صباح الأحد، بعد ليلة عصيبة، فتحت أورسولا باب الكنيسة وركض الكلبان بعيداً. كانت قد منحتهما، بعد أن انحدرت العاصفة إلى ريح، اسمين. حصل الكلب على اسم جنرال والكلبة على اسم قديسة. وبعد أن استقرّت الرياح تماماً، بعد بضعة أيام، انتظرت أورسولا عودة الكلبين. لكنهما كانا سعيدين في مكان آخر وما من داعٍ للعودة إلى الكنيسة.

إذا صعدت أورسولا إلى الأدوار العليا للكنيسة فإنه يصبح بمقدورها، من الجهة الشمالية، رؤية ميدان كبير نسبياً محاط بالأشجار إلى الخلف من محطة حافلات. قبل منتصف ليلة الإعصار حادت سيارة شرطة يميناً ودخلت إلى الميدان، فقد لفت شيء ما انتباه الشرطية التي كانت تجلس إلى جوار السائق. لاحظت الشرطية رجلاً على ناصية الطريق بالقرب

من موقف الحافلـة وما إن وقع عليه ضوء السيارة حتى هرع إلى الفناء الخلفي.

توقفت سيارة الشرطة عند مدخل الميدان فقد كانت أرضه تكاد تغطيها المياه. وفي إحدى زوايا ذلك المكان الواسع والمحاط بالأشجار العالية تجمع بعض الرجال. نزل شرطيان وشرطية، وهرعوا إلى مكان التجمع. رجلٌ يتدفق الدم من أنفه وجبهته وآخر يغرف من ماء المطر بيديه ويغسل وجه الجريح. ثلاثة رجال آخرون كانوا يحاولون رفع شيءٍ من على الأرض، شيء يشبه الأغطية الحديدية لشبكات المجاري. اقترب شرطي من الجريح وعاين وجهه. رعاف، وجرح نازف في مقدمة الرأس. سمع الشرطي أن جذع شجرة هوى على رأس الرجل لكن الشجرة نفسها بقيت في الأعلى. الرجل الذي أدلى بتلك المعلومة كان يمسك بيده زجاجة نبيذ، يبدو أنها كانت زجاجة نبيذ. أمسك الشرطي بجهاز الاتصال اللاسكي وطلب جهة ما. غمغم وهو يدس اللاسلكي في جيب سترته (خراء). في تلك اللحظات كانت خطوط الاتصالات تتساقط أيضاً، منطقة على إثر أخرى.

«ماذا تفعلون هُنا في هذه الظروف؟» ألقت الشرطية بسؤالها وهي تنظر إلى صفيحة حديدية تغطي جزء من حفرة عميقة.

وما هذا؟ أضافت.

أصوات الرياح الضارية، الأشجار، والمطر، كان ذلك هو كل ما يمكن فهمه وسماعه. في الأخير قال رجلٌ من الثلاثة «نشوي لحماً».

ردت الشرطية باستنكار وهي تحاول إبعاد الرياح عن وجهها:

مااااذا؟

وراح الشرطي الثالث رأسه يميناً ويساراً.

يعرف سكان مدينة إيسن معنى تلك الحركة، فهي تعني أن أحداً ما قد تفوه بشيء أحمق لا عقوبة عليه. ما من سبيل للاتصال بالإسعاف ولا بالشرطة لطلب مساعدة. لذا قرر قائد المأمورية، يبدو في الخمسين ويضع نجمتين على كتفه، اصطحاب الجريح في سيارة الشرطة. صرخ رجلُ «الجيتار». فتحت الشرطية حقيبة السيارة وألقت بحقيبة مبللة بداخلها شيء ما. في الطريق سأل قائد المأمورية، وكان هو سائق السيارة، الجريح عن اسمه فردّ عليه الأخير.

وماذا في الحقيبة؟

قال الجريح: جيتار.

قالت الشرطية محاولة استجلاب أي رغبة في الضحك: تعزف في العاصفة؟

فرد عليها الجريح: ولماذا لا أعزف في العاصفة.

أما الضابط الثالث فكان يضغط على جرح الشاب بقبضة من المناديل، وكان الجريح يضع كفّه على أنفه التي لم تعد تنزف. قال الضابط الثالث: سؤال جيد، لماذا لا يعزف في العاصفة؟

وهو ما دفع قائد السيارة إلى القهقهة مردداً: هيا بنا نعزف في العاصفة.

وجد الجريح ذلك مسلياً وحزيناً في آن.

في الغرفة 127، في وحدة القديس أنطونيوس، استلقى الشاب الذي قال إن اسمه كارستن نيبور على السرير بعد أن نال خمس غرزات جراحية في جبينه ورأسه. تطل الغرفة على مقبرة كنيسة نيكولاوس وفي الغد سيطير حجاب الراهبة أورسولا وسيدخل إلى الغرفة المجاورة الخالية من المرضى.

لم يكن الرجل الشاب الذي قال إن اسمه كارستن نيبور يحمل أي بيانات شخصية، ولا بطاقات تأمين. إنها حالة طارئة، ولا بد من إدخال بيانات معينة إلى النظام الإليكتروني. بعد دقائق معدودة حصل الرجل على اسم ثنائي: غير معروف، غير معروف. قال طبيب الجراحة المناوب للمرضة التركية المسؤولة عن الوحدة إن عليها أن تراقب المريض جيداً. سلوك مريب، وقد يتسبب في مشاكل جمة، قال الطبيب.

«إذا هرب في هذه الظروف فإن العاصفة ستقتله في الحال، وسندخل في ورطة» قال الطبيب المناوب للمرضة التي ارتجف ساقاها وأحست أن حلمتيها تيبّستا فجأة.

أما أورسولا التي كانت في تلك الساعات قد بدأت تقرع الأجراس فقد شغلها السؤال «من أغضب الرب حتى يفعل بنا كل هذا؟»

وفكّرت: الروس، لا بد إنهم الروس.

بدت تلك الليلة لعيني الراهبة أكثر ظلاماً من أي ليلة أخرى. وانحبست أنفاسها حتى ظنّت نفسها تحتضر.تذكرت ما كان الرب يفعله

بالمصريين حين يغضبونه: في البدء يصفح عنهم فيذهبون في غيهم بعيداً، ثم يصفح عنهم فيخربون منازله ويعذبون المؤمنين به. ثم، فجأة، يرخي الربّ قبضته فيتدفق الظلام الدامس على المصريين وتخرج الضفادع والرياح.

نبيذ الشعراء

فتح كارستن نيبور عينيه عند السادسة صباحاً كما فعل في اليوم السابق، وكما يفعل عادة. جلس الشاب على حافة السرير وتناول ببطء آلته المفضلة: الجيتار. فتح أنشوطة الحقيبة، وكانت قد جفت باستثناء بقعة صغيرة عند عنق الجيتار. قاوم رجفة متعرجة على أطراف أنامله وتحسس أنفه فأدرك وجعه الدفين. داعب الأوتار بخفة، فطارت نغمة شردت في كل مكان. كل شيء على ما يُرام. لم تنل الريح من الجيتار، لا الريح ولا الأشجار. في قرارة نفسه شكر الشرطة. بعد أقل من دقيقتين من النغمة الوحيدة كانت الممرضة تفتح باب غرفته وتقدم له الشاي. كان اسمها شيرين وكانت ممتلئة وتشعر دائماً بخفقان في صدرها، وبالحنين للمجهول. مد يده وتنال الشاي، وشكرها.

«نعم، أعزف وأغني»

أجابها الشاب الذي قال إن اسمه كارستن نيبور، وهو يتحسس الضمادة على جبينه.

باليد الأخرى كان يمسك بآلته. بقيت شيرين واقفة، كأنها تنتظر مزيداً من الكلمات. أخذ رشفة من الشاي وقال لها:

«أنت لم تنامي منذ الأمس، أليس كذلك؟»

«بعد ساعة ستنتهي مناوبتي وسأنام، أو سأحاول أن أنام»

ردّت عليه بلطف، كما لو أنها ترغب في ترويضه أو اكتشافه.

أخذ رشفة أخرى من الشاي وتأمل قاع الغرفة، ونظر إلى زجاج النافذة المتشقق. «ما سمعتِه هي نغمة قصيرة من معزوفة شاي لاثنين، لنات كينغ كول. هل أعزفها لك؟»

«بصوت خفيض، إذا كان ممكناً» قالت بعد تردد.

«الموسيقى هي الموسيقى، ولا بد أن تعزف كما هي» قال الشاب وهو يقلب الجيتار بين يديه.

أضاف:

«أحاول أن أعزف على الجيتار المقطوعات التي تعزف على البيانو. شاي لاثنين هي مقطوعة بيانو لكني أفضلها على الجيتار»

«سأحب سماعها، حاول أن لا توقظ المرضى» اعترضتْ بطريقة امرأة تتفوه بالأشياء المنطقية رغماً عنها، وكنت مستثارة بمعنى ما لا يمكن شرحه. هي ممرضة اطلعت، مثل أي ممرضة في العالم، على جسد الرجل

في كل حالاته واكتشفته، اكتشفت لا معناه ومادته، وعجنته بيديها ونظفته كما تفعل بالمواعين. اقتربت كثيراً من نظام انفعالاته واستعملت لغة آلية في وصفها. أمام الممرضة تفقد مادة الرجل، المادة الأرضية، أهميتها وإبهارها، ويبدو في كل الأوقات كمخلوق جاء طلباً للأمن. ها هو رجل أمامها، رجل مريض، يعرض شيئاً آخر غير متصل بجسده.

لم يكترث كارستن نيبورلما قالته شيرين عن المرضى النائمين. وراح يداعبُ جيتاره باحثاً عن شيء ما، سرعان ما عثر عليه.

«لا بأس، اعزف» قالت شيرين، وراحت تغلق باب الغرفة.

سألها إذا كانت ستبقى واقفة، فجلست على حافة السرير إلى جوار الرجل المجهول، الرجل الذي قال للشرطة في الليلة الماضية إن اسمه كارستن نيبور، وهو الآن يعزف ويضع ضمادة على جبينه ورأسه.

أغمض كارستن نيبور عينيه وذهب يعزف «شاي لاثنين» لنات كينغ كول. فتح عينيه لثوانٍ معدودة ليرى شيرين وهي تسرق رشفة من الشاي، فواصل العزف حتى النهاية. لقد شربت من نهره، سارر نفسه وهو يردد مقطعاً صغيرة من الأغنية.

تدفقت السكينة على قلب شيرين، السكينة القادمة من الريح الصيفية في الخارج. أخذت رشفة بعد أخرى تائهة على حافة السرير إلى جوار مريض مجهول، مستندةً إلى حنينها الغامض.

كان واضحاً أن الرجل الذي يعزف بمقدوره تحويل المقطوعات

الموسيقية التي عزفت في الأصل على البيانو إلى مقطوعات وترية. انتهى نيبور من المعزوفة فنهضت شيرين وصافحته متمنية أن تجده حين تعود مساء اليوم للعمل. وقالت إن عليها أن تنتهي من تدوين بيانات المرضى قبل تسليم الوحدة للمناوبة الصباحية. كانت ليلة عصيبة على المدينة وعلى شيرين، حطمت فيها الرياح عشرات النوافذ، وتدفقت مياه الأمطار إلى الغرف والكوريدورات، وصاحت شيرين من وقت لآخر طالبة العون من الوحدات الأخرى، غير أن الرياح لم تستثنِ أحداً. ربما صلّت شيرين في لحظات ما، فالبشر الذين مثل شيرين يصلّون عندما تهب العواصف، وأكثر عندما تهدأ. نصحها كارستن بالانتظار ريثما تهدأ الرياح تماماً. لنقُل: طلب منها. لكن شيرين المتعبة ذهبت. وهي تعبُر الكوريدور وتتخطى بحذر أرضيته التي لا تزال مبللة بمياه المطر والزجاج المكسور كان صوت كارستن نيبور يخرج من الغرفة صادحاً بأغنية «ريح صيفية» لفرانك سينانترا:

«آه، أضعتُك مثل زمّار واهنٍ

آه،

لقد أضعتُك في ريح صيفية

آهٍ منكِ،

أيتها الريح الصيفية»

روى أفراد الشرطة الثلاثة لزملائهم الذين سينوبون عنهم في الفترة

الصباحية، من الثامنة صباحاً حتى الرابعة عصراً، ما حدث ليلة البارحة. وقف قائد المجموعة الجديدة أمام البوابة الرئيسية لمركز شرطة المدينة وأشعل سيجارة. أوصت المجموعة المغادرة المجموعة المستلِمة بالذهاب لاستكشاف المكان، هناك حيث سقط جريح كان يشوي اللحم في العاصفة. هو مكان مريب، قال قائد المجموعة، ولا بد من معاينته.

«أنا متحمسة» قالت شرطيّة.

«دعونا نتفاجأ» قال شرطي.

بعد الثامنة والنصف صباحاً وصلت سيارة بي إم دبليو، مطلية بالأزرق مع خطوطة طولية صفراء، إلى ذلك المكان الذي يحمل اسم ميدان الراين. عاينت الشرطة المكان، وبيسر اهتدت إلى الزاوية البعيدة حيثُ توجد الحفرة. كانت نصف مغطاة ويمكن للمرء أن يتوقع ذلك. أعني: من سيصدق القصة من البداية. سبق أن قلتُ، ولكني لم أكتب هذا الكلام من قبل، إن هذه القصة جديرة بالتصديق، وأنها وقعت في مكان ما. ومع ذلك فأنا، مثل أي شخص سيقرأها لأول مرّة، لا أدري ما الذي سيحدث بعد ذلك. لنقتبس كلام الشرطي الذي نجهل اسمه، ولنقل: دعونا نتفاجأ.

تعاون رجال الشرطة الثلاثة على إزاحة الصفيحة الحديدية. كانت الحفرة على هيئة جرة ذات عنق ضيق وجسدواسع. ما إن أزيح الغطاء بالكامل حتى هتف قائد المجموعة «إلهي».

في تلك اللحظة شعرت الممرضة شيرين، وكانت قد ألقت بجسدها

على سريرها، بضربة مفاجئة في قلبها، فهبّت جالسة وأخذت تلهث. وتجاوز الكلب الذي يحمل اسم جنرال رفيقته التي تحمل اسم قديسة وهما يتسابقان بالقرب من مبنى الجمارك القديم في شمال المدينة، وكانا سعيدَين بانتهاء العاصفة على ذلك النحو.

استخرجت الشرطية مصباحاً يدوياً صغيراً من أحد جيوب بنطالها العديدة. كانت الحفرة فارغة، وأرضيتها مغطاة بمياه المطر. لا شيء مميز، لا شيء يلفت الانتباه سوى عمقها الذي ربما يتجاوز المتر، وشكلها البيضاوي الشبيه بقوارير الخمرة الفرانكية، خمرة جنوب ألمانيا. ذهبوا يبحثون بالقرب من الحفرة، ربما يهتدون لشيء. في تلك اللحظات لم يكن أحدٌ منهم يملك سؤالاً بعينه. باستثناء قائد المجموعة، الذي نشّط النيكوتين جزءاً من خياله، فإن الآخَرَين بديا مستعدين للعودة ونسيان الحفرة. كتب قائد المجموعة، أندريه كلاين، بروتوكولاً عن المهمة تلك وحفظه داخل النظام الإليكتروني. وجد السيد كلاين كل ما يتعلق بالحفرة مثيراً للغاية: مكانها، شكلها، القوارير الفارغة الملقاة على جانبها، وقصة الرجل الذي يعزف الجيتار في العاصفة، رفاقه الذين يشوون اللحم، واتصال كل هذا بالرياح.

بعد معاينة المكان ذهبوا إلى المستشفى وتحدثوا إلى الشاب الجريح، لكن الضابط كلاين لم يدون في مذكرته شيئاً عن ما دار في اللقاء. وجد كلاين شيئاً مثيراً في الحفرة، ووجدت الشرطية سيلڤيا كاوفمان شيئاً مثيراً في كلام

الرجل. أما الضابط الثالث، مارتن بوكمان، فقال لنفسه مراراً إن الشرطة تغرق في التفاهات لأنها لا تريد مواجهة الحقائق الكبيرة.

كتب الضابط كلاين:

«لم نعثر على شيء مادي ذي دلالة حاسمة، باستثناء قوارير نبيذ، فيما يبدو، ملقاة بين الأشجار وبالقرب من الحفرة. كل القوارير من النوع نفسه ولم يسبق لي أو لأحد من زملائي أن رأيناها من قبل. شكل القوارير البيضاوي يشبه تماماً شكل الحفرة. بحثنا عن معنى كلمة أودرورير المكتوبة على كل قارورة ووجدنا بعض المعلومات الغامضة. كل ما يرتبط بهذا النوع من النبيذ أيضاً غير واضح. فهو نبيذ سكاندنافي اسمه الفلسفي نبيذ الحكمة والشعر. توقفنا عن البحث عندما لاحظنا أننا أُحطنا بالأساطير، مثل تلك التي تقول إنه نبيذ صُنع لأول مرة عندما اجتمعت أسرتين إلهيتين متنازعتين لتوقيع اتفاق صلح. بصق رجال الأسرتين في وعاء كبير واختلط بصاق الطرفين. كان ذلك سبباً كافياً لمنح اتفاقية السلام بينهما القدرة على البقاء. لكن شيئاً ما حدث، فقد خرج من بصاق الأسرتين الإلهيتين القديس الحكيم كَسَافير، الأكثر حكمة بين العالمين. ورغم حكمته تلك إلا أن أقزام الشمال تمكنوا منه وسفحوا دمه، ثم بعد ذلك قاموا بجمع أوصاله وصنعوا منها نبيذ الحكمة والشعر، أودرورير.

ربما ليس من الحكمة أن نورد مثل هذه القصة في تقرير للشرطة. ما

نريد قوله هو أن تلك الأشياء كلها، الحفرة والقوارير المتشابهة والرجال الذين قالوا إنهم يشوون اللحم، ليست بلا معنى»

مارتن بوكمان	سيلڤيا كاوفمان	أندريه كلاين
توقيع	توقيع	توقيع

البحار القديم

سيلڤيا هو اسم الشرطية التي خرجت مع زملائها ورأت كارستن نيبور في اليوم الثاني للعاصفة. ما من شيء مميّز في سيلڤيا كفتاة ألمانية في الثامنة والعشرين من عمرها. تكاد تشبه أي فتاة ألمانية، وعند ملامستها تبدو وكأنها لا تشبه أحداً. طويلة، مثل ألمانيات كثيرات، وتشتكي من التعب الذي لحق بشَعرِها لكثرة غيرت لونه. يميل شعرها إلى البني، وكان ذلك اللون يناسب كل شيء فيها حتى روحها كما كانت أمها تقول. لكن صديقها الروسي أراد أن يراها مثل نساء بلده «وإلا عشتُ معك في غربة» كان يقول.

في مساء بلا غيوم، الخامس عشر من أغسطس وكان يوم جمعة، أدركت الرغبة سيلڤيا. أخذت أنفاسها تضطرب وشيء ما كان يئن في أطرافها. ولشدة ما ضربتها الرغبة أحست أن خصرها بدأ يتشقق.

قال رجل سبق أن رآها من نافذة ترام إن مشيتها تشبه صعود المسيح

إلى الجبل. فلكزته امرأة تجلس إلى جواره «ألِأنها شرطية» فقال: بل لأنه المسيح.

أما صديقها الروسي الذي هجرها بعد شهر من وقوع العاصفة فكان يقول إنها، عندما تمشي عارية في صالون بيتها، تشبه السفن القديمة. وكان يطلب منها، وهو يضاجعها، أن تصرخ «موسكو» عشرات المرّات. وما إن يلقي ببضاعته الروسية في أعماق تلك السفينة حتى تصعد هي عليه، وتصفعه مرات عديدة قائلة: ها هي بارباروسّا قد انطلقت، ستندم يا ستالين. فيصرخ الرجل بوهن «موسكو، الجبهة، موسكو» ثم يغمض عينيه فيرى قرى بعيدة وفلاحين مساكين.

وعندما أخبرته سيلڤيا، بعد زمن، أن بارباروسّا هي العملية التي شنها الألمان النازيون على الأراضي الروسية حبس الرجل أنفاسه وأحس بالغرق. وكروسيّ، مثل أي روسيّ يسمي الحرب العالمية الثانية بالحرب الوطنية العظمى، فإن ما سمعه من سيلڤيا عن بارباروسا دفعه لهجرانها. وفي يوم الفراق، وكانت سيلڤيا تلقي بكل ما يخصه في وجهه برباطة جأش، فهي شرطية على كل حال، اعتدلت في وقفتها ونظرت في وجهه مباشرة وقالت:

«امض حتى تسمع جشأة ثقيلة في الطريق، هناك تبدأ أرضك»

فرد عليها الرجل بحذر، وبألمانية مشبعة بالنغمة الروسية الثقيلة:

«تبدأ أرضي حيث تصير الطرقات أوسع وبُراز الرجال أقل»

وبالرغم من أنهما سبق وتبادلا هذين الاقتباسين، وضحكا كثيراً، إلا أن سيلڤيا فقدت اتزانها فجأة وأمسكت بخناقه، بكلتا يديها. ودفعته إلى الحائط وهي تحذره بأقسى الكلمات.

تذكرت سيلڤيا، وهي تبحث في الإنترنت عن جواب، ذلك النهار عندما ذهبت مع زملائها إلى مستشفى القديس نيكولاوس وتحدثوا إلى كارستن نيبور. حدث ذلك قبل شهرين من الآن. قال لهم نيبور إنه جزء من فريق قوامه ستة أشخاص، وأنهم مستنسخون من رحلة بحرية قديمة ضاعت في القرن الثامن عشر «بعثة نيبور» قال الشاب نيبور للشرطة وهو يعدل وضع الكاب على رأسه بحيث يصبح الجزء البارز منه مطلاً على ظهره مباشرة، وكان يضع جيتارة على حجره. سألته الشرطة عن عمله فقال إن فريقه أسس موقعاً على الإنترنت لتقديم الخدمة الجنسية للنساء اللاتي يشعرن بالملال أو بالرغبة.

«كول بوي، تعرفينه؟» سألها وهو يحدق في بؤبؤ عينيها الواسعين. كانت الغرفة نصف مضاءة، وضعت الشرطية قبضتها على فمها وسعلت سعلة خفيفة، وأجابته: لا. كانت كلماته عارية، تترك كل شيء خلفها عارياً، حتى سعلَتها بدت له عارية.

سأله النقيب كلاين وهو يلاحظ شفته العليا التي بدت له ناقصة:

«تذهب إلى النساء في بيوتهن؟»

قال:

«أنا أو أحد زملائي. نحن ستة، بياناتنا الشخصية موجودة على الموقع. على المرأة أن تختار من سيذهب إليها مقابل خمسين يورو في الليلة»

توقف برهة ثم قال ضاحكاً «الليلة في الحسابات الجنسية مقدارها ساعة. تصوروا لو أن الخالق يحسب أعمارنا بتلك الطريقة»

استمر في الضحك ولما رآهم واجمين ومتحفزين بعض الشيء ذهب ينظر إلى أوتار جيتاره ويقول «غالباً ما يذهب الرجل منّا إلى زبونته قبل أن تصل التحويلات المالية إلى حسابنا. هذا العمل يرتكز على الثقة»

«وكم مهمة من هذا النوع تنجزها في الأسبوع؟»

«على حسب» نطقها بالإنجليزية.

أضاف:

«مرة في الليلة، وربما مرّتين. نحن ستة فقط، هناك ضغط متزايدٌ علينا. في أحيان كثيرة أغير اتجاه السفينة ولا أركب الموجة»

«بمعنى؟»سأل النقيبُ كلاين وهو يهزّ رأسه.

«على سبيل المثال ما جرى قبل البارحة: غنّيتُ لامرأة حتى منتصف الليل، وتأخرت عن أخرى»

«ويكفي أحياناً أن تغني؟»

جاء هذا السؤال من مارتن بوكمان الذي بدا، فجأة، مهتماً.

«النساء تحت الثلاثين يكفيهن هذا أحياناً. لكنه لا يترك أثراً لدى النساء فوق الأربعين. بعد الأربعين تطلب المرأة أموراً محددة ولا تضيع

وقتها. تحت الثلاثين تكون المرأة جزءًا من الإله، وفوق الأربعين تصبح شيئاً من الطبيعة»

«تغني تحت الثلاثين وتضاجع فوق الأربعين؟»

تساءل مارتن بوكهان باسماً وقد داهمته رغبة عارمة بضحكة طويلة.

«أنا قادم من سفينة قديمة، قلتُ لكم. وماذا يفعل المسافر على سفينة سوى ذلك. عليك أن تضاجع على جهة من السفينة وتغني على الجهة الأخرى، وإلا فإن سفينتك لن تبلغ الشواطئ قط. الربّ والطبيعة يركبان معنا على السفينة ذاتها. الرب يبعث السحب والطبيعة ترسل الأمواج، وعليك وأنت على ظهر السفينة أن ترضيهما معاً. في كل سفينة هناك الرب والطبيعة. كل منهما يبحث عن أغنيته وينجز عمله. هذا ما خبرناه خلال مائتين وخمسين عاماً على البحر، منذ غادرت سفينة نيبور لأول مرة ميناء كوبنهاغن وغاصت في بحار الجنوب بحثاً عن العربية السعيدة»

تذكرت سيلڤيا شيئاً من ذلك الحوار المجنون فصعدت من رئتها بعض الأنفاس الشريدة.

قامت بتحويل مبلغ خمسين يورو على موقع كول بوي، واختارت كارستن نيبور. شعرها الآن بني اللون، لقد هبط إلى طبيعته. غيرته بعد أن هجرها صديقها الروسي.

«أنا مجنونة»

همست لنفسها، وأخذت رشفة من البيرة الباڤارية التي تفضلها، واسترخت في صالونها منتظرة، وأدركها النعاس.

أيقظتها رسالة على موبايلها تقول:

«زبونتنا العزيزة، نرحّب بك كل الترحيب، سيصلك كارستن نيبور الليلة تمام العاشرة مساء»

سحبت ابتسامة ثقيلة، وأغمضت عينيها مجدداً وسمعت صوت سفينة.

هالّلويا

تمام العاشرة مساء طرق كارستن نيبور باب سيلڤيا كاوفمان، وكان يرتدي زياً غريباً. أما هي فبقيت في بيجامتها الوردية. كان الظلام لا يزال هشاً وخفيفاً وقابلاً للتبديد. كعادة ألمانيا في الصيف لا يحل الظلام قبل العاشرة مساء. تراجعت سيلڤيا خطوات إلى الخلف وهي تعاين منظر كارستن نيبور. لكن رائحة الشاب الغريبة والشهية أنقذت الموقف. جلس على أريكة مكسوة بالجلد على الجهة المقابلة للبكلونة. بقيت سيلڤيا واقفة، بجمالها البارد. وضع الجيتار جانباً ونظر إلى سيلڤيا، إلى وجهها ثم قدميها.

سألته «ماذا تحبّ أن تشرب»؟

فقال على طريقة بحّار يُحتضر «أريد شربة ماء أيتها الربة»

سرت رهبة عارمة في ساقي تلك الربة، وتبعتها اللذة.

وهي تتجه إلى المطبخ المفتوح على الصالون بقي نيبور يحدق فيها فرأى ظهر سفينة. رأى السفينة التي غادرت ميناء كوبنهاغن قبل مائتي عام

وغاصت في بحار الجنوب. حتى السارية رآها أراها صورة له وهو يرتدي زي شيوخ البادية العرب: الخنجر الحديدي على الخصر، المسبحة السوداء المُدلاة على المقبض، العمامة، الثوب الملون، الأكمام الواسعة، والعباءة الغليظة الواسعة. اشترى تلك الملابس عن طريق الإنترنت بعد بحث مضن، وأرادها شبيهة بتلك التي ظهر بها كارستن نيبور في الكُتب. قال إنه يرتديها في منزله حين يعزف لنفسه أغاني البحار.

ناولته سيلڤيا الماء، وناولها الصورة.

«إلهي، كم أنت جميلة» قال نيبور.

«يا لها من صورة مهيبة، أظنها ملابس بدو؟» قال

«البدو يخافون من البحر. هذه ملابس بدوي كان بحاراً ثم نسي البحر»

وهي تتأمل الصورة قال لها: ظننتك فوق الأربعين.

«لم أبلغ الثلاثين بعد».

قالت سيلڤيا، كأنها تحاول تذكير الرجل بأشياء قالها سابقاً ونسيها.

«سنغني، إذن. سنغني يا فاطمة»

«فاطمة؟» قالت مندهشة، وكانت لا تزال واقفة.

«نعم، أنت فاطمة. أجمل نساء الصحراء. الربة التي أركبها فون هاڤن على عنقه، وهو يغادر السفينة ويدخل البر».

ضحكت الفتاة التي صار اسمها فاطمة، وجلست على ركبتيها بالقرب من الرجل الذي يجلس متربّعاً على الأرض. همست على طريقة

أميرات ذلك الزمن اللاتي لا نعرف عنهن شيئاً، لا نحن ولا سيلڤيا ولا نيبور:

«إذن غني يا نيبور، غني أيها البحار»

وراح البحّار يعزف ويغني، وهي جاثية على ركبتيها، مغمضة العينين. كان شعرها يتطاير، والهواء يأتيها من البحر الجنوبي، ورجال عراة الأجساد يبصرونها من بعيد وساقاها مدلتان على عنق بحّار أبيض.

عزف كارستن أمام فاطمة «رملٌ في نعالي» لجورج شيرينغ، وهي واحدة من الأغنيات التي لا يعزفها سوى في الظلام أو بالقرب من المدن التي لا يعرفها، كما يزعم أمام زبوناته. عندما بدأ العزف أغمض عينيه وأحنى رأسه إلى اليمين قليلاً:

«آه يا حبيبتي،
آهٍ من رملٌ في نعالي يسوقني إليك من جديد
آهٍ يا حبيبتي،
الرمل في نعالي، الرمل في أوتاري،
الرمل في روحي المجلجلة في المحيط
آه يا حبيبتي،
جئتك من البحر،
وقد ملأ الرمل نعالي وأوردتي»

«غني يا نيبور، غني لي»

قالت سيلڤيا التي صارت مرحة أكثر ولم تكن تدري أن ما شربته من البيرة الباڤارية حتى تلك اللحظة قد فاق كل المرّات.

هب الشاب الذي قال إن اسمه كارستن نيبور واقفاً وراح يطوف حول الفتاة وهي جاثية. كان يطوف حولها ويعزف بجيتاره، ويغني لدوريس دي:

«احملني إلى القمر،

وعلمني الركض بين النجوم

املأ قلبي بأغنية،

واجعلني أغنيها حتى الأبدي

أنت الذي انتظرته طويلاً

أنت معبودي الذي أعشقه»

بعد ما يدنو من الساعة قالت الفتاة بنبرة متعبة:

«اكتفيتُ أيها البحار، لقد اكتفيت. تستطيع الآن المغادرة، سأنتظرك في الأيام القادمة».

توقف نيبور عن العزف دون أن يبدي أي ردّة فعل. فهو أحياناً يغني وأحياناً يجامع، وقد تطلب امرأة ذلك الشيء وأخرى الآخر، إنه عمل الزبون فيه هو الملك وهو الآمر.

وهو يدس الجيتار في الحقيبة سألها متشككاً:

أ «أحقاً هذا كل ما تريدينه؟»

«نعم» أجابت سيلڤيا ومضت إلى غرفتها.

سرعان ما عادت ووقفت أمامه. قام الرجل وامتثل أمامها فوجدها تفتح ذراعيها. دخلت هي بين ذراعية ووضع هو كفه اليسرى حول خصرها، ورقصا معاً الڤالس. كان يهمس في أذنيها بأغنية دين مارتين التي عزفها قبل هنيهة:

«آه يا حبيبتي،

امنحيني مخدتك التي حلمتِ عليها

لأحلم عليها أنا مثلك

وأشاركك أحلامك العاشقة»

وهي تودعه وتغلق الباب خلفه قالت:

«في المرة القادمة ستعزفُ لي: أشعر بأغنية قادمة»

«غنيتها لكِ الليلة» قال وهو يحدق فيها من الأسفل، وكان قد هبط بضع درجات.

«لا، أنت لم تفعل»

قالت وهي تعبث بشعرها ببطء محاولة استعادة تركيزها.

«إني أحذرك منها يا صغيرتي، فهي أغنية مليئة بالمجد والحب» قال كارستن نيبور وهو يحاول استعادة اللحن.

وردّد الاثنان:

هالّلويااا.

المكان الذي يجتمع فيه كارستن نيبور برفاقه، أو أعضاء بعثة نيبور كما يطلقون على أنفسهم، يقع إلى الجهة الشمالية من كنيسة القديس نيكولاوس. في التحقيق الذي أجرته الشرطة مع كارستن نيبور، في مستشفى نيكولاوس، تحدث الشاب عن نفسه وفريقه بطريقة دفعت الشرطة إلى إخلاء سبيله. عرفنا من قبل أن النقيب كلاين رفض أن يضيف إلى تقريره أي جملة مما سمعه من كارستن نيبور في المستشفى، معتقداً أن الرجل يعاني من فرط الخيال.

في ذلك الصباح قال لهم كارستن نيبور، أيضاً:

«كنا ستة، خرجنا في بعثة علمية انطلقت من كوبنهاغن، سنة ١٧٦١، ووصلت إلى بر العرب. وصلتْ نهاراً، آخر النهار، بعد ما لا يمكن عدّه من النهارات في البحر. أمام الصحراء توقفت السفينة فركبنا ظهور الجمال وعبرنا جبال سيناء. هناك رأينا الطريق التي كان يمر فيها الرب ويلتقي أنبياءه خلسة. ثم هبطنا إلى صحراء سيناء ومررنا بالقرب من نبع هاجر الخفي وقد حلّت محله شجرة. بالقرب من البحر حلمنا مثل يعقوب. بعد أن غادرنا الصحراء وجدنا البحر ثانية ومن هناك ركبنا على ظهر سفينة أخرى حتى اقتربنا من الظلام الدامس في الأرض السعيدة بعد أشهر عصيبة. ما من شيء أكثر رهبة ومجداً من سفينة تهبط في البحر ذاهبة إلى أراضي العرب. كانت المهمة التي أسندها إلينا، إليّ أنا شخصياً، ملك

الدنمارك فريدريك الخامس هي البحث عن الظلام الدامس الموصوف في العهد القديم. أنا عالم رياضيات، أو هكذا كنتُ أما الآن فأنا مغني چاز، أغني الچاز الهادئ. ما الذي بوسع عالم رياضيات فعله حين يرى الظلام الدامس؟ وماذا بمقدوري فعله حيال ذلك الظلام وقد أصبحتُ عازفاً؟ قلت ذلك لملك الدنمرك، فرد علي بكلمة واحدة: الكثير. في الأراضي العربية مات رفاقي الواحد تلو الآخر، ومات آخر رجلين منهم على ظهر السفينة فألقيت بأجسادهم إلى الحوت. وبعد أن عثرت على طريقٍ للعودة، بعد سنوات طويلة من التيه، مات الملك. وربما مات قبل آخر رفاقي. تركت العهد القديم وأسراره في العربية السعيدة وحملت قمصان رفاقي الموتى وعدت. ولولا فاطمة لما نجوتُ، ولو أن الملك فريدريك الخامس انتظر فاطمة لما نجوت أنا، أو لماتت هي»

قال الشرطي الذي كان يضع ثلاث نجمات على كتفه للمرضة البلقانية التي كانت تستمع إلى حديث نيبور بانبهار شديد:

«بإمكانه مغادرة المستشفى في أي وقت، سأتحدث إلى الطبيب المناوب» وأشارت الممرضة بيدها إلى الكوريدور الطويل الذي يوصل إلى غرفة الطبيب المناوب.

عندما غادر كارستن نيبور المستشفى كانت الراهبة أورسولا تقول لرجل عجوز، كان يتأمل برج الكنيسة من الخارج، إن غموض الأشياء أنهكها، وأنها تتمنى لو أنها ماتت قبل مائتي عام أو أكثر. في ذلك الزمن،

قالت أورسولا، كان بمقدور المرء أن يحصل على الموت داخل الحياة وعلى الحياة في الموت، ولم يكن أحدهما غريباً على الآخر.

لطالما اعترفت أورسولا لأخواتها إنها غدت متعبة وما من مخرج لها من ألمها الدفين سوى بأحد أمرين: أن تموت بهدوء، أو تمضي في رحلة بعيدة تنتهي بظلام دامس.

فرط الخيال

وقفت سيلڤيا مع زميلتها أمام بوابة جانبية لمركز الشرطة، وهو مبنى عتيق الطراز يقع على تلة مرتفعة تطل على وسط المدينة ويمتاز ببوابته القوطية الأثيرة. قالت سيلڤيا إنها زارت كارستن نيبور في منزله. كان يوم اثنين، والفتاتان تستعدان لأسبوع جديد.

«كارستن نيبور؟ كارستن نيبور»؟

تساءلت ڤينسّا وهي تطلق من فهما سحابة دخان محاولة استرجاع الاسم.

«المتشرد الذي قال إنه يعزف للعواصف» ساعدتها سيلڤيا في التذكر «أها، الشاب الذي أصيب في رأسه قبل شهرين في ميدان الراين» استعادت ڤنيسّا صورته في ذاكرتها.

«قلت إنك زرتِه في منزله؟» أضافت ڤينسّا مبدية قدراً من الاهتمام.

«هل قلتُ في منزله؟ أعني زارني إلى منزلي. أنا من طلب منه ذلك»

أجابت سيلڤيا بتمهّل.

«مثير» قالت ڤينسّا وهي تتأمل عيني زميلتها، طالبةً منها المزيد.

«بالفعل، مثير. أما كيف زارني فتلك قصة أخرى سأخبرك عنها فيما بعد. كما توقعت، جاء يحمل الجيتار وغنى لي من الچاز الهادئ. يحفظ عشرات الأغاني ويجيد العزف، صوته ليس أسوأ صوت في العالم. أحياناً يتحدث كالفلاسفة وأحياناً كالمتشرّدين، مرّة يقول أنا بحّار، وأخرى يقول أنا عازف جيتار. إجمالاً فالحديث إليه ممتع وهو أقرب إلى الحكمة منه إلى الجنون. أعتقد أن الوصف الأمثل لشخصيته هو ما قاله النقيب كلاين: يعاني من فرط الخيال. نسيتُ أن أسأله من أين جاء ولا إلى أين سيمضي»

ـ ثم؟

ـ لا شيء. راح عندما انتصف الليل.

ـ هل قال شيئاً عن تلك الحفرة العجيبة؟

ـ لم نتطرّق لهذا الأمر. كنتُ أطلب منه أن يغني فقط. وكلما توقف وبدأ حديثاً عن البحر والبلاد السعيدة التي اكتشفها في جنوب الأرض أطلب منه الانتقال لأغنية أخرى.

ـ الآن تذكرت، قبل شهر تقريباً فتحتُ ملفّه الإليكتروني. أخبرني السيد كلاين أن الملف أغلق بشكل نهائي وطلب مني قراءة الإضافات التي كتبها الزملاء لأصنع لنفسي فكرة نهائية عن الموضوع، أعني بوصفي عضواً في المجموعة التي واجهت المشكلة منذ البداية.

ـ أها

ـ من الواضح إن غالبية الزملاء هُنا يعرفون جيداً من هو كارستن نيبور.

ـ يعرفون كارستن نيبور؟ سألت سيلڤيا بقليل من الاضطراب.

ـ نعم [نطقتها ڤينسا بالإنجليزية]

أضافت ڤينسا:

ـ يسكن في شقة صغيرة في الجهة الغربية من المدينة وهو شخص غريب الأطوار وليس له أقارب في إيسّن. غالباً ما يظهر في المدينة مع الغسق. يضع الكاب على رأسه بشكل دائم، ويطوف شوارع المدينة لساعتين أو أكثر ثم يختفي. قليلاً ما يحمل الجيتار أثناء حركته في المدينة. لكنه أبداً لا يتخلى عن آلة التسجيل. آلة غريبة بعض الشيء، أسطوانية وطويلة يضعها دائماً تحت إبطه، تخرج منها موسيقى روك عالية تهز الجدران. طلبت منه الشرطة مراراً خفض الصوت إلى إن استجاب بعد التهديد. يستمر ماشياً في الشوارع بخفة وعجلة، يحرك رأسه وكل جسده مع الموسيقى. لا يتوقف ولا يطلب شيئاً ولا يتحدث إلى أحد.

ـ موسيقى روك؟ هتفت سيلڤيا وتركت شفتها السفلى تتدلى بعض الشيء.

ـ موسيقى روك. ما الذي أثار استغرابك؟

ـ أعني أن ما سمعته منه كان چاز، من الچاز الهادئ. كان يجيده،

أستطيع أن أقول إنه كان يغني بوقار وحكمة. كان يبدو ملتحماً بأغانيه، كل الأغاني التي اختارها كانت بالنسبة لي على الأقل جميلة، أعرف أغلبها. لم ألحظ إشارة واحدة تقول إنه هو نفسه الشخص الذي تتحدثين عنه.

ـ الآن يا سيلڤيا: هل تتحدثين عن المعتوه الذي قال إنه يشوي اللحم في العاصفة؟

ـ نعم، هو نفسه. تأكدت من الشجّة على جبينه. أنت رأيتِه في الليل وأنا زرته في النهار. أنت تقولين إنه يحمل آلة تسجيل ويمشي في الشوارع، وأنا أقول إنه يصطحب الجيتار ويذهب إلى البيوت.

ـ جيد. بهذه الطريقة يبدو مثيراً أكثر، نحن أمام شخصية مزدوجة إذا كنا نتحدث عن الشخص نفسه.

ـ هذا ما أقصده يا ڤينسّا.

شردت سيلڤيا لبرهة، وتذكرت ملامح الرجل في زيّه العربي الغريب، كما رأته في الصورة، وملامحه الآرية وهو يرمقها من الأسفل ويعدها بالرجوع. أخذتْ نفساً عميقاً من سيجارتها، وكانت قد احترقت حتى الفص الأخير. لا تدخن سيلڤيا كثيراً، هي مضطرة لفعل ذلك وإلا لن تعرف الشيء الكثير عن ما يجري في مكان عملها. في استراحة التدخين يأتي الموظفون من أقسام مختلفة ويلتقون أمام البوابات، هناك يتبادلون المعلومات والنميمة عمّا يجري. نصحتها أمها، سابقاً، أن تتخذ لها كلباً. قالت لها:

ـ إذا كان لديك كلب ستعرفين عن الحارة كل شيء، والمعرفة أمان.

غير أن سيلڤيا اتخذت لها قطة.

أغمضت عينيها ورددت:

هاللوياااا.

وردّدت معها ڤينسا: هاللويااا

وترنحت معها، وهما تتقمصان الطريقة التي يغني بها ليونارد كوهين أغنيته الشهيرة تلك.

حتى إن ڤينسا فخمت نبرتها، قبل أن تطلق الفتاتان ضحكتين وتختفيان.

بيتر فورسكال،
البحار وعالم الطبيعة

كانت سيلڤيا مستلقية على أريكتها تشاهد التلفزيون وبيدها الريموت كونترول. الساعة تشير إلى السابعة مساء من الأيام الأخيرة لأغسطس وقد عادت للتو، قبل ساعة، من العمل. تحدثت مع والدتها في الهاتف لبضع دقائق، كما تفعل نهاية كل أسبوع. كان حديثاً عادياً حتى إن أمها سألتها ما إذا كانت بلوزتها البنفجسية لا تزال سليمة. بقيت تتابع برنامجاً حوارياً على القناة الأولى حول اقتحامات المنازل، وقعت على البرنامج بالصدفة المحضة. الضيف الذي كان يجلس على يسار الشاشة سرد ادعاءات ضد اللاجئين العرب، قائلاً إن معدل الجريمة ارتفع بشكل ملحوظ منذ وصول الموجة الأولى منهم. على الجهة اليُمنى كان ضابط شرطة كبير يرد على ادعاءات خصمه بسرد بيانات وتسلسل تاريخي للجريمة في ولاية شمال الراين.

«استطعنا تعقب المجرمين في 40 % من الحوادث التي وقعت في

النصف الأول من هذا العام. كان الروس يشكلون 13 %، 23 % مهاجرون من دول شرق أوروبا، العرب 11 %، والأكراد 6 %. أما الـ 47 % المتبقية فكانت موزعة بين الألمان وجنسيات أخرى عديدة بنسب لا تتجاوز الـ 5 % لكل إثنية»

قال رجل الشرطة، وهو ينظر إلى ورقة بين يديه.

«الروس» غمغمت سيلڤيا وهي تضغط على الزر الأحمر. ألقت برأسها على مخدة بيضاء محشوة بالقطن، وأغمضت عينيها.

بعد برهة نظرت إلى ساعتها، كانت تقترب من العاشرة، الظلام يدخل بهدوء إلى الدار. وقفت وتمشت قليلاً في الصالون، ثم أطلت من باب البلكونة على الحي المجاور. لاحظت أن الكشك الموجود على ناصية الحي بالقرب من محطة الحافلات كان أكثر الأماكن التي غمرها الظلام. بقيت في مكانها فوصلت الحافلة في موعدها، خمّنت سيلڤيا. لون الحافلة الأصفر الذهبي اختفى، لكن ملامحها الأخرى بقيت بادية. استدارت سيلڤيا إلى الداخل.

في مساء ذلك اليوم كانت الراهبة أورسولا تقول لڤيرنر، الراهب الذي جاء لزيارتها وكان قد تخلى عن الكنيسة والتحق بحزب الخُضر قبل عشرة أعوام، إنها تخشى أن ترِث العواصفُ الربّ، وأن تخرج الضفادع بعد انقضاء العاصفة فتحتل المنازل. ضحك ڤيرنر، ضحك من قلبه، ووعدها بأن يعملا معها لإخراج الضفادع من البيوت وإعادتها إلى جحورها.لكن أورسولا نهرته قائلة:

«لا تسخر من مخاوفي يا ڤيرنر. فبعد أن حل الظلام الدامس بمصر خرجت الضفادع من مخابئها واقتحمت المنازل. اقرأ العهد القديم يا ڤيرنر، اقرأ».

لوّح لها الرجل بيده، واستدار بعيداً وهو يردد:

«سأفعل يا أورسولا، بالتأكيد سأفعل».

تناولت سيلڤيا الآي باد من على الطاولة التي أمامها وكانت مسترخية على الأريكة. كان محاطاً بأوراق فارغة، بمظاريف صغيرة مفتوحة، بوثائق رسمية صادرة عن جهات عديدة، بأوراق تدوين ملونة، ببقع قهوة دائرية قديمة، بزجاجتين من بيرة مايزيل الباڤارية «اشترت بالأمس صندوقاً به ست زجاجات، تركيز الكحول فيها يصل إلى ٧٪. تفضّل سيلڤيا البقاء في منطقة بين البيرة والخمرة ولا يمكننا القول إنها كانت مولعة بالشرب، لا البيرة ولا حتى المياه الغازية». كان على الطاولة شريط أقراص منع الحمل نسيت أن تعيده إلى مكانه، ويبدو أنها نسيت يومين أو ثلاثة. كانت هناك أشياء أخرى صغيرة.

بحثت في غوغل عن «كول بوي، إيسن» فعثرت على ما تريده في الخيار الأول. ضغطت على أيقونة «نحن» فوجدت قائمة العاملين الستة. كان اسم كارستن نيبور الأول. عادت إلى الصفحة الرسمية وبحثت في الأعلى. لمحت أيقونة «كلمة شرف» ونقرت عليها. تقول كلمة الشرف إن بيانات الشخص ستبقى سرية، وأن القائمين على الموقع يتعهدون بعدم

تبادل بيانات الزبائن حتى فيما بينهم، وبعدم الحديث عن الخدمة التي يقدمونها، حتى إلى أعضاء الفريق نفسه.

«جيد» همست لنفسها، واختارت بيتر فورسكال، الشخص الذي يقع في الترتيب الثاني.

حتى هذه اللحظة يصعب علينا القول إن سيلڤيا تفكّر باستطلاع القصة التي عثرت على أول خيوطها بمحض الصدفة، أو أنها ترغب بمعاشرة الرجال جنسياً. فقد جلبت رجلاً قبل أيام ليغني لها وهي تشرب البيرة. إلا أنها، بغير علمها، تقترب من قصة مثيرة قد تغير مجرى حياتها. أقول: قد تغيّر حياتها. لقد وقعت فريسة الفضول والملال وشيء مأساوي وملحمي من الرغبة والشرود وانهيار اليقين.

ها هو فورسكال يطرق باب شقتها بعد منتصف الليل. اعتذر لها، وهو يصافحها، عن تأخره. تعلمين، قال، إن المواصلات العامة تكون صعبة بعد العاشرة، خصوصاً خط السير 140.

«ليست مشكلة» قالت سيلڤيا وهي تتنحى ليمر الرجل الذي كان يضع ضمادة على قدمه اليمنى.

«ماذا تحب أن أن أقدم لك» سألته سيلڤيا بشيء من الارتباك، فرد عليها وهو ينظر إلى قدميها

« شربة ما».

«أنت شرطية؟» سألها بغتة، وكانت قد جلست قبالته.

هزت رأسها مستغربة ومبتسمة

«شرطية؟ لماذا تفكر بأني قد أكون شرطية؟»

«الشرطيات يرتدين البيجامات في المواعدات»

قال بهدوء وهو ينظر إلى عينيها مباشرة.

«هراء. ولماذا يفعلن ذلك؟» قالت، وقد استطاعت التحكم بارتباكها.

«قد يكون هراء، ولكن هذا ما لاحظته»

«هل تذهب في العادة إلى شرطيات؟»

«وإلى رجال شرطة أحياناً» قال فورسكال وقد صرف عينيه عنها.

لم تجد سيلڤيا من تعليق. أخذتها اللحظة. وقفت فجأة وتناولت الكوب الفارغ من أمامه وسألته «هل تريد مزيداً من الماء»

هزّ رأسه بالنفي: شكراً.

جلست قُبالته مرّة أخرى وراحت تبحث في رأسها عن الكلمات المناسبة، بينما تتظاهر بالتقاط أشياء من على الطاولة البيضاء التي تفصلها عنه. كانت، لا ينبغي أن يساورنا شك في هذا، قد نظفت الطاولة قبل وصوله إلا من الأشياء الصغيرة.

لنتحدث عن سيلڤيا قليلاً، الحديث عن هذه المرأة شيق:

ولدت سيلڤيا في مدينة غوتنغن وانتقلت مع أسرتها، في السادسة من عمرها، إلى مدينة كولن في غرب ألمانيا. التحقت بالشرطة قبل خمسة أعوام، وأحبت عملها. ومع الأيام تعرفت على صديقها الروسي في مطعم

ماكدونالدز في محطة القطارات الرئيسية لإيسّن. لا تعرف شرطة أي مدينة مكاناً بكل تفاصيله وشخوصه مثل محطات القطارات. فهو مسرح رجال الشرطة والموضع الذي يهرعون إليه أولاً عندما يكون عليهم أن ينتشروا عشوائياً لأمر ما. تدربت سيلڤيا في عملها على التحكم بانفعالاتها وعلى ملاحظة التفاصيل. وعندما تعمّقت في المهنة تعلمت الاقتصاد في الكلام واختيار الأسئلة القصيرة.

استمعت سيلڤيا قبل أكثر من عام إلى شرطي عجوز وهو يحاضر عن الحدس كآلة تحقيق وكطريق قصير لاكتشاف الجريمة. قال:

«الشرطية ليست راهبة، من حقها أن تمارس الجنس. لكن الإكثار منه يزهق البصيرة. لا يتعلق الأمر بالشرطية الأنثى وحسب، بل بالشرطي الرجل. الجنس طاقة وهو من أكثر ضروب الطاقة ضراوة. شرطة هذه المدينة أكثر الناس إدراكاً لمعنى الطاقة، فمدينتكم تقع على منجم فحم كبير. تعلمون جيداً أن إيسّن لم تفقد حيويتها وسمعتها إلا بعد نضوب المناجم. عندما أغلقت الحكومة آخر منجم فحم تقاعدت هذه المدينة وفقدت إبهارها. في السنوات الأولى لحياتنا الوظيفية، متى كان ذلك؟ قبل أربعين أو خمسين عاماً؟ ربما. كانت المبادئ الطاويّة جزءًا من مادتنا التعليمية، أو لنقل: كنا نسمعها كتوصيات محل تقدير. تعرّفنا على الجنس بوصفه طاقة، وقيل لنا بوضوح إن علينا أن لا نبدّد تلك الطاقة. علّمتنا مبادئ الطاو أن على الرجل أن يحتفظ بسوائله، فهي جوهره ومعناه، وأن الرجال الذين يهدرون سوائلهم يشيخون سريعاً، ومع الأيام يفقدون

بصيرتهم. الشيخوخة وانهيار البصيرة هما ما يقتل الشرطي. كذلك على المرأة الشرطية أن لا تمارس الجنس مع المجرمين، ولا خصوم العدالة. فالمرأة هي مخزن الطاقة الأكبر على الأرض، وهي تمنح شيئاً منها لمن يضاجعها. تخيلوا شرطية تمنح مُجرماً القوة. دعوني أعرض عليكم هذا الرسم البياني لدراسة نرويجية نشرت مؤخراً. كما تشاهدون من الخطوط البيانية ـ وهو يشير إلى لوحة المحاضرات بقلم ليزر ـ فالضباط الذين قالوا إنهم يمارسون الجنس مرة على الأكثر في الشهر هم الأسرع إلى اكتشاف الجريمة. لا يتعلق الأمر فقط بالاحتفاظ بالطاقة، طاقة الحياة، بل بالبصيرة أيضاً، بالحدس. قليل من الجنس يحفظ البصيرة، وبالضرورة سيحمي المدينة. تعلمنا من الأسلاف إن كبّار السن ليسو الأسرَع لكنهم يعرفون الطرق المختصرة جيداً. تلك هي البصيرة التي يستعيدها الرجال عندما ينزلقون إلى الكهولة ويتوقفون عن ممارسة الجنس. يدير الرجلُ للجنس فيرى ما لم يكن يراه من قبل»

هنا رفع شرطي، كان يضع نجمتين على كل كتف، كفه وسأل:

«أنت تقول إن الرجل يفقد جزءاً من طاقته عندما يمارس الجنس. وكذلك يحدث للمرأة فهي تمنح جزءًا من طاقتها لمن يضاجعها. لكن ألا يحدث تعادل في الطاقة في النهاية، فتحصل المرأة من الرجل على الطاقة التي منحته إياها؟»

قال الشرطي المُسن بثقة، متجاهلاً الضحكة الخفيفة التي سرت بين الحاضرين:

«لا، الطاوية لا تفهم معنى الحياة بهذه الطريقة، ولا أنا. وإذا كنت تلمّح إلى إمكانية أن يمارس رجال الشرطة الجنس مع نساء الشرطة فسأقول لك شيئاً: مقدار ما تفقده المرأة من الطاقة أكثر بكثير مما تحصل عليه. وذلك سيجعلنا نحصل على شرطيات واهِنات في نهاية المطاف. الرب المسيحي والرب المسلم كانا مدركين لتلك المسألة. منع الأول الراهبات من مضاجعة الرجال. فعليهن أن يحتفظن بمعنى الحياة صافياً حتى يتمكنّ من التعرف على نور الرب وإرادته عند الملمّات وفي ليالي الشتاء الطويلة. وقرّر الثاني، أعني الرب المسلم، منح الرجل الحق في أن يتزوج أربع نساء حتى يعملن جميعاً لأجل منح الرجل الطاقة التي يتطلبها جسده، فجسد الرجل متطلّب، ولكي لا يتفرغ رجل واحد لإنهاك امرأة واحدة. سوى ذلك فإن جسد الرجل سيتسنزف المرأة الوحيدة، وستسقط في الأخير مثل ورق الخريف. بالنسبة لذلك الربّ، وهو ربّ محارب وجسور، فإن المرأة الهشة لن تكون قادرة على إسناد جيوشه الكثيرة، وذلك هو ما يعنيه في نهاية الأمر».

«أنتفي الثلاثين من العمر» قطع فورسكال شرودها.

«أنا لا. أنا نعم. أنا في الثلاثين، أزيد أو أقل قليلاً. لمَ تسأل؟» ردت سيلڤيا مرتبكة.

«أنا لا أسأل. أنا أخمّن فقط. كنت شرطياً. عملت مع الشرطة في دورتموند عشرة أعوام، وعندما وصل المهاجرون البلغاريون إليها تركتُ عملي»

«أها، الذي دفعك لذلك؟»

«لم يكن بمقدوري الاستمرار في تعقب مجرمين لديهم دائماً شيء من الحق إلى جوارهم»

«موقف منطقي بعض الشيء. وماذا تعمل الآن؟»

قال، وهو يرمقها بهدوء من الأسفل إلى الأعلى، ويتحاشا عينيها:

«أتعقب الشرطة».

وأطلق ضحكة عالية دفعت سيلڤيا للضحك. لقد ضحكت من قلبها، لنقُل ذلك، وهذه حقيقة.

«كن رجلاً صالحاً، ولا تنهكك الشرطة» توسلت إليه ضاحكة، وأخذت رشفة كبيرة وأنيقة من زجاجة مايزيل البنية الداكنة.

«بالطبع لا، أنا فقط أنهك الشرطيات»

قال الرجل وهو يغمز بإحدى عينيه ويأخذ رشفة من الماء.

استوت سيلڤيا في جلستها ولمّت ابتسامتها. تجعلها تلك البيرة مرحة أكثر. حتى إنها سألت نفسها قبل يومين وهي في طريقها إلى الشغل ما إذا كانت مايزيل تصيبها بفرط الخيال أيضاً.

سألت ضيفها بحذر:

«حسناً، وكيف تفعل ذلك؟»

قال الضيف الذي لا يزال اسمه حتى الساعة بيتر فورسكال:

«يوجد الكثير من المجرمين المساكين في هذه المدينة كما في المدن الأخرى. ويوجد عدد كبير من الشرطيات. قرأت إحصائية على صحيفة بيلد تقول إن نسبة النساء في جهاز الشرطة في إيسن تزيد عن 55 %. بطريقة ما قال التقرير إن ذلك ربما يكون السبب وراء تحسن أداء جهاز الشرطة في الأعوام الخمسة الماضية. رأيت مساكين، أعرف أنهم مساكين وهذا أمر آخر غير الذنب، يذهبون إلى السجون»

«حديثك مثير»

«ربما، ولكن دعيني أخبرك: أنا رجل صالح وكل ما أريده هو، كما تعلمين، أن أسدي معروفاً للنساء الوحيدات والملولات ولمن يشعرن بالضجر واللامعنى. كنت شرطياً، وفي أيامي الأخيرة في ذلك الجهاز الجاهل كنت أساعد المجرمين المساكين. أقول إنه جهاز جاهل لافتقاره إلى الخيال وإلى الحدس. اللامعنى هو نهر الراين الجديد، نهر هذه البلاد. لم يحدث أن قبّلت امرأة في فمها في مشاويري هذه. التقبيل كما أعتقد ينقل العواطف ويخلق الوشائج وأنا لست عاشقاً، أنا عامل. تبادل الوشائج أمر لا أريده أنا ولا المرأة التي تطلبني. في نهاية المطاف، كما تعلمت في الشرطة، فإن هذا العمل سينهكني ويدفعني للشيخوخة الباكرة، لكنه أيضاً ينهك النساء. في كل يوم أسأل نفسي: متى سأقفز من هذا المركب؟ سأفعل ذلك في القريب، حتى أصدقائي يفكرون بالطريقة نفسها. ضاجعت شرطيات كثيرات وكنت أفعل ذلك بحماسة رجل ينظر إليه أصدقاؤه السجناء ويهتفون: هيا أكثر، أكثر، افعل ذلك لأجلنا. أظن أني تركت شرطيات

كثيرات منهكات وتلك هي وسيلة الدفاع الوحيدة التي أملكها، ولا بد أن مجرمين مساكين قد أفلتوا كنتيجة لذلك. لا أريد شرح رؤيتي للدنيا، أنا أحدثك عن المجرمين المساكين.»

«ممم، مثير. ولكن قل لي كيف كنت تعرف أنهن شرطيات؟»

سألته وهي تنظر مباشرة في عينيه.

«حديثات العهد بالمهنة حمقاوات بعض الشيء. أو لأكن ودوداً وأقول: متساهلات. بعضهن كن يتركن بزاتهنّ الرسمية معلقات في الصالون. انظري خلفك مثلاً، هناك على اليمين. هناك بزة شرطية أرى نجمتها من هُنا. ستحصلين على النجمة الثانية بعد وقت طويل، هكذا تجري الأمور داخل هذا الجهاز الجاهل. بعيداً عن البزة، فأنا أعرف الشرطيّة من رائحة عرَقها. الآن، وقد تركت عملي في الشرطة أرى الأشياء بصورة مختلفة. لكني لا أزال أؤمن بالتعاليم التي تلقيتها في تلك المدرسة. فلا يوجد ما هو أخطر على أهل مدينة من شرطة فقدت بصيرتها»

هبّت سيلڤيا واقفة وراحت تدور في الصالون. بتلقائية التقطت البزة من الحائط وسمع الضيف، الذي لم يعد مرغوباً به، خطواتها وهي تمر عبر ردهة قصيرة إلى الداخل. عادت إليه وقد أخفت كل ملامحها وصارت شرطية ببساطة. بقي هو جالساً ومبتسماً وشرطياً وراح يحاصرها بعينيه.

كانت تلبس بيجاما خفيفة وشعرها لا يزال رطباً. كان صديقها الروسي يقول لها إن الرجال يحبون مضاجعة المرأة التي تلبس بيجاما

فهي تعفيهم من أشياء كثيرة وتطلب منهم، ببساطة، أن يكونوا عاديين وبهيميين. بخلاف المرأة المتأنقة، قال الروسي، فهي تجبرهم على أن يكونوا أنيقين وراشدين في المقابل، في النهاية ينفّذون عملية جنسية أشبه بإلقاء محاضرة لموظفي شركة. البيچاما تمنح المرأة شفافية وقداسة وتجعلها تبدو وكأنها ولجت إلى الحياة للتو، أو أنها لم تطأها بعد.

لثوانٍ ثبتت نظرها على قدميها، ثم التفتت إليه وقالت بلهجة شرطية آمرة:

«تستطيع الآن المغادرة»

ثم اتجهت إلى الباب وفتحته، وتنحّت جانباً.

قال لها الرجل وهو يغادر برباطة جأش ساخرة:

«لم أكمل حديثي بعد»

قاطعته:

«تحدثت بما يكفي»

أغلقت الباب فسمعته يقول وهو يهبط درجات السلم:

«كنتُ شرطياً وأنا الآن بحّار».

ألقت سيلڤيا بجسدها على الكنبة وأغمضت عينيها وراحت تغمغم «حمقاء». لا بد وأن عازف الجيتار قد رأى البزّة وعرف أنها شرطية. «وماذا في ذلك» قالت لنفسها. وجعلت تستعرض المهن التي ترتعد فيها فرائص المرأة عند التفكير بمواعدة زبائنها: الطبيبة، الشرطية، المعلمة، القاضية.

قالت لنفسها: والعاملة في مطعم، ثم تذكرت صديقها الروسي الذي كان يعمل في مطعم ماكدونالدز في محطة القطار المركزية. لكنه رجل، خاطبت نفسها، ثم رفضت الفكرة، فالمبدأ لا يمكن تأنيثه. قالت لنفسها: الجائز اللاأخلاقي، ولم تتذكر أين سمعت هذا التعبير.

في الواقع، ولنكن صرحاء، فالدافع وراء ما تفعله سيلفيا هذه الأيام لم يكن الرغبة الجسدية الخالصة، بل شعورها بالملل. حدثها فورسكال عن نهر الراين الجديد، ولما تذكرت حديثه وهي تتحمم شعرت بأن المياه التي تغوص في تضاريس جسدها قد أصبحت بلا معنى. فها هي واعدت رجلين قال كلّ منهما إنه بحار. أما الطريقة التي قادتها للتعرف عليهما فكانت ساعة في العاصفة. فكّرت في الحديث إلى ڤينسّا في الغد، لكن ڤينسّا كعادتها ستجلس إلى مكتبها وستبحث في ملفات هؤلاء الناس، وستغفل كلياً الجانب الفانتازي في الحكاية. بالنسبة لڤينسّا فإن كل الأشياء تحتفظ بمعناها على سطحها الخارجي، ما من عمق خلف الأشياء التي تمكِن رؤيتها. المقررات التي درستها فينسا في الشرطة جردت العالم من الألغاز، وتركت كل شيء مفسراً وعارياً، تعتقد فينسا.ستقول لها بكل تأكيد إن الشرطة سبق وسجلت كذا وكذا. فهي لا تجد تسليتها سوى في الوثائق والتدوينات وفي تحويل القصص المثيرة إلى أشياء باردة وواضحة. قالت مرّة وهي تتحدث عن اكتشاف جريمة كانت مقدمتها غامضة وغريبة «المجتمعات كيانات حارة مهمة الشرطة تبريدها وحقنها بالمنطق».

لا أحد يعرف قصصاً مثيرة أكثر من الشرطة، ولا أحد يطفئ وهجها

مثل الشرطة أيضاً. فقبل عامين ألقت شرطة إيسن القبض على مسنّ كردي كان قد أحضر عدداً من أفراد عشيرته إلى ألمانيا بطريقة غير قانونية. وعندما سألوه لدى التحقيق لماذا فعل ذلك قال إنه كان بحاجتهم لأنه لم يجد في أوروبا أناساً بمقدوره أن يلعب معهم «القبعات التسعة» في ليالي رمضان. أغضبت الإجابة تلك رجال الشرطة حتى إن أحدهم راح يركل الحائط بقدمه.

«سأتسلى لوحدي مع هؤلاء المجانين» قالت سيلڤيا لنفسها. التقطت الآي باد الخاص بها، كانت قد وضعته إلى جوار التلفزيون. راحت تتصفح صور وبيانات الأشخاص الستة على موقع كول بوي إيسّن، وبدا أن النعاس قد غلبها، فالساعة تقترب من الثانية فجراً وغداً يوم سبت.

كان ترتيب الأسماء على النحو التالي، ويبدو أن سيلڤيا قد تنبّهت لأول مرّة إلى الوصف المكتوب بخطوط صغيرة تحت كل اسم:

ـ كارستن نيبور

رياضي وراسم خرائط

ـ بيتر فوركسال

عالم طبيعة

ـ فريدريش كريستيان فون هافن

فيلسوف وعالم باللغة العربية.

ـ كريستيان كارل كريمر

طبيب

ـ جورج باورِنفايند

رسام وحفّار

ـ بيرغرين

ساقي وسائس خيول.

بيرغرين، سائس الخيول

الأسبوع التالي كان اعتيادياً بالنسبة لسيلڤيا، كان بالها مشغولاً بعض الشيء ولم تجد نفسها مضطرة للحديث عن شواغلها إلى ڤينسّا الرهيبة. مساء السبت من الأسبوع الأول من سبتمبر، عند السابعة تقريباً، كانت تقوم بمهمة اعتيادية في وسط المدينة ضمن مناوبات عطلة الأسبوع التي تؤديها مرة إلى مرتين في الشهر. يقضي رجال الشرطة وقتاً طويلاً في الأماكن العامة ولا يفعلون أكثر من مراقبة الناس. كانت سيلڤيا ترتدي زيها الشرطي المهيب، ومن الممكن ملاحظة القوام التاريخي الذي تمتلكه. وربما همس رجل من الذين كانوا يجلسون على مقهى توسكاني على ناصية شارع كيتڤيغ «من المؤسف أن تنصرف كل هذه الأنوثة إلى ملاحقة اللصوص» وترد عليه المرأة التي تجلس على الجهة الأخرى من الطاولة:

«بالفعل، هذا ما قلته عندما رأيت الشرطي الذي يقف إلى جوارها»

بعد برهة قصيرة مر شاب يحمل جهاز تسجيل كبير على شكل اسطوانة

طويلة تحت إبطه الأيسر، كان ممسكاً به بكلتا يديه. موسيقا روك عالية بعض الشيء تنبعث، والشاب يتحرك بخفة كأنه يمشي على جمر ويحرك شفتيه ويهز رأسه. لا يبدو أنه لفت انتباه أحد. مرّ كأنه شبح أو كأنه يمر هناك منذ آلاف السنين. كانت سيلڤيا تقف مع زميليها على بعد بضعة خطوات من البوابة الرئيسية لمكتبة مايرشه على الجهة المقابلة لمبنى البلدية. اقترب الشاب منهم ومر قريباً وهو يضع الكاب على رأسه بالمقلوب. هو أيضاً لم يلفت انتباهه شيء سوى ألفريد كروپ. اتجه إلى تمثال كروپ، أكبر صانع حديد في أوروبا في القرن التاسع عشر، وحدق برهة في عيني التمثال. لم تتوقف شفتاه عن الحركة ولا رأسه وبقيت الموسيقى صادحة وغليظة. سبق أن كَتب على ظهر التمثال من قبل «أخبرني كيف وجدت الفردوس» وبعد أن طاف بالمدينة وعاد وجد أن أحدهم قد مسح سؤاله. أدركه الغضب فأخرج طبشورته وكتب «أخبرني كيف وجدت الجحيم؟»

كانت سيلڤيا تراقبه بحذر، فقد تعرفت عليه في الحال. تجاوز التمثال واتجه بمشيته المميزة إلى كنيسة بروتستانتية تقع بوابتها مباشرة إلى الخلف من التمثال. وقف الرجل أمام البوابة ثم ألقى نظرة مفاجئة إلى الوراء، إلى المكان الذي تقف فيه سيلڤيا مع زميليها. سرت رعدة صغيرة في ساقيها وصعدت حتى ضربت عرقاً صغيراً في عنقها، حتى إن سحابة داكنة نشأت في الحال عند خصرها. خشيت سيلڤيا من شيء غامض، الرجل ينظر إليها بصورة مباشرة ويوشك أن يلحق بها عيباً في وضح النهار. تعرف سيلڤيا ماذا حدث عندما قالت متسولة بلقانية قبل شهرين للضابط

الوقور والمتجهم «بيرترولد» الذي كان يعاين سيارة واقفة «ماذا تفعل هُنا يا بيرتي؟» لقد فهم زملاؤه باقي القصة. وبعد أيام كان كل الضباط المستجدين في مدينة إيسن يعرفون أن المعلم بيرتي، كما كانوا يلقبونه، يضاجع المتسولات.

لا تزال الموسيقا العالية بعض الشيء قادمة من اتجاه الكنيسة، والناس يعبُرون. كانت أنوار الكنيسة مضاءة، ويمكن ملاحظة أناس يتحركون في الداخل عبر الباب الزجاجي. بقي الشاب في مكانه يحرك رأسه إلى الأمام والوراء، ثم حاد يساراً ومضى في سبيله. أما سيلفيا فستنتهي مناوبتها بعد ساعة، وستكون قد عملت لاثني عشر ساعة متواصلة كما هي العادة في مناوبات عطلة الأسبوع.

في الليلة تلك بعد العاشرة بقليل طلبت سيلفيا «بيرغرين» الساقي وسائس الخيل. لم تتلق تأكيداً حول الطلب ونسيت هي طلبها.

تركت الآي باد على الطاولة وراحت تتحمم، ثم خرجت وتمشّت في الدار عارية. لم يسبق لها أن اهتدت إلى جمالها كما تفعل الآن. وها هي تستعد، بطيب خاطر، لتهبه لسائس خيل. رأتها في اللحظة تلك مُسنّة في دار العجزة على الجهة المقابلة فهتفت وهي تطفئ أنوار غرفتها «ربّاه، لقد أرهقتَ نفسك وأنت تصنع كل هذا» ثم ألقت بجسدها على سريرها ببطء وتوقف كل شيء فيها عن الحركة.

لكن سائس الخيل تأخر أسبوعاً كاملاً. جاءها تأكيد على الموعد الجديد مع اعتذار أرسله الموقع آلياً إلى تلفونها وإيميلها في الوقت نفسه.

وفي ليلة السبت التالي راح ينقر باب شقتها بأطراف أصابعه. ما من شيء غريب في ملامح الرجل فهو يبدو مثل كل رجال هذه المدينة، سمين بعض الشيء. صافحته سيلڤيا وهي تنظر في عينيه مباشرة فكاد يسقُط. كانت الساعة تشير إلى العاشرة، وقد ارتدت سيلڤيا فستاناً أسود هذه المرّة. إذا حدث وتطور الحوار إلى المعاشرة، قالت لنفسها، فليكن كمن يلقي محاضرة في شركة، قالت لنفسها. خلف كل هذا أرادت سيلڤيا، وقد تزيّت على ذلك النحو المهيب، أن تدفع الضيف إلى الإفصاح عن أسراره. شرب السواد لون بشرتها فوجد بيرغرين نفسه كأنما يعاين الغسق أو انبلاج صبح في قرية. صبت كأسين من البيره الباڤارية المفضلة وتبادل الشاب والشابة كلمات بلا معنى حول الطقس وحول الصيف. قالت إنه لم يكن صيفاً كما كانت تتوقع. وقال إنه لم يخرج للشواء سوى مرة واحدة. وعندما سألته «مع من»؟ قال: مع صديقي كارستن نيبور. بُهِتت الفتاة، أو أخذت بغتة، فغيرت سكّة الحديث وقالت:

«سافرتُ مع صديقي السابق في الرابع من يونيو الماضي في رحلة بحرية. خرجت الرحلة من هامبورغ ومررنا بأسبانيا حتى وصلنا إلى الشواطئ الإيطالية واقتربنا من تركيا. أخذت الرحلة قرابة أسبوعين»

عندما أتت على ذكر تركيا مررت يديها على ركبتيها لتتأكد ما إذا كان الفستان يغطيهما.

هتف الشاب «واو» ثم سألها: كان ذلك قبل العاصفة بأيام؟

فقالت: نعم، بحوالي عشرة أيام.

وتوقفت عن الكلام، فهي شرطية وقد تعلّمت جيداً متى عليها أن تتوقف.لكنها تعرف، أكثر من ذلك، الحقيقة التي تقول إن الرجل سيعترف بمسؤوليته عن كل الأشياء التي يعرفها وتلك التي لم يسمع عنها وهو يتحدث إلى امرأة ترتدي فستاناً أسود.

قالت وهي تلمس غرتها:

«ليلة العاصفة كانت ليلة رهيبة، لوهلة اعتقدت إن العاصفة ستقتلع هذا المبنى. هرعتُ إلى الحمام وصليت هُناك» وضحكت سيلفيا ثم أخذت تشرب.

وضحك معها بيرغرين وراح يشرب.

أما هو فقال:

«ليلة العاصفة خرجت مع رفاقي إلى ميدان الراين بالقرب من كنيسة القديس نيكولاوس. كنا قد سمعنا على راديو إيسن خبراً يقول إن العاصفة قادمة الليلة، فاستعددنا لها. كنا ننتظرها منذ الصيف الماضي. اشترينا خروفاً من متجر تركي في إيسن القديمة وأحضرنا ست قوارير من نبيذ سكندنافي، اسمه نبيذ الأودرورير»

ثم ضحك قائلاً «الاسم صعب على الألمان وعلى الاسكندنافيين أيضاً»

أكمل حديثه، وهي تستمع بانتباه:

«فقط في قرية صغيرة على بعد خمسين كيلو متراً من مدينة كوبنهاغن يُباع هذا النبيذ.في الكتاب الذي ألفه كارستن نيبور وهو في البحر، قبل

قرنين ونصف من الزمن، قال نيبور إنه نبيذ الحكمة وأن رشفة بسيطة منه كانت تضيء لهم طريق البحر لأسبوع كامل. لكنه اكتشف سرّا آخر للنبيذ،وهو يتوغل في صحراء تهامة، في العربية السعيدة. فقد كان قدح واحد منه يمنح الرجل القدرة على مضاجعة كل شيء حتى الأسماك والنخيل»

انفجرت سيلڤيا ضاحكة فقام الرجل إليها وأخذ يديها وأوقفها ثم راح يقبلها. كانت تحاول التملص قائلة: أكمل القصة أولاً. لكنه بقي يقبل عنقها وكتفيها وهو يئن: في العاصفة القادمة سأخبرك أيتها السمكة.

وسرعان ما استسلمت الفتاة. فصورة رجل يضاجع سمكة أمام الصحراء السعيدة كانت قد قضت على كل مقاومتها.

سيلڤيا ليست عاهرة. النساء مثلها لا يصبحن عاهرات. فهي ليست متدينة ولا هي أخلاقية. لكنها تفهم العالم بطريقة تجعلها تشكك في كل ما يجري فيه. هي لا تريد الكثير منه، لا المال ولا اللذة. القليل من كل شيء يكفيها. وذات مرّة اعترض صديقها على قولها إن القليل من كل شيء يكفيها قائلاً إنها أبداً لم تعش بالقليل، فجمال كثيراً جداً. وهو ما دفع سيلڤيا إلى القول:

«هذا ما أعنيه بالضبط. ما الذي سأفعله بجمال يكفي روسيا كلها»

وراح الروسي يغمغم.

طلبت سيلڤيا من بيرغرين البقاء حتى الفجر، فأومأ بعينيه وهو

يتحسس مؤخرتها العارية. وفي الصباح،وكانا قد ناما في الصالون، فتحت الشرطية عينيها ولم تر بيرغرين.سمعته وهي في المرحلة الأخيرة من النوم يتحرك في المنزل ولم تفكّر بفتح عينيها، وحين فتحتهما كان قد سائس الخيول قد مضى في سبيله.

7

فتحت سيلڤيا عينيها عند الفجر وكانت تُمطر. مطر الخريف، قالت سيلڤيا لنفسها، وشدت الملاءة وغطت كتفيها. سمعت سعلة خفيفة في الشقة المجاورة، ثم تصاعد السعال لبعض الوقت وهدأ. هدأ المطر قليلاً وهبت ريح خفيفة حرّكت شيئاً ما في بلكونة الجارة.مضت أيام، أسبوع كامل، على الليلة التي نامت فيها سيلڤيا إلى جوار سائس الخيول. اليوم هو صباح السبت ولمدة أسبوعين ستكون سيلڤيا في إجازة. لم تخطط لشيء، وقالت لنفسها بالأمس إنها ستزور والدتها في مدينة كولن في الأيام القادمة.

مساء السبت اشترت سيلڤيا رواية «القطار يصل في موعده» لهاينرش بول من مكتبة في وسط المدينة. ولد هاينرش بول في كولن. قلّبت سيلڤيا صفحات الرواية وداهمها إحساس ما، صادق بعض الشيء، بأنها تنظر في عملٍ كتبه جار أمها. لا تعرف سيلڤيا أن بول توفي في العام الذي ولدت

هي فيه، وكانت أمها لا تزال في مدينة غوتنغن. في المدرسة أحبت سيلڤيا القصص القصيرة أكثر من أي أدب آخر. ولا تزال تتذكر قصة اليمامة الثالثة لكنها لم تعد تعرف من كتبها، ولا كيف كانت نهايتها. قالت تلك القصة إن النبي نوح أطلق من على ظهر السفينة يمامته الثالثة لتستطلع له العالم، وعندما وصلتْ اليمامة إلى اليابسة كانت الخضرة قد كست كل شيء فأخذتها الروعة وتاهت ولم تعُد. ما الذي حدث لليمامة بعد ذلك، وهل أغضبت النبي نوح؟ لا تتذكر سيلڤيا أنها قرأت شيئاً عن ذلك، وليست متأكدة ما إذا كان الكاتب قد وضع نهاية لقصته.وفي سن السادسة عشرة كتبت سيلڤيا قصة أسمتها «اليمامة الرابعة» وكانت تدور حول يمامة أرسلها نوح بعد أن وصل إلى اليابسة للبحث عن اليمامة الثالثة. غير أنها عادت بعد مضي أسبوع ولم تجد نوحاً. احتارت سيلڤيا في وضع نهاية لتلك القصة وفي يوم ماطر عادت إليها وكتبت: انتظرت اليمامة شهراً كاملاً في العراء، ولمّا يئست طارت إلى السماء، وبقيت تصعد حتى دخلت في السحاب وسكنت هُناك. ومع السنين تحوّلت اليمامة إلى ملاك يسوق الرعود والصواعق التي تضرب اليابسة.

صباح اليوم التالي، الأحد، ذهبت سيلڤيا إلى كنيسة القديس نيكولاوس للصلاة. لم تزُر كنيسة منذ زمن طويل، وكانت تقول لأمها من وقت لآخر، وهما تتحدثان على الهاتف «الرب موجود، أنا لا أنكر هذا يا أمي، لكنني حالياً لست بحاجة إليه». وأحياناً ترفع صوتها بحدة وترد قائلة «لا يا أمي، ليس الرب هو من يحمي ألمانيا، الرب لا يحمي

سوى كنائسه. لماذا نجت الكنائس من الحرب؟» ثم تنهي المكالمة وهي تضع يدها على جبينها وتغمغم «إلهي» وأحياناً تعاود الاتصال وتعتذر. وفي مرة سمعها صديقها الروسي وهي تقول «حسناً يا أمي، الرب يحمي ألمانيا» فنهض صديقها، وكان لا يزال مستلقياً، وقال وهو يشير بيده إلى النافذة «الرب لا يحمي سوى روسيا فأومأت إليه بإصبعها الوسطى.

وقفت أورسولا بباب الكنيسة،بعد الصلاة، وكانت تبتسم للمصلين. كانوا زهاء عشرين، وكانت سيلڤيا معهم. اتجهت سيلڤيا بعد الصلاة إلى المقبرة على الجهة الجنوبية من الكنيسة، وهي مساحة خضراء تغطي التلة الكبيرة التي تنحدر حتى أسوار تبلغ المستشفى. وفي الأعلى، في أعلى التلة، يوجد دير الراهبات وهو منزل مبني من أحجار القرون الوسطى وتصعد منه منارة خضراء تبدو للناظر من بعيد كأنها شجرة وتحيط به الأشجار من جانبين على الأقل.

لا تعرف سيلڤيا أحداً من الموتى ولم تكن تبحث عن قبرٍ بعينه. راحت تتمشى وحسب. قرأت على شاهدة قبر، وهي تتمشى وبيدها رواية هاينرش بول، إن صاحبه كان أحد مؤسسي شرطة إيسّن،فجلست قريبة منه وفتحت الكتاب. غادر الجندي الألماني أندرياس، بطل الرواية، فرنسا ولم يصل بعد إلى بولندا. لكن هاينرش بول يقول في كل صفحة إن أندرياس سيموت قريباً وذلك ما كان أندرياس متيقناً منه. مرّت الراهبة أورسولا بالقرب من سيلڤيا قبل أن تصل الشابة الشرطية إلى اللحظة التي سيبتهل فيها أندرياس قائلاً «آهٍ يا إلهي، ها أنذا أموت ولم أترك خلفي

من شيء يستحق الذكر»، وحتى قبل أن يتعرف أندرياس على العاهرة البولندية أولينا، التي كانت تضاجع الألمان لتنقل أخبارهم إلى المقاومة.

أغلقت سيلڤيا الكتاب واضعة قشة في المكان الذي وصلت إليه، ثم نهضت وحيّت الراهبة. تبادلت المرأتان كلاماً عن شجر المقبرة. قالت أورسولا إن العاصفة التي حدثت قبل ثلاثة أشهر كادت تقتلع حتى المقابر، وأشارت إلى أشجار مقصوفة وجذوع مدلّاة على حدود المقبرة وفي وسطها. في تلك اللحظات وصل كهلٌ مع زوجته ووضعا الورود إلى جانب أحد القبور ثم قدما ليلقيا التحية على المرأتين، وعلى الراهبة أورسولا بوجه خاص. كان الكهل يضع قبّعة على رأسه ولمّا سألته أورسولا السؤال الاعتيادي «هل أنت بخير» أجاب على الفور: أشكرك أيتها الأخت، أنا بخير. لكن زوجته اقتربت منه ببطء ونزعت القبعة عن رأسه قائلة: انظري، إنه ليس بخير. فقالت الراهبة، وهي تنظر إلى رأسه الصلعاء: ربّاه. فغمغم الرجل وهو يسحب القبعة من يد زوجته ويعيد وضعها على رأسه: سأكون بخير. وعدته أورسولا بالصلاة لأجله، وتمنّت له سيلڤيا الصحة. قالت الراهبة لسيلڤيا إنها لا تعرف الرجل جيداً وإن كانت تراه في الكنيسة من وقت لآخر. وكعادتها في الأشهر الأخيرة تحدثت عن مخاوفها من مآل سيء ينتظر الفرد والعالم. قالت إن الظلام يبدو وشيكاً، ولم تقل ماذا تعني بالظلام. «أوه،إنه الشيطان.لقد نسيت أن أسألك عن اسمك» قالت الراهبة ومدت يدها لمصافحة سيلڤيا. فمدّت سيلڤيا كفها وهي تقول «اسمي سيلڤيا كاوفمان، أعمل شرطية

في مدينة إيسن».أبدت الراهبة انبهارها بعمل الشابة وجمالها، وأكثر من ذلك بتدينها. «كنت أخشى أن تصبح الكنائس مع مضي الوقت قبوراً لكن حضور الناس من أمثالك للصلاة إشارة تقول إنه لا داعي لتلك المخاوف، ومع ذلك فمخاوفي باقية» تداعت أورسولا بالحديث وهي منشرحة الملامح.

لم تلبث أورسولا، وقد آنست للحديث مع الشابة، أن فتحت موضوعاً آخر:

«ليلة العاصفة رأيت من برج الكنيسة أضواء سيارة شرطة في ميدان الراين.كنت أقول لنفسي ماذا يريد هؤلاء المجانين في هذه الساعات، وصليتُ لأجلهم»

قالت سيلفيا بتروٍّ إنها كانت هناك. وإذ قالت لها الراهبة «لا يمكن أن تكوني جادة؟ أحقاً كنت معهم»؟ فإن سيلفيا حدثتها عن أناس مشتبهين أو ربما نصف مجانين قالوا إنهم يريدون أن يشووا اللحم في العاصفة لأن من شأن ذلك أن يكشف لهم طريق البحر إلى الأراضي السعيدة في الجنوب.

قالت:

«عثرنا على حفرة كبيرة غريبة الشكل كانوا قد وضعوا فيها مقداراً كبيراً من الفحم. وبالقرب منها عثرنا على قوارير فارغة مكتوب عليها اسم يصعب تذكره» أكملتْ سيلفيا.

«نبيذ الأودرورير» قالت الراهبة وهي تثبت عينيها في وجه الشرطية.

تمهّلت سيلڤيا قليلاً ثم قالت وهي تفتح فمها ببطء شديد «كيف عرفت ذلك؟»

قالت الراهبة وهي تشير بيدها إلى الدير المجاور للكنيسة:

«تلك قصة طويلة بعض الشيء».

مضت المرأتان إلى الدير. في الطريق قالت الراهبة «كم أنا بلهاء! لماذا أحكي هذه القصّة لشرطية» وضحكتا.

في قبو أسفل الدير رأت سيلڤيا عشرات القوارير من ذلك النبيذ في برميل غطي قاعه بالملح والرمل الناعم المبلل. كان في الدير، بالإضافة إلى أورسولا، ثلاث راهبات أخريات إحداهنّ ترقد الآن مريضة في مستشفى الجامعة وهي بحاجة لعملية بتر لجزء من قدمها اليسرى بعد أن نهشه السّكّر، مما سيعني أن الدير سيكون بحاجة لراهبة جديدة في قابل الأيام. التقطت سيلڤيا قارورة بين يديها وقرأت المكتوب عليها. بينما تجولت الراهبة، بزيها الأسود المهيب وصليب معلق على صدرها، في القبو وعادت. أخذتها الراهبة إلى الأعلى وجلستا على كرسي في بهو الدير المحاط بالأشجار العجوزة وشربتا الشاي. كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة صباحاً. وبلا مقدمات، وهي تدرك الفضول القاتل الذي يأكل أطراف الشرطية، تحدثت الراهبة.

يجدرُ بنا أن نشير إلى أمر غاية في الأهمية فيما يخص شخصية الراهبة

أورسولا. ففي الأعوام الثلاثة الماضية، على الأقل،لاحظتأنها ترغب كل الوقت في الحديث. المرأة التي تعمل في مخبز «الكنائس الباردة» على ناصية الشارع القريب أصبحت تعرف كل شيء عن الدير والكنيسة. ربما لم تلاحظ أورسولا نفسها أن رغبتها في الحديث صارت أسوأ مما كانت عليه قبل ثلاثة أعوام. يمكننا القول إن أورسولا تحاول من خلال الثرثرة التغلب على النسيان الذي بات يهددها في تلك السن. أو أنها، ببساطة، خائفة من كل شيء. ربما تعاني مما هو أسوأ من الخوف: الهلع. ذلك ما يجعلها حاليّاً سعيدة بعض الشيء لأنها،كما تعتقد، استعادت كريمر في الوقت المناسب.

إليكم ما قالته الراهبة أورسولا:

«تركتُ كريمر قبل ربع قرن والتحقت بالكنيسة. كان مهذباً، لكنه سريع الغضب. كنتُ في الخامسة والأربعين من عمري آنذاك، وكان في الثلاثينات من عمره. كان جميلاً كما هو الآن. لم يكن قد مضى على قدومه من الشرق سوى وقت قصير.يومَ أبلغته بقراري نهرني وكالَ لي الكثير من الشتائم الجسيمة كعادة الانفعاليين القادمين من هُناك. انظري إلى شرق أوروبا الآن وإلى مناطق أخرى من العالم كانت الشيوعية تحكمها يوماً من الأيام.خلفت الشيوعية وراءها مجتمعاتغيرمستقرة وحطمّت أشياء جوهرية داخل الكائن يصعب استعادتها.ليس من خلال الإلحاد ومحاربة الكنيسة، هذا هراء وأنا لا أقول هذا. أعني إنها أشاعت الخوف والقمع لزمن طويل حتى سحقت شخصية الفرد وشوهته من داخله. أحمد الله

على أنني استعدت كريمر، أخذ مني ذلك وقتاً كثيراً. على أيّة حال فقد غاب كريمر لبعض الوقت ثم عاد للاتصال بي. رأيته لأول مرة بعد عامين من انفصالنا. احتضنته كأم ومنحته بعض النقود التي لم يطلبها، فجعل يتلعثم ويقول أشكرك أيتها الأخت»

توقفت الراهبة عن الحديث وراحت تنقر الأرض بكعب قدمها، وبقيت سيلڤيا صامتة.

«مرت الأيام، وراح يسافر ويختفي ثم يعود. وفي مرة قال إنه صار أباً لطفل في الجنوب. وقبل مدّة زراني وجلسنا هُنا في هذا المكان، وأعطيته بعض النقود ثم أخبرني أنه صار بحارا» نظرت الراهبة في عيني سيلڤيا المتسائلة. ها هي سيلڤيا تسمع عن بحّار ثالث خلال وقت قصير.

واصلت أورسولا حديثها:

«وفي نهار غائم وكان الشتاء يضربُ كل شيء، جاءني يحمل حقيبة على ظهره. تحدثنا أمام باب الدير، وطلب مني الدخول فسمحتُ له. ذهب إلى القبو، فهو يعرفه على أية حال، ووضع هناك صندوقاً ممتلئاً بذلك النبيذ. وعندما اعترضتُ أمسك بيدي متوسلاً. في ذلك النهار راح يقص عليّ شأنه الجديد. قال إنه أصبح عضواً في مجموعة من ستة بحّارين وإنه باستثناء بحر الشمال لا يعرف بحراً آخر. قال إنهم سيذهبون في رحلة عبر البحر وسينزلون بالقرب من الصحراء وقد لا يعودون.سألته لماذا ستفعلون ذلك فقال بحثاً عن الظلام الدامس وعن شرح لأسفار العهد القديم»

«الظلام الدامس؟» سألت سيلڤيا مستغربة.

«نعم، الظلام الدامس المذكور في العهد القديم. أرسل الربّ ظلامه الدامس على المصريين أكثر من مرة، كما بعثه إلى شعوب أخرى. كان يغطيهم لشهور.وكلما طلب منه اليهود أن يفعل ذلك فَعَله. الظلام الدامس هو أقل العقوبات التي امتلكها الرب في تلك الأيام. ولو سلط على المصريين أشياء أخرى كما فعل مع أمم غيرهم لقضى عليهم. في الظلام الدامس كانت الضفادع تخرج وتحتل البيوت. في الظلام تصير الضفادع وحوشاً»

«غريب» همست سيلڤيا.

ومضت الراهبة تحكي:

«لا يزال الظلام الدامس موجوداً في مكان ما في الجنوب. هذا ما أنا واثقة منه»

وجدت سيلڤيا نفسها عاجزة عن المساهمة بفكرة واحدة فهي لا تفهم من هذه اللغة شيئاً.وكان ذلك وضعاً مثالياً بالنسبة للراهبة أورسولا. مضتْ تقول:

«في الظلام الدامس ضاعت بعض نصوص العهد القديم، وربما بعض شروحاته. من سيعثر على الظلام الدامس سيفهم أكثر العهدينالقديم والجديد معاً»

أخذت الراهبة فترة من الصمت، وسألت ضيفتها ما إذا كانت تريد

المزيد من الشاي، فاعتذرت الضيفة وطلبت من الراهبة مواصلة حديثها «لم يكن الأمر يرهقك»

«ليلة العاصفة جاءني كريمر لاهثاً، قال إن الشرطة أخذت أحد زملائه وأنها ربما تعود للبحث عنه. كنت في الكنيسة ساعتئذ أصلي وأقرع الأجراس.فتحت له باب الدير، في طريقي إلى الدير كادت الرياح تتقضي علي. تركته ينام في غرفة الراهبة أغنيس، وعدت إلى الكنيسة. كنت وحيدة في الدير. صباح ذلك اليوم ذهبت الأختان أغنيس وإلزا إلى الكاتدرائية في كولن وأديتا بعض الأناشيد مع الكورال، لكن الرياح التي بدأت تشتد منذ عصر ذلك اليوم حبستهما حتى اليوم التالي».

جعلت سيلڤيا تهز رأسها، كما لو كانت تحرّك مياهاً راكدة. «اعذريني أيتها الأخت، لا تزال القصة كلها غامضة». ابتسمت أورسولا وقالت:

«حتى بالنسبة لي لا تزال غامضة. ماذا يهمك من هذه القصة وأنت شرطية عقلاني؟»تساءلت الراهبة ثم أجابت نفسها قائلة: «الفضول. أعرف.»ثم أخذت المرأتان تتنفسان هواء الكنيسة الرطب وسمعتا نشيداً واهناً قادماً من بعيد.

«تعرفين» قالت أورسولا. ثم أكملت: يعتقد كريمر إن نبيذ أودرورير يملك طاقة سحرية قادرة على إضاءة البحار والأراضي المظلمة. سافر أكثر من مرة إلى الدنمرك وفي كل مرة كان يجلب معه قدراً من ذلك النبيذ. سيأخذونه معهم في رحلتهم التي ستنطلق بعد العاصفة الثالثة. فقد مرت عاصِفتان حتى الآن، هذه الأخيرة وتلك التي وقعت قبل عام

ونصف. ستأتي العاصفة الثالثة ومعها ظلام كثيف. في كل عاصفة عليهم أن يشووا اللحم على طريقة المُعلّم نيبور: يلقون بمقادير من الفحم في الحفرة، ثم يشعلونها، ويلقون عليها بالأضحية. لا بد أن تُرش الأضحية بنبيذ الأودرورير قبل ذلك وإلا فإن الطريق لن يكون آمناً. هكذه يريدها القديس إيمانويل: أضحية شرقية مطلية بنبيذ الحكمة في يوم عاصف. عليهم أن يتأكدوا، وهذا أمر لا مناص منه، أنها أضحية من خراف الجنوب، من تركيا أو شمال أفريقيا. أما إذا كانت من خراف العرب فتلك علامة جيدة»

«ولكن، وسامحي سؤالي أيتها الأخت، ما علاقتك أنت بكل هذا وأنت راهبة؟ ومنذ متى تعرفين كل هذا؟»

«أما منذ متى فبعد وقوع العاصفة عرفت الشيء الكثير. في العاصفة القادمة سيبرقُ نور خفيف من الجهة الشمالية الغربية، نور القديس إيمانويل. لن يراه الناس لأنهم سيكونون قد اختبأوا منها. نزل ذلك النور للمرة الأخيرة قبل ألف عام وشاهدته الراهبة هيلداغارد وهي تتأمل أراضي المابنز الخضراء من نافذة الدير. ولمّا أخبرتهم هيلداغارد بما رأته اتهموها بالهرطقة وكادوا يصلبونها. هذا ما قالته هي في كتابها. إذا رأيتُ النور في العاصفة الثالثة، وأظنها وشيكة، سأخبر كريمر الآخرين وسيكون بمقدورهم الإبحار فالطريق آمن. إذا عثرنا على الظلام الدامس فسنفهم ما بقي في العالم من غموض كما سندرك ما الذي يريده الإله منّا

الآن في هذه الظروف العصيبة. نحن نقف عاجزين، لم نعد نعرف ما الذي علينا فعله ولا أي الطرق يريدنا الرب أن نسلكها»

«وماذا كيف سيحدث ذلك؟» سألت سيلڤيا وهي مأخوذة بالحديث.

«لا أدري أدري، ولكن الفلسفة هي أول ما سيندحر إذا ما أدركنا الظلام الدامس. أما العدل فربما لن يحلّ أبداً. دعينا نتفاجأ»

نظرت سيلڤيا في ساعتها، فقالت أورسولا وهي تنهض: أنا أيضاً تأخرت. ورافقت ضيفتها حتى باب الدير راجية منها أن تزورها وقتما تشاء.

فقالت الشابة: الأحد القادم؟

وردت الراهبة:وهو كذلك.

وقفت سيلڤيا في محطة الترام القريبة من الكنيسة وفتحت الكتاب. كانت أولينا، العاهرة البولندية، تقول للجندي الألماني أندرياس إن الألمان ثرثارون، وأنهم يصبحون أكثر هذياناً عندما يختلون بالنساء البولنديات، ثم تطير رؤوسهم بعد ذلك. وهي مسترخية في الترام والكتاب مغلق في حجرها فتحت سيلڤيا موبايلها وتصفحت موقع كول بوي، وطلبت الرجل الذي كان اسمه: كريستيان كريمر. وقرأت تحت الاسم: طبيب. كانت الكلمة مكتوبة بخط صغير مائل، وكان الرجل يملك لحية صغيرة غزاها القليل من البياض. البياض والرماد معاً. وفي عيني سيلڤيا بدت ملامحه شديدة الشبه بملامح الراهبة أورسولا. هزّت رأسها وغمغت: يا إلهي، يبدو أني سأجنُّ قريباً.

الطبيب كريستيان كريمر

كان كريستيان كريمر حذراً في الحديث، وترك الشابة تدور، تبحثُ عن مدخل. سرعان ما وضع حداً لمحاولات سيلڤيا الحديث عن الطقس والعواصف قائلاً: تعودنا على ذلك، مرّة ومرّة.

تحت الستين من عمره، يبدو، لكنه يتمتع بجسد متماسك وقامة طويلة. لم يكُن قد مضى على وصوله سوى عشر دقائق عندما قالت له سيلڤيا إنها تعرف مدينة إيسن جيداً، لكنها لا تزال تحس بالغربة. فقال الرجل، وهو يحاول التأكد مما إذا كان قد جلس على نحو صحيح «إذا لم تلعبي حافية القدمية في مدينة فهي ليست مدينتك» وافقته سيلڤيا وسألته: هل كل شيء معك على ما يرام؟ فهز الرجل رأسه.

ولكن كيف ستجد سيلڤيا، في هذه الساعة من المساء، مدخلاً للحديث الذي تسعى إليه. كانت ترتدي جينزاً أزرق وبلوزة بيضاء خفيفة مبقعة بالأسود، ولم يثر ذلك استغرابه. «أحب شهر أكتوبر» قالت سيلڤيا وهي

تنظر عبر باب البلكونة إلى الخارج، آملة أن تصيب هذه الرمية. لقد أثارت الراهبة فضولها حتى أبعد الحدود. هي محاطة بقصة كبيرة، وبالكاد تعرف عنها شيئاً. ساورها اعتقاد بأنها ستخرج الليلة بقدر كبير من المعلومات، فهذا الزائر المتحفز يبدو رغم كل شيء هشاً وقابلاً للفتح. أضافت «فيه يخيم الظلام الدامس على المدينة من الخامسة مساء حتى الثامنة صباحاً. أحب الليالي الطويلة ولا أجد شيئاً أكثر روعة من اللحظة التي أفتح فيها عيني وقتما أشاء على ظلام دامس».

قال الرجل بحذر، وقد أربكته مناورة المرأة:

«لا يوجد ظلام دامس في شمال الأرض»

استراحت سيلڤيا لهذه البداية.

تأملها الرجل بعناية فهي تصغره بأكثر من عشرين عاماً، وتبدو لعينيه هشة ورطبة وبلا خبرة. كان بمقدوره، وهو الكلب المدرّب، أن يشم الرائحة التي تحيط بخصرها في تلك اللحظات. لكنه يعرف أيضاً من خبرته أنها رائحة زائلة. فهو رجل اختلط، بسبب عمله، بروائح مئات النساء وبهالاتهن.لم تتذكره سوى أول امرأة ضاجعها بعد طول انقطاع. فقد شربت الفتاة ـ وكانت تعمل بائعة في مخبز ـ هالته كلها، ونقلت إليه شيئاً من هالتها. كان يملك هالته الخاصة آنذاك، وهي كذلك. ثم صارت هالته خليطاً، وبالتالي فلم يترك بعد ذلك أثراً ولن يكون بمقدوره أن يوقع أي امرأة في الحب. إنه رجل مشوش ينقل إشارات مشوشة إلى المرأة التي يضاجعها أو حتى تلك التي يجلس إلى جوارها. ينقل روائح وهالات

نساء كثيرات إلى نساء أخريات. وما إن ينتهي من المضاجعة حتى تشعر المرأة بانقباض في صدرها وتنكمش في مكانها كما لو أن غباراً غشيها للتو.

نصحه بيرغرين، سائس الخيول:

«اغسل الروائح والهالات بالماء الدافئ والصابون وعرض نفسك للشمس. إذا ضاجعت امرأة فإنها تدخل فيك لكنك تضاجع الكثيرات وتلك مشكلة، اغتسل بين المرأة والأخرى، إذا استطعت أن تلقي بروائحهن في النهر فسيكون ذلك جيداً لروحك»

حاول كريمر مراراً أن يترك أثراً لدى امرأة وأن يقتفي أثر ما قاله برغرين، غير أن المسألة كانت أكثر تعقيداً من أن تُغسل بالماء. تمنى أن تقول له امرأة ما: دعك من هذه اللعبة وتعالَ معي. أو: زُرني وقتما تحب. أو اترك لي هاتفك، أو لنذهب للصلاة معاً يوم الأحد. أن تتشبت به واحدة من زبوناته قائلاً «لقد سئمت كل هذا» وسيسجد لها في الحال مبتهلاً: وأنا كذلك، لقد سئمت كل هذا. هذه اللحظة، كما يتمناها، ستعني أن يصير أحدهما قدر الآخر. تمنى أن يرى جسداً واحداً مرّتين في الهيئة نفسها. كل تلك الأمنيات ذهبت أدراج الرياح. وفي مرة شرب قرصي فياغرا محاولاً فرض نفسه على ذاكرة المرأة التي كان في طريقه إليها. ستتذكرني كما تتذكر دوسلدورف جيش نابليون، قال لنفسه وهو يستحضر ما يعرفه عن الطريقة التي دخل بها نابليون تلك المدينة. بعد وقت قصير، أقصر من كل مرة، طلبت منه المرأة أن ينزل عنها. ثم نهضت وشربت كأساً من الماء

وذهبت إلى الحمام. وعندما عادت إليه قالت إنها تحس بصداع وتريد أن تنام، فجمع أشياءه ورحل.

كانت سيلڤيا تجلس قبالته. وفي لحظة بدت له شهية للغاية. لكن فكرة أنها هي التي طلبته وأن بمقدورها أن تصرفه وقتما تشاء جعلت أذنيه تذبلان. لو امتلك فتاة مثلها، كان يوسوس لنفسه، سوف يعدل عن فكرته في ركوب البحر. ولمّا قامت سيلڤيا من مكانها وذهبت إلى المطبخ، لتحضر لنفسها قطعة ثلج، نظر إلى مؤخرتها ورأى اليابسة من بعيد.

صبّت سيلڤيا للزائر، ذي اللحية الخفيفة والشعرات البيضاء المنتشرة هنا وهناك، قليلاً من خمرة دونهوف،ثم ألقت بقطعة ثلج صغيرة في الكوب. «خمرة الوديان هذه ليست نوعي المفضل» قال الرجل بقليل من الدبلوماسية. اعتدلت سيلڤيا في جلستها وهي تضع كوبها بين كفيها وتنظر إليه.

«جربها، إنها من عِنب الجنوب وهي أفضل ترياق لقرصة الشتاء» وضحكت.

تناول الضيف رشفة خفيفة، وقال مبتسماً: لو ذهبت قرصة الشتاء لذهب الشتاء.حرك شفتيه ولسانه في فمه كأنما يبحث عن شيء، ثم أردف:

لذيذة، لكن طعمها معدني حاد.

هذه خمرة جارحة،قالت سيلڤيا. أضافت: لدي بيرة جيدة، بيرة باڤارية

فهز رأسه مستغنياً عن العرض.

قالت الفتاة ـ وهي تحاول استكشاف ما لديه من أسرار ـ إن أفضل مكان لشرب هذه الخمرة هو ظهور السفن في رحلاتها إلى الجنوب. ثم سألته: هل شربت خمراً على ظهر سفينة من قبل؟

قال الرجل نعم، واعترف أنه لم ير في حياته سوى بحر الشمال في طريقه إلى كوبنهاغن.

توغلت الفتاة في الحديث ولكن بحذر. قالت إن خمور القرن الثامن عشر دفعت الألمان إلى ركوب البحر في القرن التاسع عشر حتى بلغوا أبعد القارات.أما خمور القرن التاسع عشر فجعلتهم يشعلون حروب القرن العشرين. من الجيد ـ قالت وهي تفتعل ضحكة ـ أن الألمان اتجهوا إلى شرب البيرة في القرن العشرين وإلا لحدث في هذا القرن ما لا تحمد عقباه. بقي الرجل صامتاً، يشرب رشفة ويتأمل الزبونة التي نسيت موضوعها. أما هي فقالت إنها تبحث عن أي شيء من خمور تلك الأزمنة، لتجرب الإحساس بامتلاك بحار العالم القديم والانتصار في معاركه. عند هذه اللحظة سرقت اهتمامه ونسي هو ما جاء لأجله. كانت تتحدث بشغف أو هكذا بدا عليها. ها هي امرأة تمدّ له طوقاً، الشغف معدٍ، وقد نقلته له.

«أحقّاً تريدين أن تجربي شيئاً من الخمور القديمة؟»

سألها الرجل وعيناه تبرقان.

فقالت بهدوء وثقة: بالطبع.

عرض عليها في الحال خمر الفلاسفة والشعراء، قال إنه جلبه من ريف كوبنهاغن. فهتفت الفتاة: رائع للغاية. وسألته: متى سأحصل عليه؟ فقال: وقتما تشائين. قالت الفتاة: الليلة؟ فنظر الرجل إلى ساعته، وغمغم:الليلة؟ ألن تعملي في الغد؟

قالت إنها في إجازة.

فهتف الرجل: إذن الليلة.

وكانت تشير إلى العاشرة والنصف.

وبلؤم سألته: وأنت، ألا ينتظرك عملٌ الليلة؟

فابتسم لها الرجل غامزاً: أنا أعمل الآن.

ووعدها بالعودة في الحال.

بعد العاصفة، في يونيو الماضي، عاتب كريمر الراهبة أورسولا، وقال إنه طرق باب الكنيسة ليلتئذٍ مئات المرات ثم راح يطرق باب الدير، وكادت الرياح تفتك به قبل أن تفتح له أورسولا.اعتذرت منه الراهبة وأخذته إلى الدير وفتحت له غرفة الراهبة آغنس، وأعطته مفتاحاً للدير. تمكن كريمر من إحضار قارورة من خمرة أودرورير وعاد إلى سيلڤيا. يبعد مسكن سيلڤيا، القريب من الطريق السريع إيه ٤٠، حوالي أربعة كيلومترات عن كنيسة نيكولاوس.كان كريمر حذراً وهو يتسلل إلى القبو من خلال الباب المؤدي إلى المقبرة. الراهبة لا تعلم عن شغله هذا شيئاً.

بعد عدد من الرشفات البطيئة والانتظار الصامت بين رشفة وأخرى

أغمضت سيلڤيا عينيها ورأت عشرات الوصيفات يفتحن لها بوابة قصر على مقربة من البحر. أغمضت عينيها مرة أخرى وقالت بانسياب مطلق لا ندري ما إذا كان كله عائداً إلى التأثير السريع لشراب الفلاسفة أما هو احتيال من قبِل الشرطية

«إلهي، أرى نوراً يغمر البحيرات»

فقال الرجل وهو يتأملها:

«الخمرة وجمالك يبددان كل الظلمات»

«خذني في رحلتك الجنوبية» قالت الفتاة

فقال الرجل «أنت رحلتي الجنوبية»

«عدني بالضياع في ظلام الجنوب الدامس» قالت

«أعِدك بالموت في المكان الذي يضع فيه الرب عشه» قال

«عدني بشيء من الكتاب المقدس» توسلت

«أعدك برؤية عش الرب في سيناء» قال ساهماً وشارداً.

وقام إليها الرجل وجعلها تصهل مثل فرسان الأتراك.

وكانت تصهل وما من مجيب.

ذهب الرجل يغمغم، وهو يعشو في تخوم الفتاة:

«الآن أفهم كيف كانت الأسرار تنزل على يعقوب»

سألته الفتاة، وهي تلوذ به، ما إذا كان يرى الآن بحار الجنوب

فقال: آه

«والصحراء؟» أنّت الفتاة متسائلة.

وبدا أن الرجل لم يعد يسمع شيئاً.

«لما خرج الكهنة من القدس وجدوا أن الظلام الدامس قد ملأ بيت الرب. ولم يستطع الكهنة أن يقفوا للخدمة بسبب الظلام لأن مجد الرب قد ملأ بيت الرب. حينئذ تكلم سليمان وقال: يقول لكم الرب إن بيته في ذلك الظلام الدامس»

سفر الملوك الأول، الإصحاح الثامن.

فون هافن، العارف باللغة

في الأحد الذي جاء ذهبت سيلڤيا إلى الكنيسة وصلّت. وقفت في الصفوف الخلفية إلى جوار امرأة كانت تهمس لطفلة على كتفيها: هل رأيت المجمرة في يده؟ التحقت سيلڤيا بصلاة الحادية عشرة، ثم غادرت إلى المقبرة على أمل أن تجد الراهبة أورسولا. الراهبات لم يدخلن المقبرة في ذلك اليوم. يوم الأحد الماضي قالت لها الراهبة أورسولا، وهي تتحدث عن أفعال الرياح:غمرنا الكنيسة بالبخور في تلك الليلة. وقبل أن تجتازا باب المقبرة توقفت أورسولا وهمست لسيلڤيا وعيناها تبرقان:

«لمّا نزل الوباء جمع هارون الكهنة وأشعل البخور حتى رضي الرب»

ستقضي سيلڤيا الأسبوع القادم، أيضاً، في إجازة. بالأمس، السبت، كانت تتجول في الدور الثاني في مكتبة مايرشه باحثةً عن كتاب. راحت إلى قسم الكلاسيكيات وعثرت على عنوان لفت انتباهها «إدوارد والله» رواية قصيرة كتبها ميلان كونديرا في شبابه. لنعترف إن سيلڤيا دخلت في

حالة إيمانية خفيفة منذ جلست إلى الراهبة وربما قبل ذلك بقليل. إذا تتبعنا خيوط الإيمان لدى سيلڤيا فسنصل إلى نقطة ما غير أن ذلك سيصرفنا عن القصة الأساسية. تجولت سيلڤيا في المقبرة وجلست إلى أكثر من قبر وقرأت العبارات المكتوبة عليه. اقتربت من جدران المستشفى فأحست بأنها عالقة بين الظلام والنور وأنها صارت أخف وزناً. وهي هناك تتأمل المستشفى من الأسفل، مأخوذة بالجلال إذ تقف بين محلين مهيبين، سقط شيء أبيض مكور بالقرب منها. ذهبت لالتقاطه وسرعان ما ألقته جانباً وهي تغمغم: اللعنة.

عندما قرعت أجراس الكنيسة تمام الواحدة ظهراً كانت سيلڤيا لا تزال تقرأ عند قبر. رفعت رأسها مع الجرس فرأت للمرة الثانية شيئاً أبيض يطير في الهواء من نافذة أخرى. مأخوذة بالأجواء الروائية تخيّلت نفسها وهي تطرق باب واحدة من تلك الغرف التي تطير منها الأشياء البيضاء فيفتح الباب رجل معقوف الأنف بصلعة خفيفة. تقول برباطة جأش: أنا شرطية ولدي بعض الأسئلة هل يمكنني الدخول؟ فيرد الرجل ذو الأنف المعقوفة بألمانية مثقلة بالروسية: انتظري في الخارج. ثم يغلق الباب في وجهها تاركاً رائحة عرقه. غمغمت «سخف» ثم عادت إلى الكتاب لتعرف ما الذي سيفعله إدوارد، المعلم الشاب. قرع جرس الكنيسة مرة أخرى عندما طلب إدوارد من جارته، وهي مسيحية متدينة، أن تمشي عارية في البيت. ثم قرع الجرس مرّة أخرى بعد ساعة كاملة عندما كان

إدوارد يطلب من مديرة المدرسة، وكانت ملحدة متطرفة، أن تجثو على ركبتيها عارية وتبتهل للمسيح.

قامت من مكانها وغادرت. مرّت بالقرب من باب الكنيسة فامتلأت رئتاها بالبخور، أو هكذا أحسّت. في المنزل تصفحت موقع كول بوي، تأملت صورتي رجلين لبرهة. لقد واعدت أربعة حتى الآن: غنى لها رجل، طردت آخر، وضاجعت اثنين. غادرت الصفحة، ثم عادت إليها مرات عديدة. اتخذت القرار، وطلبت فريدريش فون هافن، الرجل الذي كتب تحت اسمه: فيلسوف وعالم لغة. وضعت الآي باد فوق رواية كونديرا، وقبل أن تصرف نظرها إلى شيء آخر سألت نفسها وعينها على الرواية:هل للرغبة كل تلك الهيمنة حتى إنها جعلت المؤمنة تركض عارية في الدار والملحدة تبتهل للمسيح؟ وفي قرارة نفسها قالت إنها لا تريد أن تعرف الجواب.

لم ينقض الأحد بعد. إنه منتصف أكتوبر، والليل يأتي سريعاً. قبل التاسعة مساءً نقر عالم اللغة الباب، طرق الباب كما يفعل الشرطة وفتحت سيلڤيا على طريقة الفلاسفة.كان يمتلك نفس قامتها، تقريباً، ويبدو في الأربعين من عمره، يزيد أو يقل. ابتسمت في الحال، فقد كانت ملامح الرجل تشع مرحاً وبهجة ولا يمكن لشخص أن يخطئ الذكاء في عينيه. حيّاها باللغة العربية قائلاً: مرحباً، فصافحته وهي تتنحى جانباً وحيته بالألمانية،متسائلة بعينيها، فقال الرجل بالألمانية: إنها أهلاً بالعربية.

«جيد أن أعرف» قالت الفتاة وهي تلقي بنظرة سريعة على نعاله.

كان كل شيء في الصالون على حاله منذ أيام، لا جديد فيه سوى العطر الذي رشته سيلڤيا قبل قليل على عنقها وبين نهديها. يعرف المتشردون أي مهابة تمتلكها تلك الرائحة التي تصدر عن شرطية اختلط عرقها بعطرها. خلع فون هاڤن معطفه وعلقه بالقرب من الباب، قائلاً لمضيفته بالألمانية: طقس مثل الخراء. ثم أردف: آسف. قالت الفتاة: لا عليك. وأشارت إلى الأريكة فجلس.

ما إن أسند ظهره إلى الأريكة حتى قال وهو يشير إلى الكتاب المتروك على الطاولة:

«إدوارد والله، أوه، يا لها من قصة بائسة»

سألته: هل قرأتها؟

قال، محاولاً إبهارها بمعرفته قبل أي شيء آخر:

«قرأت كل شيء كتبه ميلان كونديرا. في كل مرة يحاول الانتقام من جانب ما من طفولته. يبدو أنه، لظروف ما، التحق بالكنيسة طفلاً ثم شعر بالندم عندما صار بالغاً وشيوعيا»

«ولكنه وضع خاتمة مذلة لمديرة المدرسة الشيوعية» قالت سيلڤيا.

«أعرف ذلك. أراد أن يذل الإله نفسه، لا المرأة ولا الشيوعية. انظري ماذا فعل بالمتدينة أيضاً. لقد جعلها تركض طيلة النهار عارية والصليب على صدرها»

«لا أظنه ذكر شيئاً عن الصليب»

«وإن لم يذكر ذلك.بمقدور المرء أن يسمع حركة الصليب بين نهدي الفتاة متى ما أراد»

«ممم، أنا لم أسمع شيئاً» قالت وهي تضحك

«أنا سمعت الكثير» قال وهو يرفع يديه ويضحك أيضاً. ثم ما لبث أن قال:

«لماذا يشعر بعض الكتاب أن تجربتهم مع الكنيسة أمر مخجل؟»

راح يتداعى:

«كان أبي راهباً،وتعلمتُ في كنيسة»

«هنا في إيسن؟» سألته سيلڤيا

«في إيسّن؟» رد الشاب متعجباً. وأكمل:

«درست في كنيسة آوَر ليدي في جزيرة فاين في جنوب الدنمرك. كان جدّي ألمانياً وأبي دنمركياً. أما أنا فسأموت يمنيّاً وسأدفن في مقابر الفرنسيين»

«ماذا تقصد بالضبط؟»

«تلك قصة لا أظن أن شابة جميلة مثلك تفكّر الليلة بالاستماع إليها»

وسألها:

«هل لديك شربة ماء؟»

فارتبكت الفتاة، ذلك أنها نسيت أن تسأله كالعادة ما إذا كان يريد أن يشرب شيئاً. وهي تناوله الماء سألته:

لماذا تقول شربة ماء ولا تقول ماء، ببساطة؟

فكّرت سيلڤيا بهذا السؤال وهي في المطبخ، وخشيت أن تنزلق وتقول «لماذا تقولون». لا تزال تصدق، وأظن أن لديها الحق في ذلك، أن زوارها لا يتحدث أحدهم إلى الآخر عن زبائنهم. ما إن استدارت كلمة زبونة في رأسها حتى أحست بمزيج من النشوة والعار.

قال الرجل:

«أنا بحّار ولدت في جزيرة وأموت بالقرب من البحر. الرجال الذي رأيتهم يموتون في البحار والصحارى كانوا يتوسلون شربة ماء»

«وكيف عرفت أنك ستموت بالقرب من البحر؟» سألته سيلڤيا.

«هل تؤمنين بالتقمّص؟»

«داخل أي مضمون تقصد؟» ردت على سؤاله.

«بشكل عام، أن تعود أرواح الأسلاف لتسكن أجسادنا ثم تتحكم في مصائرنا. أنت، مثلاً، ستموتين على طريقة امرأة قضت نحبها قبل مئات السنين»

«لماذا سأموت مثلها وأنا لم أعش مثلها؟»

«أرواح الأسلاف تتحكم فقط بالطريقة التي سننهي بها حياتنا. وفيما سوى ذلك فإنها تترك لنا الخيار» قال الرجل وهو يتأمل شفتي مضيفته.

وساد صمت خفيف. كانت سيلڤيا تعبث بساعتها الجلدية وتديرها حول معصمها والرجل ينقل بصره من ركبتيها إلى كتفيها ويسأل نفسه أي نوع من النساء هي حينتكون على سفينة.

وهي في المطبخ رأت قارورة النبيذ التي أحضرها كريمر قبل أيام. لا يزال بها بعض الشيء في القاع. ما الذي يعرفه هؤلاء الضيوف عن سيلڤيا؟ اسمها على الباب الخارجي، صالونها مليء بالأشياء، حمامها، مطبخها وغرفة نومها. وهم، كما يقولون عن أنفسهم، بحارة ومتشرّدون. يحتاج البحّار، كما المتشرد، للقدر البسيط من الإشارات ليصنع قصته الكاملة، ويضع استنتاجاته.لكن مهلاً، بعد الزيارة الأولى، زيارة كارستن نيبور، نزعت سيلڤيا اسمها من على لوحة الأسماء ووضعت مكانها رقماً. خطرت الفكرة على بالها صباح اليوم التالي، أو الذي يليه، وهي راجعة من عملها. ما الذي ستفعله حيال ضيفها الجديد. لقد دفعت مجدّداً خمسين يورو، وهي لا تريد الجنس بل القصة. ما خبَرته نهار هذا اليوم وهي على المقبرة أصابها بالقرف من الجنس، وسيستمر معها أياماً، ربما. مؤخراً دعت صديق الراهبة إلى سريرها ثم ذهبت إلى الصلاة وطلبت من الراهبة أن تقص عليها أشياء، وليس ذلك بالسلوك الجيد بالنسبة لشرطية تحترم القواعد. عثرت على مجموعة أصدقاء ودعتهم إلى سريرها واحداً تلو الآخر، ويا له من صنيع بالنسبة لشرطية.ولكن لماذا فعلت كل ذلك؟ تتذكر: ضاجعت اثنين وتحدثت إلى ثلاثة. بقي شخص لم تطلبه بعد. هي لا تعلم على أية حال ما الذي ستفعله في المرة القادمة، ولا ما الذي ستقوله لضيفها الحالي.

«أين تعلمت العربية؟» سألته

«تعلمتها في غوتنغن، في الجامعة» أجاب.

«ولماذا تعلمت مثل هذه اللغة الميتة؟» سألته وهي تحرك كتفيها ثم استدركت:

«اعذرني على السؤال»

«إذا كانت ميتة الآن فهي لم تكن كذلك عندما تعلمتها لأول مرة قبل قرنين ونصف من الزمان»رد الرجل، وثبت عينيه على شفتيها ثم نقلهما إلى حاجبيها.

تدفقت أسئلة صغيرة و أخرى كبيرة في رأس الفتاة. أرادت أن تقول مازحة: وماذا عملتَ بهذه اللغة طيلة قرنين ونصف، لكنها رأت الأمر غير لائق وخارجاً عن السياق. فقد عرفت الشيء الكثير عن هؤلاء الناس في الأيام الماضية ولاحظت اندماجهم مع القصة التي عثروا عليها في كتاب. إنهم، بدرجات متفاوتة، يعتقدون أن أرواح ذلك الفريق قد حلّت بهم، حتى إن بعضهم يعتقد أنه قد عاش بالفعل في ذلك الزمان وكان على ظهر السفينة. قال لها الرجل الذي يجلس قبالتها إن جسده مسكون بروح رجل من الأسلاف وهو مؤمن بالتقمص. وهي تعلم، منذ البداية، أنها تتوغل في حقل من الفانتازيا والذرة النادرة، وأنها ارتكبت حماقات كثيرة حتى الآن. لكن، وهذا ما يدور في خلد سيلڤيا منذ وقت، لا يمكن أن تكون مجرد قصة عابثة أو عديمة المعنى.

«وهل فريدريش فون هافن هو اسمك الحقيقي؟»

«يوم ولدتُ منحوني اسم توبياس. في تلك السنة حصل ثلث المواليد

تقريباً على هذا الاسم، ولا أدري لماذا. كان أبي يسمى ڤيرنر فيشباين. لكنه اشترى اسم عائلة معروفة مقابل مبلغ كبير من المال. صار اسمي توبياس دوكرا واسم أبي ڤيرنر دوكرا، على اسم عائلة دوكرا الكبيرة في جنوب إيسن. مات الوالد قبل ست سنوات بانهيار في الرئة، كما قال الأطباء. كان أبي من عمّال المناجم.تخليت عن اسم دوكرا بعد وفاته ولم استرجع المال. لم أحاول الاحتفاظ بالاسم، في الحقيقة، فقد استخدمناه لفترة كافية. خشيتُ أيضاً من إغضاب عائلة دوكرا. فما كانوا ليبقوا صامتين إذا عرفوا أن أبي حمل اسم عائلتهم وذهب به إلى مناجم الفحم، وأن رجلا كان يهبط إلى قيعان المناجم حاملاً معه اسم دوكرا. وعلى أية حال، فعندما رأيت أبي يحتضر في مستشفى الأمراض الصدرية في ڤيردن تشاءمتُ من الاسم. كان اسم فيشباين يلائمه في أيامه الأخيرة أكثر من أي وقت مضى. كما تعرفين فالترجمة الحرفية للاسم هي ساق السمكة. أبي لم يمت وإنما هلك رويداً رويداً. وعندما انطفأت ملامحه كلها كان يبدو كساق سمكة.من يركب البحر ويمر بالشواطئ المهجورة أو القفار المطلة على الماء يمكنه تخيل المنظر. أحسست أن لعنة الاسم ستدركني أنا أيضاً. لماذا سأموت كساق سمكة؟ فلأمت كبحّار، أو على طريقة الجد الشجاع في رواية العجوز والبحر»

سألته، وهي لا تريد مقاطعته:

«أظنك قلتَ إنك ولدت في غوتنغن؟»

قال:

«ولد فون هاڤن في غوتنغن، أما أنا فمن أهل هذه المدينة»

صمت الضيف وشعر أنه قال كلاماً أكثر مما يتطلبه السؤال، وأنه ربما شوس على مضيفته. وعلى الرغم من أنه استعرض بعض معرفته أمامها إلا أنه وقع في إجابات سخيفة بعد ذلك، يعتقد الآن. على كل حال هاهو يفضي بآلامه إلى امرأة رآها للتو ويجهل حتى اسمها. بمعنى ما فالرجل متشرّد. المتشردون قادرون على قراءة الوجوه أكثر من غيرهم. فهم الذين لا يرسل الناس إليهم الكثير من الكلام ولذا فقد دربوا مهاراتهم مع الأيام على فهم الملامح. في العادة، كما هي طبيعة عمله، فهو يخرج إلى مهام ليس فيها الكثير من اللغة.يجد امرأة لا يعرفها في انتظاره. تلقي إليه بجسد بلا جغرافيا فيمنحها رغبة بلا تاريخ.ثم ما يلبث أن يلم أشياءه ويرحل، ونادراً ما شيعته امرأة إلى الباب. في الشهور الماضية، وقد مضت عليه أعوام في هذه الصنعة، لاحظ أن طلبات النساء تصبح أكثر غرابة وتعقيداً. ووجد أنهن يشتركن، جميعهن تقريباً، في رغبة واحدة: أن تعيش هي دور المرأة العبدة على أن يكون هو السيد الطاغية.في ما مضى كان يرغب في اصطحاب امرأة إلى النهر، وأن يكتب لها بضعة كلمات عن الحب. وبالأمس طلبت منه امرأة، لطالما حلم بإلقاء التحية على مثلها، أن يضربها بسوط غليظ على ظهرها وأن يمسك برأسها ويرزعه على حافة الأريكة.خشي أن يخسر عمله مع الأيام إذا ما عجز عن فهم التحولات التي تجري في مجتمعه، أو ترك جروحاً كبيرة على جسد واحدة من زبوناته. المرأة التي تجلس قبالته الآن تبدو غير مكترثة لشيء سوى حديثه.إذا كان

الحديث هو ما تريده، وقد يمر بتجارب مثيلة، فسيشاركها. ربما كان الملال والعزلة هو ما يؤلم خصر الفتاة أكثر من الرغبة، فكّر توبياس.

«لماذا اخترت اسم فريدريش فون هافن؟» ألقت إليه سيلڤيا بالسؤال نفسه للمرة الثانية.

«اعتذر»

قال وهو يحاول طرد شيء ما من داخل رأسه.

واستطرد، وهو يشعر بشيء ما من الارتياح، فهو أمام امرأة تريد اكتشافه. لطالما حلم بامرأة تبحث في تاريخه وتعنى بألمه، امرأة تريد اكتشافه ببساطة. أي امرأة حتى لو كانت تقف معه لأول وآخر مرة على حافة طريق. يفكّر الرجل أنه ما إن يفتح أسراره لامرأة فإن جزءاً من تاريخه سيصير خاصتها. ذلك سيدفعها إلى مزيد من العناية بحاضره، الشفقة أولاً ثم الوجد في آخر المطاف.يمكن لأي شخص حصل على امرأة صعبة المنال أن يقول لك، صادقاً، إنه ناح أمامها أول الأمر. الطريق الأول إلى قلب المرأة هو طريق الآلام، فكّر توبياس. وقد حدثها عن آلام ڤيرنر فيشباين، والده، وسيصب عليها في الحال آلامه هو كبحّار وشيك، أو بحار قتلته الحمى في الصحراء العربية قبل مئات السنوات.

«كنتُ دائماً غيريفقررت أن أبحث عن حقيقتي. أحببت القراءة واستمعت إلى المتشرّدين في الطرقات. لم يكن في المدينة الكثير منهم إلى أن حدثت حرب البلقان قبل عشرين سنة. كنت في العشرين من عمري

آنذاك. تعرفت على متشردة ألبانية كانت تفترش الأرض طيلة النهار أمام مبنى البريد على الجهة المقابلة لمحطة القطار وتغني. كان صوتها يسلب الألباب، ولا يمكن للمرء سوى أن يقف لحظات ليستمع إليها ثم يترك لها شيئاً في السلة التي أمامها. كانت المتسوّل الوحيد الذي غضت الشرطة بصرها عنه»

توقف لبرهة، ثم أكمل حديثه:

«حينذاك كنت أعمل في كشك صغير على الجهة المقابلة للبريد وكانت المتسولة تأتي لشراء السجائر، ونتبادل الحديث. أعجبني حديثها فجهزت لها كرسياً جوار الثلاجة. كانت ترتاح عليه من وقت لآخر وتحكي. حدثتني عن التقمص وعن الشرق وعن الإله. عرفت أكثر من إله عن طريقها. وأخبرتني عن الكوكب الذي أصبح مع الأيام مرتعاً للخالق يفعل فيه ما يحلو له ويوشوش كل جماعة بأشياء تختلف عن ما يقوله للجماعات الأخرى، وله في ذلك أسبابه. وكما أن الخالق عندنا نحن المسيحيين قد حل في جسد رجل من فلسطين قبل ألفي عام،قالت لي، فإنه أيضاً حل في أجساد أخرى في الهند وأقصى الشرق وفي أميركا.صُلب أحياناً،وأحياناً نفذ بجلده. المكان الوحيد الذي لم يسكن فيه الرب جسد إنسان هو أفريقيا، قالت لي المتسولة، ولا أعتقد أن كلامها كان دقيقاً»

توقف عن الكلام وسأل مضيفته:

«هل أزعجتك بحديثي؟»

أجابت سيلڤيا على الفور:

«أبداً. أنا متحمسة كثيراً لحديثك. أرجو أن لا يكون ما تقوله يزعجك أنت»

وشاءت أن تخطئ فتقول:

إنما أحضرتك إلى منزلي لتحكي

ولاحظت كيف تتجلى فيه شخصيتان في الوقت نفسه، وكيف يدخل من شخصية ويخرج إلى الأخرى.

قال وهو يبتسم:

«لامرأة جميلة مثلك سأحكي ألف ليلة وليلة» ثم فحص بعينيه حائط الصالون قبل أن ينظر في ساعته.

ابتسمت سيلڤيا وقالت للرجل الذي أمامها، وقد ألقتها كلمة ألف ليلة وليلة في سحابة من البخور والألوان:

«لستُ مضطرة للنوم فأنا في إجازة ولدي وقت كافٍ لقصصك وللألف ليلة إذا لم تكن تمانع»

قال مازحاً:

«نحن الآن في الليلة الألف، بقيت ليلة»

وضحك الضيف ومضيفته.

لنرجع إلى الوراء قليلاً ونتعرف على جانب من حياة توبياس..

جلس توبياس إلى المتشردة الألبانية وتعلّم. كانت تجيد العربية إلى حد ما،فهي من سلالة درزية تركت الشام بعد صراع مع الأتراك. تجلس على الأرض وترتل القرآن من وقت لآخر فيحسبونه من أغاني الشرق. قالت إن اسمها كامل، على اسم زوجها الذي لقي حتفه بين ألبانيا والجبل الأسود. مع الأيام اقترب منها عدد متزايد من الرجال الذين يأتون إلى المحطة ولا يفعلون شيئاً. ثم صاروا يغادرون وقد شعروا بالرضا. يقول الألمان إذا أرادوا نعت أحدٍ بالجهل: لا يعرف سوى محطة القطار. وهناك، في إيسن على الأقل، يلتقي أناس لا يعرف بعضهم بعضاً ويتحدثون لساعات طويلة وهم واقفون دون أن يسأل أحدٌ الآخر عن اسمه. فالمحطة هي اسمهم جميعاً، وهي عملهم. وبطريقة ما يمكن ملاحظة ذلك من الاستماع إلى أحاديثهم، تصبح محطة القطار هي العِلم خاصتهم. خلال وقت قصير يكون المرء قد اكتفى بمحطة القطار عن العالم.تمر القطارات في الأعلى والناس في الأسفل. الناس يذهبون، الناس يعودون. ما إن يظهروا حتى يتلاشوا كلّياً. الجالسون عند باب المحطة، ولا توجد تسمية معينة تخصهم، يرون الحقائب،ملامح الوجوه، والطريقة التي يتزين بها الواقفون في الانتظار. يشاهدون الشعَث على أجساد وملامح الخارجين من العربات. يرون خلال ساعات قليلة صورة مصغرة للعالم. وربما يشعر المرء منهم أنه يقف أمام المحشر والرب يخرج الناس من الأجداث ويسوقهم إلى مكان غير معلوم. تعلموا الزّهد، فهناك كل شيء قيد التلاشي. حتى أكثر المشاعر غزارة وإشعاعاً، شخصان يتعانقان أمام

عربة قطار توقفت للتو، سرعان ما تصير جزءاً من الماضي. يقفون هُناك أمام المحطة منذ زمن، وسيمكثون في أماكنهم لزمن، لا ينتظرهم أحد ولا يوجعهم شيء.

بالقرب من المحطة جلست المتشردة الألبانية ما يزيد عن ثلاثة أعوام، تغني وترتل القرآن وتحكي لأصدقائها الجدد. إلى أن وصل الأفارقة إلى المدينة. اختفت بعد ذلك، وجاءت ألبانية أخرى وأخذت مكانها ووضعت سلة أكبر. لكن غناءها كان بائساً فطردتها الشرطة. قيل إن الأفارقة أغروها بالعمل معهم في تجارة المخدرات التي يجلبونها من هولندا. وهكذا صار الزبون يقترب منها ويضع في السلة عملات ورقية ويستلم منها، بخفة، شيئاً. جرت تلك المبادلات السوداء الوقت دون أن يلاحظها أحد وكما كانت تجري في سابق الأيام: امرأة تغني وأناس يهبونها الصدقات المُستحقة.ولأن الشرطة كانت تبحث عن الأفارقة الذين يبيعون المخدرات فقد توصلت إلى الحيلة واعتقلت المرأة في اللحظة التي كانت ترتّل فيها سورة مريم. لم يكن توبياس متواجداً ذلك اليوم، وكان قد ترك عمله في الكشك منذ وقت قصير. لكن أكثر من رجل، من الذين كانوا يقفون أمام المحطة، أكّد له ذلك.

«حتى صديقي كارستن نيبور، وهو شاب يعرف كل شيء في إيسن وبمقدوره أن يسرد لك أسماء النساء المُطلقات في المدينة، صدّق هذه الحكاية» قال توبياس، أو فريدريش فون هافن الذي عرف أن حورية ذهبت إلى السجن وكذّب باقي الحكاية.

صار للمرأة البلقانية، حورية كامـــل، مجموعة من الأصدقاء، وأصبحت تقوم من مكانها لبعض الوقت وتجتاز الشارع الذي يفصل بينها وبين المحطة.سرعان ما هجرت الكرسي الخاص بها في الكشك المقابل وصارت تحكي واقفة، بالقرب من مطعم ماكدونالدز. اكتشف الألمان، الذين يقفون أمام المحطة ولا يفعلون شيئاً،جنّة كبيرة في الجنوب يجهلونها. إلى أن جاء الأكراد. أصبحت المتشردة الألبانية تنهض مسرعة وتلتحق في مظاهرات الأكراد وتلعن معهم تركيا وإيران والعرب ثم تعود. بين وصول الأكراد واختفاء المتشردة الألبانية أقل من ثلاثة أشهُر. يعتقد فريدريش فون هافن إن لاختفائها علاقة بهتافها ضد الأترك.

لكن التغير الأساسي الذي حدث في حياة توبياس ظهَر بعد وصول بيتر فورسكال قادماً من دورتموند. كان فورسكال قد تخلى عن عمله مع الشرطة بعد وصول البلغاريين إلى المدينة. عندما وقف أمام محطة القطار لأول مرّة كانت المرأة الألبانية تقضي أيامها الأخيرة معهم.شيئاً فشيئاً وجد له مكاناً في أكثر من مجموعة واقفين ولم يقل اسمه لأحد. لكنه أحب، أكثر من أي شيء، تلك المجموعة الواقفة التي يلتحق بها عند الغروب شاب يحمل جهاز تسجيل تحت إبطه، ويقول إن اسمه كارستن نيبور. كان يحفظ أغاني الحقبة التي تلت الحرب العالمية الثانية حتى مطلع السبعينات، أشهر أغاني الجاز. أما جهاز التسجيل خاصته فلا تصدر عنه سوى أغاني البوب العالية والمزعجة، وكان يقول إنه إنما يحاول إيقاظهم، ولا يهمه ما إذا كانوا سيطربون أو سيشعرون بالانزعاج.

الظلام الدامس

إلى زمن قريب كان كارستن نيبور يذهب مع أولئك الذين يحتشدون، بزيهم الأسود، في حفلات الروك شمال المدينة. وكان شعره طويلاً ويضع قرطين على أذنه. مع الأيام صار شعره قصيراً، وتخلى عن قُرط.وفي أحد النهارات قرأ أحد الهيبيز اسم كارستن نيبور منقوشاً على ذراع الشاب، وكانا يقفان ضمن حشد كبير في الساحة المقابلة لكافيه نورد. وضع الرجل أصبعه على الاسم وسأل بفضول: هل تعرف من هو كارستن نيبور؟

رد عليه الشاب: أنا كارستن نيبور.

ضحك الرجل ذو الصدر العريض والشعر الطويل:

«أعني كارستن نيبور الحقيقي»

فقال الشاب:

«أنا كارستن نيبور الحقيقي»

لا يعرف أي من الرجلين الآخر، ولا يحتاج الهيبّيز لذلك. كان كارستن نيبور يقف خلف الرجل ويتطلعان إلى المنصة الكبيرة. كان الرجل يرتدي تي شيرت أسود على ظهره عبارة «إله المفقودين».

استدار الرجل إلى كارستن وقال بعد أن ألقى نظرة على ساعته:

«حسناً وباختصار: كان نيبور عالم خرائط من ألمانيا أرسله ملك الدنمرك في رحلة علمية لاكتشاف العالم القديم في الأراضي السعيدة»

سأله كارستن نيبور باهتمام، محاولاً التقاط كلماته بين الضوضاء والموسيقا العالية:

«وهل وجد نيبور العالم القديم؟»

فقال الرجل وهو يلقي بنظره إلى المنصة:

«ستصعد مدام ميهيم الآن وستغني: الموتى سينهضون من جديد»

ثم أدى رقصة خفيفة وحرك يديه ورأسه وهو يغني «الموتى سينهضون من جديد»

في تلك الأثناء صعدت مدام ميهيم، القادمة من نيويورك، وحيّت جمهورها من ذوي الملابس السوداء.

في تلك الأثناء همس الرجل في أذن كارستن نيبور:

«لقد وجدوا العالم القديم ولكنهم لم يفهموا الكتاب المقدس. افهمه أنت.أنت كارستن نيبور الميّت الذي سينهض من جديد»

ثم ألقى ببصره إلى المنصة وراح يقهقه.

بينما كانوا جميعاً يتراقصون، بمنظرهم المثير، كان كارستن نيبور يحرك شفتيه فقط،وكان شارداً. كانت مدام ميهيم تتمايل على المنصة مثل جنية وتلقي بشَعرها يميناً ويساراً. وبدا كأن الموتى سيقومون في الحال. حتى إن كل رجل وكل امرأة راح يضرب الأرض بقدميه بقوة وثبات وكاد الموتى ينهضون. ولو ضربوا بأقدامهم حتى الفجر لخرج الأسلاف كلهم. عند ذلك ستطلب منهم مدام ميهيم الذهاب لمضاجعة هذا العالم ثم قلبه رأساً على عقب، كما توعدت العالم في أغنيتها التالية.

لم يدر بخلد الشاب كارستن نيبور، وهذه الأفكار تتدفق في رأسه، سوى ميّت واحد.

في الأيام تلك كان كارستن نيبور قد تعرّف على المتشردة الألبانية، وكان اسمها حورية. بعد أيام ستقول حورية لأصدقائها إنها في طفولتها أضاءت الطريق إلى النبع وكانت ليلة شتاء، فمنحتها القرية ذلك الاسم. الحورية، كما شرحت لهم، هي امرأة طائرة في الجنة. خلق الإله الجنة وترك فيها ظلاماً، ولو لم يفعل ذلك لأصبحت حياتها مملة ولا تحتمل. الحوريات يعشن في منطقة الظلام الدامس في الجنة، وينِرن الطرقات ما إن يقترب إنسان.

قال توبياس، سيصبح اسمه فيما بعد فون هاڤن، لحورية كامل:

«أوه، الجنة التي تتحدثين عنها رائعة. من المحزن أن الجنة الكاثوليكية ليس فيها ظلام دامس بهذه الطريقة.لم نسمع من قبل عن ذلك الظلام الذي تنيره الحوريات»

لكن رجلاً اعترض على توبياس، وكان اسمه كريمر ولم يكن قد مضى على التحاقه بالمجموعة سوى بضعة أشهر، وقال:

«بلى، يوجد ظلام دامس في العهد القديم وربما في العهد الجديد أيضاً. لكنه ظلام يختلف عن الذي تتحدث عنه حورية»

صمت الرجل، الذي كان صديقاً لراهبة، ليرى ما إذا كانوا يرغبون في الاستماع إلى المزيد من كلامه، ثم أكمل:

«سمعتُ كثيراً عن الظلام الدامس من راهبات كنيسة نيكولاوس. أظن أن الراهبة أورسولا، وهي راهبة متعلمة، تعرف الكثير عنه. مما فهمته أن الراهبة أورسولا تخشى ذلك الظلام، وتقول إنه لا يزال موجوداً في مكان ما في النصف الجنوبي من هذا العالم. لم أسمع شيئاً عن الحوريات. حورية كامل تتحدث عن الظلام الدامس الجميل، لكن أورسولا تقول إن الظلام الدامس مليء بالضفادع والنقمة. أظن أورسولا ذكرت رقماً عن المرّات التي غضب فيها الإله من المصريين فأرسل إليهم ظلامه الدامس فخرجت الضفادع واحتلت منازلهم. ربما ١١ مرّة، أو قريباً من ذلك. اعذروني، ولكن ما سمعته عن الظلام الدامس من الراهبة أورسولا ليس فيه أي قدر من الرومانسية»

من الصعب التسليم بأن كريمر كان يتحدث إلى راهبات دير نيكولاوس. في الواقع تحسنت علاقته بعض الشيء بالراهبة أورسولا، التي كانت صديقته قبل عقود، وصار يزورها من وقت لآخر ويستمع إليها ثم يمضي. من الجيد أنه استوعب حديثها عن الظلام الدامس، ذلك

أن أورسولا نفسها كانت مقتنعة في قرارة نفسها أن كريمر لا يعير حديثها اهتماماً، وإن كانت تقول لنفسها من وقت لآخر إنها استعادت روحه.

شعرت حورية بالإهانة بعض الشيء. فهي، في نهاية المطاف، ابنة لرجل دين مسلم كان يخطب كل جمعة في مسجد القرية ويلقي الدروس في الأيام المتبقية من الأسبوع. إن كانت أورسولا قد قرأت شيئاً عن الظلام الدامس في العهد القديم فهي قد اطلعت، ولا شك، على كلام زائف، فكّرت كامل.أرادت حورية أن تقول هذا الكلام، لكنها تراجعت. هي الآن هُنا، في أوروبا، ولا يجدر بها سوى شيئين اثنين: أن تغني وتجمع المال، وأن تعثر دائماً على الكلمات المناسبة.

سرعان ما عثرت حورية على الكلمات المناسبة:

«أعتقد أن ما قالته أورسولا صحيح. كان أبي يلقي الدروس الدينية لسنوات وكان يقول إن فساد العالم آخذ في الاتساع وإن الإله يوشك أن يرسل الدخان إلى القرى والمدن ولن يفلت منه إنسان.كان يقول إنه ما من شيء بعد الدخان سوى القيامة. في وسط الدخان ستمشي دابة كبيرة هي خليط من الخنزير والحصان والأسد ولها قوائم جمل. ستحمل الدابة خاتم الملك سليمان وعصا النبي موسى وستختم على كل جبين: صالح، أو فاسد. ما إن ينحسر الظلام حتى تكون الدابة قد شطرت العالم إلى شطرين، ثم ينهي الرب كل ذلك وينزل»

استدركت حورية:

«الدخان الذي تحدث عنه أبي ربما هو ما تعنيه الراهبة أورسولا. لكن الظلام الدامس في الفردوس هو شيء آخر. ليس عقاباً ولا يسوقه الإله إلى مكان آخر. هو محل تطير فيه الحوريات ويتمشى فيه الشعراء والفلاسفة، ويلجأ إليه من يرفضون حياة الضوء والصخب. أظنني سمعتُ أبي يقول ونحن على العشاء إن أهل الفردوس يسمون الظلام الدامس وادي الشعراء. هناك نهرٌ صغير يجري فيه نوعٌ واحد من النبيذ اسمه نبيذ الشعراء، ولا يجري ذلك النهر سوى في الظلام الدامس ولا توجد أنهارٌ أخرى»

كان كارستن نيبور يقف مع المجموعة، وكان يحمل جهاز التسجيل تحت إبطه لكنه تركه صامتاً. لم يقل شيئاً منذ بدأ النقاش وكان مأخوذاً بما يسمعه. ها هو يسمع كلاماً عن الظلام الدامس للمرة الثانية في أقل من أسبوع.

قال رجل كان قد التحق بالمجموعة أيضاً قبل أشهر قادماً من دورتموند حيث عمل شرطياً لزمن:

«ولكن لماذا لم يبحث أحد حتى الآن عن ذلك الظلام الدامس؟ لماذا تقف حضارتنا عاجزة عن اكتشافه إذا كنا نعرف أنه يختبئ في الجزء الجنوبي من العالم وأنه أحد أسباب اضطرابات هذا العالم؟ لو عثرنا عليه فسنجد ضفادع أورسولا ودابة حورية وسنفعل شيئاً ما حيالها. وربما سنعثر على العواصف التي تخرج من هناك وتجتاح المدن. لنضع حداً لهذا الجنون يا أصدقائي»

ردت حورية، ساخرة:

«وهل تعتقد أن الإله سيعجز عن ابتكار وسائل أخرى أو خلق دابة جديدة؟»

وجد الشرطي السابق سؤالها جيداً فقال بمزيج من الثقة والحماس:

«يبدو أنها دابة أخذت من الإله وقتاً كثيراً حتى يصنعها بالطريقة تلك، كما فهمتُ منك. على الأقل سنعطل حيله لبعض الوقت وسنضع في طريقه العراقيل. دعيني أقُل لك شيئاً: من المناسب أن نفهم الطريقة التي يدبّر بها الإله مكائده. مما نسمعه من رجال الدين والكتب المقدسة أنه ليس ثمة من تناسب بين الخطيئة والعقاب. أحياناً تجدين الإله يقلب قرية صغيرة رأساً على عقب لأتفه الأسباب. ما الذي فعلته قرية في قادم الأزمان حتى تنال ذلك العقاب.عودي إلى دينك، ليُعد كل منا إلى دينه،ثمة أمثلة كثيرة. سيقول لك رجل الدين: علينا أن نتجنب ارتكاب الخطيئة. حسناً، أجد تلك النصيحة جيدة، ولكن لنذهب أبعد من ذلك. لنضع العراقيل أمامه. ليدعنا نكتشف الخطيئة بأنفسنا ونعالجها، ليمنحنا كل الوقت. لكنه يسارع إلى البطش بنا. انظري إلى العواصف التي ضربت إيسّن، والتي تكررت مؤخراً. إنها محاولة مستميتة من الرب لإخضاعنا، ولولا إن حضارتنا قد تجّهزت لمكائده لكان مصيرنا مثل مصير قرى العهد القديم. أو لكنا قد أصبحنا مثل المصريين المساكين الذين فتحوا أعينهم فوجدوا الضفادع تقتحم منازلهم»

ألقت حورية بما تبقى من سيجارتها على الأرض وداست عليها، ثم قالت وهي تهز رأسها:

«لا يمكن أن يتحدث المرء عن الإله بهذه الطريقة»

لكن كارستن نيبور تدخل محاولاً إنقاذ الحديث الذي وجده شديد الأهمية:

«لنهدأ قليلاً، أرجوكم. أرى الأمر مهمّاً للغاية، ويمكننا أن نفعل شيئاً»

كان مساء ماطراً.

صمت كارستن نيبور لحظات، وعندما لم يسمع كلاماً قال:

«لنقُل أفكاراً، الأفكار هي ما سيفتح لنا الطريق»

باورنفايند، الرسام

أرادت سيلفيا أن ترى الأشخاص الستة الذين تحدث عنهم كارستن نيبور عندما كان يجلس على حافة سريره في المشفى صباح اليوم التالي للعاصفة. أن تجري معهم تحقيقاً على طريقتها. لم تكن تمارس التحقيق لمصلحة الجهاز الذي تعمل فيه، ولا كشرطية. كانت امرأة تشعرُ بالملال، كما افترضنا سابقاً، وقد أصابها ما يصيب أي مدينة بعد خروج الروس منها. لا يزال بداخل سيلفيا شغف كافٍ لدفعها للحركة حول العالم ثمان مرّات على الأقل. ففي طفولتها سقطت من على شجرة وكسرت سنّاً. وعندما صارت يافعة، وصار نهداها يملآن كفّي رجل في الثلاثين، انزلقت دراجتها وكسرت ذراعها اليسرى. أما بعد أن صارت شرطية، ولم يكن قد مضى عليها الكثير، فقد هددت زميلاً لها ببيعه لمهاجرين غير شرعيين. ومن وراء ذلك التهديد الغريب لاقت سيلفيا المتاعب. ولمّا صار لها نهدان

أكبر من كفي أي رجل في المدينة فقد سلكت سيلڤيا طريق الشك ومضت فيه، وصارت إلى حد كبير قليلة الكلام.

الليلة التي التقت فيها توبياس، الأربعيني الذي قال إن اسمه فريدريش فون هافن، غمرتها بمزيد من الشغف والفضول. لم يكن أي منهما مضطراً لخلع ملابسه عندما انتصف الليل. ولأول مرّة أحست سيلڤيا أنها أصبحت جزءاً من مجموعة البحّارة تلك. انقضت الإجازة وعادت الفتاة إلى العمل. كان يوم اثنين، وكانت شمس المدينة باهتة كما لو أن خسوفاً ضربها قبل ساعات عندما قالت سيلڤيا لصديقتها ڤينسّا: أنا الآن بحّارة. واصلت ڤينسّا سحب مزيد من دخان سيجارتها وهي تتأمل ظلاً غريباً على المبنى المقابل، ثم قالت لزميلتها: قبل ساعتين قدمت يوستينا استقالتها. لم يكن قد مضى على التحاق يوستينا، ذات الجذور البولندية، بالشرطة أكثر من نصف عام.

«لم أتفاجأ بالأمر. هل وجدت لها عملاً آخر؟» سألت سيلڤيا، فحركت ڤينسّا كتفيها.

وهما تدلفان إلى مبنى الشرطة، بعد استراحة تدخين قصيرة، سألتها ڤينسّا عن البحر الذي ستعمل فيه فقالت سيلڤيا إنه بحر في الجنوب.

في المساء طلبت سيلڤيا الرسام جورج باورِنفايند. إلا أن الرجل قرع بابها بلطف فائق بعد مضي أسبوعين.

«كنتُ في إجازة، اعذريني» قال بتأدب جم.

«أعرف، وصلتني رسالة من الموقع» قالت وهي تمشي أمامه لتدله على مكانه في الصالون.

استوى الرجل في مكانه وكان يلبس نظارة بحواف سميكة وكانت قامته طويلة وشعره خفيفاً. وضع يده على ركبتيه وسألها بشكل مفاجئ:

«هل أنت بخير.»

«أنا؟ أنا بخير، كل شيء على ما يرام. أشكرك. وأنت؟»

افتتحا الحديث كأنهما صديقان قديمان أو زميلان.

«أنا بخير، كنت في مصر. قضيت أسبوعين رائعين»

«كيف هو الطقس في مصر هذه الأيام؟» سألته سيلڤيا آملة أن تجره بسرعة إلى الحديث الذي تريده.

«الطقس هادئ بعض الشيء في الصحراء وعند البحر»

صمت قليلا وابتلع ريقه. لاحظت توتره وخمنت: ربما هو كذلك. كانت تنظر إليه بابتسامة خفيفة على شفتيها فتفتحت شهية الرجل للكلام. لا يفتقد الرجل القادم من صحراء أو الذاهب إلى بحر شيئاً أكثر من ابتسامة خفيفة على شفتي امرأة لا يعرفها. وما من شيء يجلب الحظ السعيد مثلها، ولا النهايات الدرامية سواها.

«نزلت في شرم الشيخ. مدينة من السحر الخالص على البحر. لم أمكث في المدينة سوى ساعات قليلة. كنت أقضي أغلب يومي في قرى البدو في الصحراء. استأجرت سيارة ودليلاً. أنا أفهم الآن لماذا كان الأنبياء ينزلون

في تلك القفار. بإمكانك مشاهدة الإله في كل مكان حولك. هنا في أوروبا كل شيء مزدحم. الغابات،الناس، الرياح، والكد.الإله لا يعيش في هذه الأماكن الباردة والمكتظة، لا هو ولا الرسالات. حتى الدين الخاص بنا تجدينه ديناً بارداً بلا انفعال ولا حرارة. أظن أن حروبنا الدينية التي توقفت، للأسف، منذ زمن طويل كانت بسبب ما بقي في المسيحية من آثار شرقية ومن حرارة الصحراء. الإصلاحات التي كنا نجريها على ديننا كانت تهدف إلى تخليصه من حرارته، وفي النهاية حصلنا على دين بارد»

توقف الرجل عن الكلام. ولكن لماذا يتحدث رجل مثله إلى امرأة مثلها في لقاء كهذا بالطريقة تلك؟ تفتحت أسارير المرأة غير وداهمها شيء من الخوف.

تدفق الرجل أمامها وكان يحرك يديه على طريقة المثقفين وبين جملة وأخرى يعدل وضع نظارته.

خطر في بال الفتاة خاطر أفزعها: ما إذا كانوا تجمعاً لمثقفين بوهيميين يعرفون كل شيء عن العالم ويركلونه باختيارهم، وقد اختاروا أن يقوموا بذلك العمل الجماعي إمعاناً منهم في السخرية من العالم. ستبدو إذن ساذجة ولا بد أنهم ينظرون إليها بشفقة الآن. لماذا لم يأتها هذا الخاطر من قبل وهي تجلس لأول مرّة قبالة كارستن نيبور، الرجل استعرض أمامها معرفته الواسعة بفنون الچاز الهادئ، وغنى بإنجليزية بلا لكنة.

حاولت سلڤيا احتواء الخاطر. فليكن أنهم مثقفون. يعتقد المثقف أن العالم في قبضة يده لكن مكتبة رأسه تتلاشى فجأة لمجرد أن يقف أمام

امرأة جميلة.إنهم، قالت لنفسها، ينطفئون أمام المرأة ولا يبقى منهم من شيء على قيد الحياة سوى قضبانهم. الرجل أسير لإربه، وإربه أسير لأي امرأة تمر بالقرب منه. الرجال، تدرك سيلڤيا، أقوياء بما يكفي ليقلبوا الحياة ظهراً على عقب. وهم لا يتنافسون على القوة والمجد إلا للفوز باهتمام امرأة في نهاية كل حرب. تفضي الحرب، حتى الحرب، في النهاية إلى امرأة. قرأت سيلڤيا في طفولتها عشرات القصص عن الأمراء الشجعان والمحاربين المخيفين الذين انتهى بهم المطاف راكضين وراء فتيات فقيرات في الأسواق الشعبية والضواحي البائسة.يدّعي الرجل أنه يهيمن على العالم حتى إذا ما اختلى بامرأة بدأ يعوي.

«أتمنى أن أزور الصحراء مثلك. هل كنت تفعل شيئاً محدداً في الصحراء؟»

تركها تجمع خيوط سؤالها، فقالت:

«أعني قرأت تحت اسمك أنك رسّام. هل رسمت الصحراء؟»

ابتهج الرجل. إنه رسام، قالت هذه الجميلة. بإمكانه الآن أن يقول لها أشياء لم تخطر على بال امرأة، وأن يطلب منها كملك فتطيع هي كجارية. هو قادر الآن على تفكيكها بالكامل، أن يطلب منها مثلاً النوم عارية في البلكونة، أن تضع يداً على نهد وتترك الآخر يتدلى أمام المزرعة. فهو رسام وبمقدوره أن يفعل يشاء وها هي تبدو مقتنعة بمهنته.طلبته عشرات النساء من قبل وقرأت المكتوب تحت اسمه غير أن امرأة واحدة لم تسأله عنها.لقد كان بالنسبة لهن الداعر الغامض الذي يُعطي شيئاً ويأخذ آخر.

أما هذه الفتاة بارعة الجمال فهي تسأله عن الرسم، ليتها تسأل أكثر عن الرسم فلديه الكثير مما يقوله، إنه يعتقد إن قضيبه هو أقل الأشياء أهمية عنده ومع ذلك فهو ما يجلب له الرزق. لقد امتلك الصارية وبإمكانه الآن أن يبحر. يزور فتيات كثيرات غير أن هذه الأرض التي أمامه تبدو بكراً وغضة. لا يشعل النار في الأعصاب العميقة للرجل شيءٌ مثل امرأة ساذجة وبكر. سيؤجل ذلك فهو قادم من الصحراء وهذه أول مهمة له منذ أسابيع، ويريد أن يشرب الفتاة على مهل.

قال وهو يحاول السيطرة على نبرته:

«كنت أسأل البدو عن البحر»

«تسأل البدو عن البحر؟» سألته مستغربة.

«نعم. صحيح أن البدو قليلو الخبرة بالبحر، لكنهم يعرفون أكثر من غيرهم الأشياء التي تجلب الحظ السعيد وتلك التي تجلب النحس»

«تقصد في البحر؟»

«بشكل عام وفي البحر أيضاً. أنا وأصدقائي ننتظر الوقت المناسب للخروج في رحلة بحرية طويلة سنموت فيها كلنا وسينجو واحد فقط»

حبست المرأة أنفاسها وبدا الرجل متسامحاً مع حديثه ومتعادلاً مع نفسه كما لو كان أحداً سواه. تركته يستسلم لحديثه فهي تريد أن تسمع وحسب. أما هو ففكر بإغوائها بطريقة درامية، أراد أن يرى قدميها العاريتين على رمال الشط وهي تضع كفها على جبينها، وسيأتي هو على

ظهر سفينة من جهة الشرق. هؤلاء المساكين يذهبون إلى نساء كثيرات ولا يعودون بواحدة منهن وذلك أمر بالغ الإيلام.

واصل حديثه:

«ستسافر معنا راهبة فنحن بحاجة ماسة إلى راهبة. نرغب في اكتشاف الظلام الدامس الذي جاء في العهد القديم. يعيش الظلام الدامس في بحار الجنوب، أو في مكان ما يدعونه العربية السعيدة. نحن بحاجة إلى شخص لديه خبرة مع الإله، قادر على التنبؤ بانفعالاته ونحن نقترب من تلك الصحراء النائية. رسم جورج باورنفايند، الرسام الذي تعيش روحه بداخلي، فرجَ امرأة مصرية مختتنة أثناء مروره بالصحراء. ولما سأل الحجاج على ظهر سفينة أبحرت من السويس أخبروه أنهم يفعلون ذلك ليمنعوا سوء الحظ ولكي لا تغرق السفن الذاهبة إلى الحج»

«حديثك مثير. أكمل»

«وأنا عائد من مصر خطر في بالي خاطر. سنبحر أنا وآخرون وستبحر معنا راهبة متحمسة لاكتشاف ظلام العربية السعيدة. سألت نفسي كيف سيكون رد الراهبة إذا قلنا لها إن علينا أن نختتنها حتى لا تغرق السفينة في المحيط»

وضحك بصورة آلية دفعت سيلفيا للضحك.

ألبانيا أجمل البلاد

عملت سيلفيا أسبوعاً كاملاً، وكان عليها أن تعمل أيضاً يوم السبت. أما نهار الأحد فقد التحقت بصلاة الساعة الحادية عشرة في كنيسة القديس نيكولاوس، وملأت رئتها من البخور. حادت شمالاً، وهي خارجة، وذهبت إلى المقبرة. تذكرت أنها لا تحمل كتاباً. لم ترَ الراهبة أورسولا، لكنها رأت أخرى. تجولت في المقبرة وشاهدت سيارة إسعاف تخرج من جراج المستشفى ثم سرعان ما دوى صوتها وهي تتجه جنوباً. دارت أشياء كثيرة في رأس الفتاة منذ ودّعت الرسام باورنفايند قبل منتصف الليل. حدثها، ليلتئذٍ، عن رحلة إلى أرض العربية السعيدة وعن أشياء متداخلة ومركبة. وعندما سألته عن أين تكون تلك الأرض قال الرجل وهو يبحث بعينيه عن شيء ليكتب عليه إنها في الجنوب أسفل البحر. ثم أخرج قلماً من الجيب الداخلي لسترته ورسم البحر الأحمر وهو يقول: يضيق هذا البحر في الأسفل ثم يصبح بالكاد كافياً لمرور سفينة واحدة. عند ذلك تصبح العربية السعيدة على يسارك أو خلفك بخطوة.

لا تعرف سيلڤيا الآن، وهي تتجول في المقبرة، ماذا تريد أن تعرف. لقد سمعت كثيراً، وتعرفت إلى مجموعة تبدو أقرب إلى قائمة شخصيات روائية ثرية بالألغاز. إنها تعيش حياة مستقرة بعض الشيء وهي قادرة على الذهاب إلى أي متجر وشراء الأشياء التي تريدها. كما في وسعها السفر إلى أي مكان في العالم. وما تقبضه من راتب شهري يكفيها لإنجاز أي عقد شراء تريده. لكن الملال يضربها من جهاتها الثمان، الملال واللامعنى. فهي حبيسة داخل الأشياء التي تشتريها والأشياء التي تقدر على شرائها. إنها شرطية تعيش في عالم مسطح لا يرتكب فيه الألمان الخطايا، كما تعتقد. تقضي وقتاً طويلاً في زيها الرسمي ثم تلقي بكل ذلك جانباً وتسترخي متعبة ونصف عارية في بيتها. خارج زيها الرسمي تجد بالكاد وقتاً يكفي لإنجاز الأشياء الصغيرة.

وهي تخرج من الكنيسة رأت أناساً تعرفهم، أناساً لم ترهم منذ زمن طويل. لو لم تذهب إلى الكنيسة فإنها ما كانت لتلتقيهم مرّة أخرى. منذ التحقت بالشرطة تضاءل العالم الذي تتخيله وصار هو المكان الذي تعمل فيه. ثم صارت بعد ذلك تسافر في إجازاتها القصيرة وتصير مجرد سائحة على الأرض. لا تملك من لغة للحديث إلى سكان هذه الأرض المتنوعين سوى التحايا التي تتدرب عليها في المطارات. تكثفت لغتها شيئاً فشيئاً، ثم صارت هي لغة الشغل الذي تؤديه، لغة وظيفية بطيئة ومحددة وتفتقر إلى الخيال والسعة. لم يعد هناك من إمكانية لأن تحمل لغتها الجديدة دلالات غير تلك المتعارف عليها. عانت، في الأشهر الأخيرة، من اضطرابات في

النوم ولجأت إلى الطبيب. يمكن مشاهدة مجموعة من الروايات في منزلها. داخل الروايات تعثر سيلڤيا على الحياة الاجتماعية المفقودة: العمة، الخالة، ابنة الأخت، الجد، ودجاج القرية. لقد أصبح العالم كله، بالنسبة للموظفة التي اسمها سيلڤيا، مجرّد فيري تيل، قصة متخيلة. إن أكثر ما يخيفها، تعلم ذلك جيّداً، هو أنها قادرة على أن تحصل على كل شيء تريده. لم تعد لديها من طموحات كبيرة وتفتقر كلّياً إلى الحرمان. تريد اكتشاف الحرمان، يمكننا استنتاج ذلك ببساطة. إذا اكتشفت الحرمان، فكرتْ مراراً، ستعثر على السعادة.

مساء الأحد أخذت سيلڤيا دراجتها وانطلقت تجاه مدينة غيلزين كيرشن القريبة من مدينتها. هواء الخريف، هواء مساء الخريف، دخل في أذنيها وصار العالم طنيناً. تخيلت نفسها تركض بدراجتها على سطح البحر المتجه إلى العربية السعيدة. وهي تجتاز الحدود بين إيسن وغيلزين كيرشن تخيلت سفينة حجيج.

ثمة ظلام دامس في مكان ما من العالم، ولا بد أن ذلك شيئاً رائعاً، أو الشيء الرائع الوحيد المتبقي في عالم ملأه الضوء وأصاب سيلڤيا بالأرق. «أريد السفر إلى ذلك العالم» قالت لنفسها، ثم حادت شمالاً واجتازت الحدود مرة أخرى في اتجاه مدينة إيسن. في ذلك المكان من العالم ستنام سيلڤيا عميقاً ولن تكون بحاجة إلى قراءة الروايات.

ها هي زميلتها ڤينسا، وهي تكبر سيلڤيا بعامين، تقول أنها تتذكر قصة المتشردة الألبانية، وتسألها باستغراب «ولكن كيف عرفت قصتها؟»

«تلك قصة قديمة، أتذكر أني عايشتها في الأسابيع الأولى لالتحاقي بشرطة إيسن» أضافت ڤينسّا.

ارتبكت سيلڤيا ولم تجد جواباً معيناً، لكنها اهتدت إلى القول إنها سمعت قصتها منذ فترة وتذكرتها البارحة.

«وما الذي ذكرك بها؟» سألتها ڤينسّا.

«ذكرتني بها متشردة بالقرب من ميدان كينيدي بوسط المدينة. أظنها كانت هي أيضاً متشردة ألبانية»

جلست الفتاتان تجريان بحثاً عن سجل المتشردة الألبانية داخل شبكة المعلومات الخاصة بجهاز الشرطة. بعد محاولات عديدة تمكنت الفتاتان من كتابة اسم الشرطية بشكل صحيح: حورية كامل.

وجدتا تقريراً أخيراً وضعت عليه نقطة حمراء دائرية تدل على أنه قد أغلق باعتباره تقريراً نهائياً ودقيقاً. فتحت الفتاتان التقرير. عثرت الشرطة، يقول التقرير، على كميات تجارية من الهيروين والحشيش في سكن المتشردة. كانت تنزل في غرفة في معسكر للاجئين في شمال إيسن. لم تعترف حورية كامل بشيء، وكانت وقحة مع الشرطة. وردت هذه العبارة بهذا النص. حتى أمام القاضي لم تعترف بشيء، وظلت تردد: ألبانيا أجمل بلاد في الدنيا لولا الحرب. لكن الأفارقة الذين استخدموها اعترفوا بكل شيء، وبعلاقتها بهم.لقد انتهكت حورية كامل القانون رقم ٢٩ من قوانين تنظيم استخدام المواد المخدرة. بالاعتماد على تقرير الشرطة فإن

حورية كامل تقضي في السجن عامها الأخير من عقوبة قدّرت بخمسة أعوام. تساءلت الشرطيتان: ستقضي في السجن ثلاثة أعوام فقط؟

همست سيلڤيا لنفسها:

أوكييه، وشعرت بقدر عظيم من الارتياح. إن ذلك يعني، وهو ما يهم سيلڤيا، أن السيدة حورية كامل كانت حسنة السلوك في سجنها، وهو أمر يمنح القصص التي سمعتها عنها مصداقية ومغزى.

فاطمة

اقتربت الساعة من التاسعة ليلاً وقامت سيلڤيا لتفتح باب سكنها للرجل الذي لا يزال يقول إن اسمه بيرغرين وأنه ساقٍ وسائس خيول. لم يتأخر هذه المرة.في الطريق إليها كان قد نسيَ من تكونُ ولمّا رآها تذكرها غير أنه لم يتذكر شيئاً مما دار بينهما. بالنسبة لهؤلاء الرجال الذين يمارسون هذا العمل فإن النساء تتشابه، وتتداخل أحاديثهن.توقف حديثهما في المرة الأخيرة عند نبيذ يدفع المرء إلى مضاجعة الأسماك. بعد تلك الجملة قام الرجل من مكانه وضاجع سيلڤيا التي تمنّعت أول الأمر، ولا بد أنها تتذكر ذلك.

كانت المدينة باردة ساعة وصوله، حتى إن كلبين يحمل أحدهما اسم جنرال كانا يئنان بالقرب من نهر، وكانت الأنثى تدخل رأسها في صدر الذكر وكان هو يحك رأسه على الشجرة.

وقعت عينا برغرين على شفتي سيلڤيا. أما هي فسرعان ما ألقت

بصرها إلى نعاله. خطا الشاب داخل غرفة الجلوس حيث كل شيء، وأغلقت الشابة الباب بهدوء وتبعته. منذ زارها قبل أسابيع لا يزال طعم الفتاة في شفتيه، ولا يزال عَرق الرجل في أنفها.

لاحظت سيلڤيا أن وزن الشاب زاد قليلاً. سألته، بصورة مباغتة:

«ماذا تحب أن تشرب، ماء أم نبيذ؟»

«نبيذ، قليل من النبيذ» قال بيرغرين وهو يبتلع ريقه.

عندما تذوق طعم النبيذ توسعت حدقتاه وسأل الفتاة:

«من أين حصلت على هذا؟»

ابتسمت سيلڤيا ثم سألته، غير آبهةٍ بسؤاله:

«خبّرني عن الخيول التي تسوسها»؟

ربما لم يكن الشاب يعرف إنه يجلس الآن في حضرة شرطية نبيهة. وأن تلك الشرطية تعرف الكثير عن القصة التي تشغل باله منذ وقت. الشاب الذي بين يديها الآن هو الابن الوحيد لرجل أدركه الخرَف عندما بلغ السبعين من العمر. يعيش الأب الآن في دار للمسنين لا تبعد كثيراً عن كنيسة نيكولاوس. وهو هُناك يحدث كبّار السن عن ابنه الذي،لولا سوء الأحوال الجوية، لكان الآن طيّاراً ينظر إلى البحار من الأعلى.

انتظر بيرغرين أن تقول الشابة شيئاً فهي المضيفة، ولا بد أنها تريد أن تقول شيئاً أو ربما لا شيء. هو جاهز على أية حال.

في الزيارة الأخيرة كانت الفتاة الماثلة أمامه أنثى على مر الدقائق،

حتى إنه اكتشف، عندما انتصف الليلة، أنها سمكة. لقد تذكرها الآن دفعة واحدة. لكن لماذا عليه الآن أن يتوجس منها، سارر نفسه. فهو الذي يعرف كل الأبواب،أبواب النسوة وأبواب المنازل. جعل عشرات النسوة يتأوهن قائلات: أنا فرسك، أنا سفينتك.هل تريد سيلڤيا، بالفعل، أن تعرف شيئاً عن خيوله التي يسوسها؟ إنه يعيش منذ أكثر من خمسة أعوام وحيداً ويتلقى المعونة من الحكومة، ومؤخراً صار يذهب إلى النساء بحسب الطلب. فشل في الحصول على عمل مستدام لأنه لم يتعلم شيئاً محدداً، فهو لا يملك الصبر ولا المزاج لذلك. وبالرغم من أنه يعتقد إنه يعرف أشياء كثيرة إلا أن أحداً لا يطلبه للعمل إذ هو لا يجيد شيئاً بعينه.

من وقت لآخر عمل بيرغرين في مواقع للبناء لكن ذلك لم يدم طويلاً. بقي يعتقد، على مر الأيام، أنه صُنع لمهمة كبيرة. التقى أمام محطة القطارات بأفراد ربما كانوا يشتركون معه في الاعتقاد نفسه ويشاركونه ذات السيرة. ربما. لقد أطلقوا أنفسهم من الأسر وقرروا العيش على طريقة الغجر. ارتدوا الملابس السوداء في أوقات كثيرة والتحقوا بالمجموعات القوطية التي تتدفق على إيسن في أوقات معينة من السنة ثم عادوا إلى سيرتهم الأولى، مجرد واقفين أمام محطة القطارات. شربوا البيرة ثم كسروا القوارير ليلتا السبت والأحد في الشوارع العامة.شُغفوا، ربما جميعهم، بالروك القوطي والحياة القوطيّة، بطبيعتها البوهيمية وأغانيها التي تمجد الموت والفناء. ومثل غيرهم، من ذوي الملابس السوداء، أنفقوا الجزء الأكبر من وقتهم في الموسيقا، التأمل، القراءة، والسخرية من الوضع الذي

استقر عليه عالم اليوم. عاشوا جميعهم بلا حبيبات، ثم اكتشفوا الطريق إلى مضاجعة النسوة دون الحاجة للركض خلفهن ولا التأنق الزائف أمامهن.

يتذكر بيرغرين ما حدث في السنة الماضية. فقد ضاجع امرأة تبلغ من العمر ٦٥ عاماً، ثم مر وقتٌ قصير واستدعته ابنتها ذات الثلاثة والأربعين عاماً. وقبل أن ينسى صدره العرق الشهي للسيدتين كانت الحفيدة تطلبه وتضاجعه بعنفوان الأم والجدة معاً، ثم تركله إلى الخارج وتصفق الباب خلفه. تيقّن بيرغرين، بحدسه الخاص، أن ذلك كله وقع بمحض الصدفة. لقد أمسك بالبشرية من رأسها إلى أخمص قدميها، قال لنفسه، وصار قادراً عليها. هو القوطي المسكون بهاجس الزوال، تذوق السلالة كلها حتى آخر العنقود، وسارر نفسه مرات: شيء ما كان واحداً في السيدات الثلاث: التضاريس نفسها ورائحة العرق. ووجد نفسه يسلك نفس الطريق في كل مرّة. وعندما ألقى بالفتاة الشابة على بطنها وصعد عليها همس لنفسه: أعرف هذه القرية، أعرفها جيداً، وراح يدفع باب القرية ويمضي.

إننا، فكر برغرين وهو يستعيد حورية كامل، أناس آخرون. وقالت له أغنية قوطية إن الكائن سرعان ما يزول ويتلاشى ليظهر في كائن آخر. كانت رائحة الفتاة باهتة بعض الشيء، وأقوى منها لدى المرأة الأربعينية. لكن الرائحة اكتملت في الجدّة، وأمكن لبرغرين تخيل نفسه وقد أسقطته تلك الرائحة من على ظهر الخيل.

شاهد أمام محطة القطارات، بعد ذلك بوقت، النساء الثلاث. كنّ

يمشين في موكب مهيب وأنيق بحيث بدت كل امرأة على شكل قرية، ولمح كيف أنهن متشابهات وقال لنفسه: رباه. اجتاحه، وهو القوطي الذي يدور حول المجتمعات، إحساس جارف بالرضا عن النفس. لقد منحتُ هذه السلالة الاستقرار، قال لنفسه وهو يرى السعادة العميقة في وجوه نسائه الزائلات. أنارت حورية كامل شيئاً في ضميره، أو شيئاً ظلّ خابياً في خياله. ولنعترف، نيابة عنه، أن حديث السيدة المتشردة اليومي عن العالم والناس أشعل مزيداً من الرغبة الخابية في روحه للمعرفة، تلك الرغبة التي سبق أن ذاقها وهو في ملابسه السوداء يردد أغنية قوطية أو أكثر من أغنية. هو الآن يقترب من الأربعين، وسبق أن قالت له حورية إن رجالاً كثيرين صاروا أنبياء عندما بلغوا تلك السن. وأن آخرين اكتشفوا الحكمة في الأربعين. لكن أغنية قوطية كانت أكثر حسماً، فقد أخبرته أن العالم ينكمش في عيني الرجل ما إن يبلغ الأربعين. وفي أيام حورية الأخيرة، قبل أن تؤخذ إلى السجن، كان قد عرف الطريق إلى القراءة، وعرفه عمّال المكتبة العامة في إيسن.

«أسوس النساء» أجابها بيرغرين، وانتظر أن تقول سيلفيا شيئاً.

«كما تعرفين»

أضاف.

ثم وضع الكأس بين شفتيه وتذوق نبيذ الأودرورير مرّة أخرى.

في تلك اللحظة كانت السماء في الخارج قد أصبحت شديدة البرودة،

وعضّ الكلب الذي منحته الراهبة اسم جنرال عنق الكلبة التي حملت اسم قديسة، فانطلقت الكلبة إلى موقف الحافلات ورفعت ساعديها الأماميين وتمكنت من دس أنفها في صندوق مفتوح من الأعلى.

«وإلى أي مرعى تأخذ النساء؟» سألته الشرطية الشابة.

«لكل امرأة مرعى» قال الرجل.

«لا بد وأنك تذهب كثيراً إلى المراعي» قالت سيلڤيا وهي تعدّ أزرار قميصه.

ابتسم الرجل ثم ألقى بعينيه على شفتيها فضربته قشعرية في مؤخرة عنقه. قال، وهو يختنق بلعابه:

الإله وحده يعلم إلى أين ستسوقنا هذه الأيام.

غيّرت سيلڤيا طبيعة الحديث وسألت الضيف بلا مقدمات:

«قلتَ لي من قبل إنك كنت مع أصدقائك في ميدان الراين عندما هبّت العاصفة. منذ ذلك اليوم وأنا أفكّر بالأمر. ما الذي دفعكم للخروج في العاصفة؟»

«لا أتذكر أين توقف حديثنا، ولست أدري هل أخبرتك شيئاً عن رحلة كارستن نيبور إلى العربية السعيدة؟» أجاب بيرغرين.

قالت سيلڤيا:

«قلت الكثير عن الرحلة وعن كارستن نيبور»

وقال هو، وقد أحس بها أقرب من أي وقت مضى:

«حسناً، جيد. تلك رحلة، كما قلتُ لك، حدثت قبل قرنين ونصف من الزمان وكنتُ فيها سائس خيول وحامل متاع. تنقلّنا عبر أكثر من سفينة. دخلنا الموانئ التركية على سفينة حربية، ووصلنا مصر على ظهر سفينة تركية، ودخلنا سواحل الحجاز في سفينة مصرية. بعد عامين من التيه في البحر ألقتنا سفينة بُن عمانية في ميناء اللّحَيّة، في العربية السعيدة. في البحر وفي الشواطئ، ولا بد أن نعرف ذلك، انشغل كل شخص بما لديه من مهمة. نيبور كان يرسم الخرائط، باورنفايند يرسم السفن،كريمر يتوغل في المدن الساحلية ليشتري الأشياء التي يحتاجها كطبيب ثم يعود بها إلى السفينة ويدرسها،وفورسكال يقيس ملح البحار،ويجمع الأعشاب والنباتات ويصنفها. أما الفيلسوف فون هاڤن فكان يحول كل ذلك إلى معنى. البدين بيرغرين، أعني الجسد الذي عشتُ بداخله قبل قرنين ونصف، لم ير خيولاً في البحر. إلى أن وصلنا الأراضي المصرية. من هناك مشينا في البر مع قافلة حجاج ذاهبة إلى مكّة إلى أن دخلنا مدينة السويس. كانت القافلة خليطاً من الأتراك والأفارقة والعرب، وكان البحّارة الأتراك الذين أقلونا على سفينتهم من اسطنبول إلى مصر قد نصحونا بترك مسافة بيننا وبين العرب. كانت قافلة عظيمة أشبه بسوق راحلة. أصوات العرب كانت عالية طول الرحلة، وكان هناك باعة متجولون ولم يكن بيننا من شخص يعرف العربية سوى فون هاڤن. وضعنا حقائبنا على جمل اشتريناه من مصر.

بعد مضي أيام وصلت قافلتنا إلى ميناء السويس. بحثنا عن سفينة

مناسبة.كانت هناك سفينة راسية مقسومة إلى طابقين. تمكن عرب وأتراك من الوصول إلى السفينة قبلنا دافعين خيولهم إلى الطابق الأسفل. همس فون هاڤن في أذن رجل يقف على باب السفينة ودس شيئاً في يده. كانت النتيجة أننا حصلنا على غرفة كبيرة إلى جوار حجرة الحريم في مؤخرة السفينة. كانت سفينة ضخمة، لا يوجد على جوانبها ولا على ظهرها من أثر لقذائف المدفعية كما رأينا على سفن الأوروبيين.سألت فون هاڤن عن سبب ذلك فقال إن بحار العرب آمنة. ولأن لغتهم واحدة فهم قادرون على التواصل مع بعضهم دون الحاجة للمدفعية على عكس ما يجري في بحار الشمال. وأشار فون هاڤن إلى مجموعة مختلطة من العرب والأتراك وقال لنا: إذا رأيت إنجليزياً وفرنسياً يقفان معاً على ظهر السفينة ذاتها فأحدهما أسير حرب.

قطعت السفينة المصرية البحر إلى جدّة خلال أيام،رغم الرياح التي تحدث عنها كارستن نيبور ولم يشعر بها سواه. على ظهر السفينة لم نتحدث سوى مع الأتراك، أما العرب فلم يقتربوا منّا. وفي ليلة سمعنا ضوضاء في حجرة الحريم فجاء القائد وطرق الباب ثم صرخ بكلمات عالية فتوقفنَ عن الشجار. اكتشف كارستن نيبور شقّاً في الجدار الذي يفصلنا عن حجرة الحريم وكنا نختلس النظر إليهن. كنّا جميلات ورشيقات. شعرنَ بالارتياح عندما عرفنَ أنا أوروبيون واستطعنا أن نبادلهن أحاديث ببضع الكلمات العربية التي نعرفها،وفهمنا كلامهن. لا يحتاج الرجل إلى لغة ليعرف ما تريد المرأة قوله. إذا أنصت إليها جيداً فسيفهم ما تقوله. فالمرأة

توحي بكل شيء عندما تتحدث. قالت امرأة اسمها فاطمة إنهن جواري سيجري بيعهن في موسم الحج، وسألتنا إذا كنا نرغب في شراء بعضهن والعودة بهنّ إلى أوروبا. دخلت الفكرة في رؤوسنا، في كل رأس، وفي رأسي أنا أكثر من أي شخص آخر. فقد كنت عاطلاً على ظهر السفينة بخلاف الآخرين. قلت لنيبور: دعنا نشتر ست نساء. لكنه رفض الفكرة، ثم عاد وطرحها للنقاش في مساء اليوم الثاني.كانت الفكرة مثيرة، لكن فون هافن تخوف منها وقال إنها قد تثير حساسية العرب. فهنّ وإن كنّ جواري إلا أنهن مسلمات في آخر المطاف، ونحن مسيحيون. طرح كريمر فكرة وقال: لنشترِ من الأتراك، واتفقنا على تدبر هذا الأمر.في الليل سألنا رجلاً يبيع الشاي على ظهر السفينة فقال إن جواري الأتراك غاليات الثمن. طلب منه فون هافن أن يسأل عن الثمن فعاد الرجل بعد وقت قصير وقال إنه تحدث إلى حاج تركي أبدى استعداده لبيع جارية واحدة لقاء مبلغ من المال وهدية أوروبية. قال نيبور، بعد انصراف الرجل، إن ميزانيتنا لا تسمح بشراء أكثر من جارية، ولا نعلم ما الذي ينتظرنا. وافقه فورسكال وقال إننا لم نصل العربية السعيدة بعد، وسنرتكب خطأً جسيماً إذا نحن دخلنا الأراضي العربية بصحبة نساء مسلمات.

اكتشفت النسوة أننا كنا نراقبهن وصرنَ يأتين إلينا فنعطيهن بعض السكاكر الأوروبية. لم أصدق حكاية أنهن نساء للبيع إلا عندما استرقت النظر من الشق في ليلة، ورأيت امرأتين متقابلتين تدهن كل منهما صدر الأخرى» كان يستخدم يديه وهو يتحدث».

كانتا امرأتين جميلتين، واستطعت ملاحظة أن جسديهما شهيان أكثر من جميلين. بقيت أتأمل، وقدماي ترتجفان. فلو عثر عليّ العرب لقذفوني في البحر. فالعرب يؤمنون بالخلود، ويعتقدون أنه يبدأ من فرج المرأة. الرجل الذي يستطيع أن يحتكر فرج امرأة له فقط دون سائر الناس يموت وهو يشعر بالسعادة، وبمقدوره أن يهزأ من الموت. ذلك أن أولاده الذين جاؤوا من ذلك الطريق هم أولاده فقط، وما من احتمال أن يكون أير رجل آخر قد ساهم في إنجابهم.يخلد الرجل في ذريته، وتخلد الذرية في الذرية التي ستنجبها. لكن تلك الطمأنينة، طمأنينة لحظة الموت، لا ينبغي أن يخالطها الشك. فهي مسألة تتعلق بالخلود. إذا مات العربي وهو يشك في وفاء امرأته، أو جاريته، فإنه يموت مختنقاً. أما روحه فلن تصعد إلى السماء بل تهوي في وادي سحيق»

التقط بيرغرين الأنفاس، ثم قال محاولاً الاسترسال في حديثه:

«عندما شرح لنا فون هاقن هذه المسألة دارت بي السفينة وكدتُ أسقط»

غير أن سيلڤيا قاطعته وهي تضحك:

«أنا أيضاً أصابني حديثك بالدوار.لكن ألم تكتشف أشياء أخرى على ظهر السفن غير حريم الجواري والخلود عند العرب؟»

«بلى» أجاب ضاحكاً.

وأكمل:

«في منتصف الطريق لبس العرب الثياب البيضاء ثم فجأة حلت السكينة عليهم وصارت أخلاقهم أفضل. حتى إنهم جاؤوا إلى حجرتنا وسألونا إذا كان بمقدورنا علاج حصان مريض في الأسفل. ارتبكنا أول الأمر، وطلب نيبور من الطبيب كريمر النزول مع العرب إلى الدور الأسفل حيث الخيول لكنه تلكأ وقال إنه لا يعرف شيئاً عن أمراض الخيول. كان نيبور مصرّاً على أن نفعل شيئاً فنحن ذاهبون إلى أرض العرب وهذا هو أول اتصال بهم، ولا بد أن نكسب ثقتهم إذ ربما برز منهم رجل ذو شأن قد يكتب لنا رسالة توصية إلى الأراضي التي نحن مزمعون على الذهاب إليها. نزلتُ أنا وعاينت الحصان الصغير. كان نائماً على شقه الأيمن. وضعت قليلاً من السكر في قدر من الماء ثم صببته على رأسه وسقيته من المتبقي في القدر. وضعت الحصان على جنبه، بمساعدة رجلين من العرب، وقمت بتدليك سيقانه وعنقه وغنيت له كما كنا نفعل مع الخيول في الحروب البروسية.

في اليوم الثاني نهض الحصان، فجاء العرب إلى حجرتنا وأعطونا التمر والقهوة. في ذلك اليوم خرجنا واختلطنا بهم، فعرض عليّ أحدهم الدخول في الاسلام، وعرض شيخ كبير على نيبور جارية أفريقية بلا دين.

أمام إصرار الرجل ذي الزي الأبيض قلتُ له إني سأدخل في الإسلام بمجرد أن أضع قدميّ على أرض العربية السعيدة، فسكت برهة. لكنه عاود إصراره متسائلاً عن ما الذي سيحل بي فيما لو جاءت ريح وقلبت السفينة قبل وصولها. ثم توقفنا عن الحديث عندما قلت له، وأنا أضع يدي على كتفه، إن الإله سيتفهم ذلك فهو على اطلاع بنواياي تجاه دينه.

في الواقع كان الواحد منّا يتعلم الجملة التي سيقولها للعرب من فون هاڤن، وكان أحياناً يقف إلى جوار الرجل منا إذا ما رآه يتحدث إلى العرب، ويعمل كوسيط. لما لاح لنا ميناء جدّة جاء العربيّ إليّ واصطحبني إلى جهة من السفينة وأشار إلى سفينة غارقة في البحر، ثم تركني أعاين تلك العبرة.

في اليوم الذي نهض فيه الحصان قالت فاطمة لفون هاڤن إن سيدها اسمه مالك، وهو يملك خمس جوارٍ أخريات، وتوسّلت إليه. سألها فون هاڤن باستهجان: كيف سأعرف سيدك داخل كل هذا الحشد؟ فقالت إن لحيته حمراء. ثم قالت وهي توشك على البكاء: ابحث عنه، أرجوك، وسأصلي لأن تكون لحيته هي اللحية الحمراء الوحيدة على السفينة.

استطيع أن أقول لكِ إننا رأينا عشرات اللحى الحمراء قبل أن تذهب فاطمة للصلاة. في اليوم التالي تعرفنا على الرجل، فون هاڤن وأنا، بيسر. فما من رجل كان يملك لحية حمراء في ذلك النهار سواه. عندما رآنا الرجل هبّ واقفاً وحيانا، حيّاني أنا على نحو خاص، فأنا الذي أنقذ الحصان من الموت. سألنا عن وجهتنا فقلنا: العربية السعيدة. أما هو فقال: أنا ذاهب إلى الحج. قلنا له إننا ذاهبون لجمع الأعشاب والنباتات. وقبل أن يكمل فون هاڤن حديثه قال الرجل: أدري، أدري، أنتم أطباء وفي اليمن ستجدون ضالتكم. حتى النبي سليمان ذهب إلى أرض اليمن للاستشفاء من علّة ضربت ساقيه، وعثر على امرأة في تلك البلاد، امرأة نزعت كل آلامه.

لم أفهم الكثير مما قاله، غير أني لمحت فون هاڤن وهو يتلعثم بالكلام ويغمغم. قام الرجل من مجلسه وقمنا نحن معه. نظر إلى الناس وإلى البحر، ثم عاد وجلس. فجأة قال: سأبيعكم واحدة من الجواري، ولكن إياكم أن

تخبروا أحداً، أنتم نصارى وجوارينا مسلمات. سأبيعكم الجارية البيضاء، وإذا دخلتم اليمن قولوا إنها أوروبية. الجارية اسمُها فاطمة اشتريتها قبل أعوام من سوق في الشام وربيتها معي في طرابلس.لكن حذارِ، فأنتم ذاهبون إلى اليمن، أرض الأمراء الهاشميين.غيروا اسمها قبل أن تضعوا أقداكم على البر، ودربوها على اسمها الجديد، فالهاشميون لن يتسامحوا في أمر كهذا. أعني.. ثم توقف عن الكلام وحك لحيته متحاشياً النظر إلينا: أعني أن تعمل امرأة اسمها فاطمة في خدمة النصارى.

قام ذو اللحية الحمراء وتركنا جالسين، ولم يمض سوى وقت قصير حتى رأينا رجلاً أسود عاري الصدر يتسلق السارية ويؤذن للصلاة. في أوقات الصلاة كنا نختلس النظر إلى حجرة الحريم، أما هذه المرة فقد عدنا إلى غرفتنا وأغلقنا الباب»

توقف بيرغرين فجأة، ونظر إلى السقف، إلى الصور المعلقة على الحائط، إلى باب المنزل، ثم إلى قدمي سيلڤيا وقال:

لا تضيع سفينة عليها فاطمة.

هزت سيلڤيا رأسها مبتسمة وقالت:

«وهل اشتريتم فاطمة قبل أن تنزلوا من السفينة أم بعد ذلك؟»

قال بيرغرين:

«أثناء النزول، عندما كان العرب يتصارخون ويتدافعون. كنا قد اتفقنا مع الحاج مالك على ذلك. خرجت فاطمة من غرفة الحريم وذهبت إلى غرفتنا في مؤخرة السفينة بينما كنا واقفين مع الحاج مالك في الطريق،

بالقرب من باب حجرة الحريم، نتحدث لنصرف الانتباه. أعطينا الرجل المال لكنه أصر على الحصول على ساعة الطبيب كريمر أيضاً. رفض كريمر بادئ الأمر، بيدَ أن نيبور وفون هاڤن نهراه ودفعاه إلى التخلي عن ساعته. ساور كلاً منا اعتقاد عميق بإن فاطمة التي ستلتحق بنا ستكون هي تميمة الحظ. ربما لأن البحار التركي الذي نقلنا من الجزر القبرصية إلى مصر عبر البحر المتوسط كان قد قال لنا، مراراً، إن السفن التي تتواجد النساء على ظهرها عادة ما تنجو من مكائد البحر»

«في آخر المطاف ـ قال بيرغرين وهو يمد ساقه اليسرى ويمسح على ركبته ـ فالرجل على ظهر السفينة لا يطمح لأكثر من أمرين: رؤية امرأة، وسماع ذلك الحفيف المفرِح عندما تضرب الرياح جسم الشراع».

توقف الرجل عن الحديث. كأنه فقد رغبته فجأة. أحس بفاطمة تجري في عروقه. هو الآن بمعية فتاة جميلة، لماذا لا يكون اسمها فاطمة؟ وبما إنه ينوي، مع أصحابه، السفر في البحر، فليمنح هذه الفتاة اسم فاطمة، وليصطحبها. لكنه لا يعرف عنها شيئا.هل سبق لأحد من قبله أن ناداها باسم فاطمة؟ هو أيضاً لا يعرف ما إذا كانت البحار في الشمال والجنوب لا تزال خبيثة كما كانت في السابق؟ يستطيع أن يؤكد لنفسه شيئاً واحداً: إذا انطلقوا بحراً، سالكين الطريق نفسه الذي سلكه نيبور وفريقه، فإنهم لن يشاهدوا السفن الحربية في طريقهم. حتى سيلڤيا فقدت رغبتها في مزيد من الكلام. هاهي فاطمة ستدخل العربية السعيدة وهي تحمل اسماً جديداً، ربما سيصبح اسمها سيلڤيا.

«ماذا فعلت فاطمة عندما رأت شواطئ العربية السعيدة؟» سألته سيلڤيا.

أجابها، وهو يضيق حدقتي عينيه كأنه يحاول النظر إلى وادٍ بعيد:

«كان ذلك قبل الغروب، وكانت فاطمة في حجرتها الصغيرة. طرقت باب حجرتها فخرجت وقد غطت رأسها. اصطحبتها إلى مقدمة السفينة ومدّ إليها نيبور بمنظاره الذي يدرس به النجوم. عندما نظرت فاطمة إلى المنازل رأتها مقلوبة، رأت كل شيء مقلوباً، فسقط المنظار من يدها، وصرخت يا ألله!»

تركتهم فاطمة وعادت إلى غرفتها وهي لا تفهم شيئاً. كان شفتاها يرتجفان، وكانوا يضحكون. على بعد أقل من نصف ميل بحري توقفت السفينة وذهب قائد السفينة مع رجل من فريق نيبور إلى البرّ. استقبلهم عسكر صاحب الدولة وأخذوهم إلى داره في وسط مدينة اللحيّة. كانت المدينة معتادة على رؤية الأوروبيين الذين يقدمون، في العادة، لشراء البن. سمح لهم صاحب الدولة، وكان زنجيّاً، بالنزول وعرض عليهم منزلاً وحرساً. عندما عاد القائد إلى السفينة كان قد مضى الكثير من الليل. جاء رجالٌ، بأمر من صاحب الدولة، وساعدوا الأوروبيين في حمل المتاع. وفي بيت من الطين متعدد الغرف بالقرب من دار صاحب الدولة نزل الأوروبيون وفتحوا حقائبهم.

قالت سيلڤيا: ربما لأول مرة بعد رحلة استمرت شهوراً؟

قال بيرغرين: استمرت زهاء عامين.

أضاف متحسراً:

«عامان ونحن البحر، بلا خيول. فتحنا الحقائب وأغلقناها عشرات المرّات على ظهور السفن. الحقيبة تصبح شيئاً آخر على اليابسة يا فاطمة»

وضحكت هي أولاً، وضحك هو ثانياً.فلم يكن بيرغرين بالرجل الأول الذي يمنحها ذلك الاسم.

تثاءب بيرغرين، بعد ضحكته الطويلة، ولمحته سيلڤيا وابتسمت مجدداً. طلبت منه أن يتوقف عن الكلام وأن يذهب إلى النوم. لم يفهم ما تريد قوله أول الأمر، لكنه عندما رآها تفتح باب منزلها وتقدم له معطفه فهم كل شيء.

«كان هذا كل شيء؟» سألها وهو يودعها

«لكل امرأة مرعى» ردت عليه مبتسمة.

نظر إليها، إلى قدميه، ثم إلى عينيها مباشرة. حرّك كتفيه ومط شفتيه فقالت هي:

«ليلة سعيدة، وأغلقت الباب»

كانت تمطر في الخارج، وأدرك الرجل أنه لم يصطحب معه مظلّة. ركض في الشارع حتى وصل إلى محطة الترام على بعد أقل من نصف كيلو متراً. جلس على كرسي في مؤخرة الترام وأغلق عينيه وغمغم «ليلة سعيدة يا فاطمة، يا حارسة البحار».

الضفادع

غادرت سيلڤيا منزلها قبل السابعة صباحاً ببضعة دقائق. يبدأ عملها، هذا الأسبوع، من الساعة الرابعة عصراً وحتى منتصف الليل. تبدّل مناوباتها بشكل دوري هو أكثر ما كان أرهقها في الأشهر الأولى لدخولها عالم الشرطة. مع الأيام اعتادت على ذلك النظام الديناميكي إلى حد بعيد قبل أن تعثر على ما يمكن اعتباره الحرية الكامنة في نظام العبودية، كما يجادلها الضابط المسؤول عن توزيع المناوبات. هذا الأسبوع ستتمكن سيلڤيا من قضاء النهار حرة، وسيكون بمقدورها إنجاز أشياء مهمة دون أن تضطر للحصول على إذن مسبق. إنها حرّة لبضع ساعات في النهار، وستختبر حرّيتها.

أخبروها البارحة، تلفونياً، أن سجن مدينة إيسن يتيح الزيارات الفردية يومي الثلاثاء والخميس بدءًا من الثامنة والنصف صباحاً وحتى الواحدة ظهراً. لا يفتح السجن أبوابه لأي زيارة يومي الجمعة والأحد. أما السبت

فهو يوم للزيارات الجماعية. في طريقها شاهدت أطفال المدارس وهم يتحركون في الظلام. كانت قادرة على رؤية الأشرطة الفوسفورية على نعالهم من مسافة عشرات الأمتار. مرت سيلڤيا بدراجتها بالقرب من محطة القطارات. إنها ساعة الذروة، العمال والطلبة يركضون تجاه بوابة المحطة. صوت صليل الآلات يأتي من كل مكان، القطارات والأتوبيسات تمر في فترات قصيرة. توقفت لبرهة، هناك خارطة إشارات مرورية على الجهة المقابلة لبوابة محطة القطارات الرئيسية. وهي تحاول اجتياز أربعة خطوط متوازية كادت تصطدم برجل هندي يحمل على رأسه صينية كبيرة تفوح منها رائحة الكمّون. وهي تمرق خلال المدينة كانت الأبواب، أبواب كل شيء، تفتح ببطء، والبشر يركضون.واصلت طريقها على غير هُدى،فلا يزال لديها الكثير من الوقت. وهي تعبر من شارع إلى آخر كان الظلام يخفّ، ثم لاحظت أنه لم يتبق منه سوى القليل عندما اقتربت من مستشفى الجامعة.كانت تضع سماعات صغيرة على أذنيها وتستمع إلى راديو إيسّن. كادت تسقط حين مالت بصورة حادة إلى شارع صغير غير آبهة بالأرض الرطبة، أرض الخريف. في تلك اللحظات كانت دوريس داي تغني:

«منذ ذهبت بعيداً صارت الأيام أطول،

أستمعُ الآن إلى أغنية قديمة

بينما تتساقط أوراق الخريف

فيفوق حنيني إليك حنيني إلى أي شي آخر»

نزلت سيلڤيا وأمسكت بدراجتها ومشت إلى جوارها. عبرت، بالطريقة تلك، شارعاً صغيراً تغطيه بصورة شبه كاملة أوراق الخريف الصفراء واليابسة. على الناصية المقابلة للمدخل الرئيسي لمستشفى الجامعة جلست إلى مقهى وطلبت قهوة أميركية وقطعة كرواسون بالزبدة. راحت تأكل ببطء وتلقي بنظرها إلى بوابة المستشفى، وأحياناً تأخذها الإعلانات العلمية على لوحة إليكترونية كبيرة أمام البوابة. «السمنة، مرض الحضارة. ندوة علمية يوم السبت، وحدة الأمراض الباطنية». كانت تقرأ هذه الجملة عندما قالت مذيعة شابة على قناة ڤي دي إر ٤: «الآن سنستمع إلى أغنيتين من ألبوم «قهوة سوداء» لمغنية الچاز الشهيرة بيغي ليي. صدر الألبوم سنة ١٩٥٣ وحقق مبيعات عالية. أترككم الآن مع أغنية: دادي هو من يملك قلبي».

ابتسمت سيلڤيا أمام نفسها، وبقيت عيناها مثبتتين على اللوحة الإليكترونية. في تلك الأثناء كانت شابة محجّبة تدفع عربة. كانت المرأة تقترب من البوابة وهي تسوق عربة يجلس عليها رجلٌ بدا من بعيد أنه كبير في السن. أمّا العازفة بيغي ليي فرفعت صوتها:

«أبي هو من يملك قلبي،

فاحذر أن تعبث معي أيها الصبي،

لست فتاة سيئة،

فقلبي يملكه أبي،

تبدو صبياً رائعاً،

لكن قلبي لأبي،

أبي يعاملني ببساطة بشكل أفضل»

لاحظت سيلڤيا أن المرأة المحجبة قد توقفت لوهلة، نظرت إلى الخلف منها، كانت توزع بصرها يمنة ويسرة كأنها تدلف إلى مغارة. ثم دفعت العربة ببطء إلى الأمام، وخمنت سيلڤيا أن الرجل ربما كان والدها. كانت سيلڤيا تستمع، شاردة، إلى الأغنية التي انتهت عندما أرادت سيلڤيا أن تستعيد تركيزها. عادت المذيعة مرة أخرى، وقالت:

«باقون مع بيغي، مع ألبومها قهوة سوداء، وإليكم أغنية: حينها لم أعرف كم كانت الساعة»

نظرت سيلڤيا في ساعتها، كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة ببضعة دقائق.

في الأثناء تلك كان أحد موظفي السجن يفتح باب الغرفة ٣٢٠ في الكوريدور المخصص للنساء، في الدور الأرضي.قامت سيلڤيا وسلكت طريق السجن، وهي تعلم جيداً مكانه وتفاصيله، وحتى تاريخه. في سنتها الدراسية الأولى ألمّت بتاريخ السجون في شمال الراين، ثم استكملت المادة في السيمستر الأول من السنة الثانية. ها هي سيلڤيا تنطلق بدراجتها، فقد خفت حركة السير في الشوارع، إنها الثامنة وكل ألماني كان يركض قبل ساعة لا بد وأنه يجلس الآن في مكان ما. استمعت إلى بيغي وهي تصعد في الأغنية ببطء:

عندما كنت شابة، أمس تقريباً،

رقصت مع چيم وباول،

وقبّلت شخصاً ثالثاً.

عندما كنت شابة لم أكن أبداً ساذجة،

فقد كنت أعتقد أني أخبئ الكثير من الحيل في أكمامي

أما الآن فأنا أدرك تماماً

كم كنتُ ساذجة عندما كانت شابة.

استمرّت بيغي ليي في الغناء لكن سيلڤيا لم تعد تعرها أي اهتمام. إذ كل ما كانت تريده في تلك اللحظة هو مجرد صوت يوشوشها، بلا وضوح، ويشوش عليها لبعض الوقت.

بعد أقل من ساعة التقت المرأتان، سيلڤيا وحورية، في مكان مفتوح على طاولة جوار ملعب صغير. كانت حورية كامل ترتدي بنطالاً أبيض بخطوط سوداء رفيعة وطولية وتي شيرت بنفسجي وتضع شالاً صغيراً على عنقها. بدت جميلة على نحو يصعب تصديقه.

«هل تسمحين لي بالتدخين؟» سألت حورية الفتاة التي قدمت لزيارتها.

«بالطبع، إذا كان مسموحاً به»

«في هذا المكان نعم. تفضلي»

والتقطت سيلڤيا سيجارة رفيعة فأشعلتها حورية بقداحتها.

«أنت لا تعرفينني، لكني أعرفك جيداً. سمعتُ الكثير عنك من أصدقائك»

قالت سيلڤيا وهي تتأمل ملامح المرأة الجميلة التي تدخن أمامها. ضيقت المرأة عينيها كما لو كانت تحاول رؤية شيء بعيد ولم تتفوه بكلمة، ثم عادت ومنحت الضيفة ابتسامة أضاءت لها جزءاً من الطريق. لاذت سيلڤيا إلى الصمت قبل أن تقول:

«حدثني توبياس عنك كثيراً، هل تتذكرينه؟»

«أنت تعرفين توبياس.» سألتها حورية وهي تطلق الدخان أعلى كتفها اليسرى بطريقة أنيقة لا يمكن القول إنها كانت وقحة أو غير مكترثة. سيلڤيا أيضاً كانت تطلق سحابات خفيفة من الدخان.

«تعرّفت عليه مؤخراً» قالت سيلڤيا.

«كان توبياس ولداً جيّداً» قالت الألبانية.

بدا أن هذا الحوار سيكون الأصعب. فهي تجلس الآن إلى امرأة لا تعرف عنها شيئاً، تقريباً. تتحدث إلى امرأة مثلها وهذا فعل في حد ذاته شاق. فإذا نزلت الريبة بين امرأتين تفقد اللغة معانيها المعتادة ويصبح لكل كلمة ظلال، وتحت كل ظلال حرب باردة.في العادة، ولا توجد استثناءات، فإن الرجل يخسر نصف تركيزه لمجرد أن تمص امرأة شفتها السفلى عن طريق الخطأ. أما إذا انحنت قليلاً إلى الأمام وحكت تلك المساحة التي بلا اسم بين منتصف الخصر والفقرات السفلى المهجورة

فإن الرجل يضل طريقه لأيام. لكن حورية امرأة مثلها، امرأة تنتمي إلى النوع نفسه وإلى تلك الدرجة الدائمة من الضعف الجبّار. تحت عيني حورية رأت سيلڤيا خطين باهتين،كأنهما حيرة أو أرق. لم تكن شفتي المرأة صافيتين، فقد لاحظت سيلڤيا سواداً خفيفاً عليهما، ربما كان مزيجاً من الدخان ومن أحمر شفاه يعود إلى الليلة الماضية.

«أخبريني، ما الذي دفعك إلى زيارتي؟»

ارتبكت سيلڤيا. تعلمت في مدرسة الشرطة: اجر الحوار في رأسك دائماً ولا تستعجل الوصول إلى نهايته. لا تخض حواراً لم تجره من قبل في رأسك.

«أريد أن أكون صديقة لك»

«تريدين أن تكوني صديقة لمتشردة تبيع الهروين»

«بل لعازفة وخبيرة روحية»

«خبيرة روحية؟»

«نعم. امرأة تقرأ القرآن وتعرف الكثير عن الإنجيل وتدري كيف سينتهي العالم»

«كل هذا سمعته من توبياس؟»

«سمعته من توبياس، ومن بعض الرجال الذين كانوا يتعلمون منك»

«ممم. لم تكن لغتي الألمانية جيدة في تلك الأيام. توبياس لم يكن يشترك في الحوارات. كان يكتفي بالاستماع. كان شارداً، لكنه كان ولداً

شديد الطيبـــة. لا أزال أديـن له بخمسة وثلاثين يورو منذ كان يعمل في الكشك»

«لا يزال هو نفسه ذلك الولد الطيب. ربما الشيء الجديد الذي طرأ عليه هو أنه صار يعتقد أن اسمه فريدريش فون هافن»

«حبيبي توبياس» قالت حورية كامل بصدر منشرح.

أحست سيلڤيا بالدم الخارج من قلبها يتجمع في الشريان الأبهر ثم يقفز دفعة واحدة إلى رأسها.

«ثمة فيلسوف يحمل الاسم نفسه كما فهمت منه عاش قبل قرنين ونصف من الزمان، وهو يعتقد الآن أن روح الفيلسوف حلّت في جسده» قالت سيلڤيا.

قامت حورية كامل من مكانها وعادت بعد برهة وهي تحمل في يدها كوباً من القهوة في كاسة بيضاء مخططة بالوردي. استوت جالسة وأخذت رشفة من القهوة، ثم حركت رأسها ولم تقل شيئاً. بعد رشفة أخرى قالت للضيفة:

«هل تعرفتِ على كارستن نيبور؟»

«سمعت عنه من توبياس، وفيما بعد رأيته أكثر من مرّة يمر في المدينة عند الغسق وبيده آلة التسجيل»

«سيأتي كارستن نيبور لزيارتي يوم السبت القادم»

«السبت القادم؟ فهمتُ أنه يوم مخصص للزيارات الجماعية لا الفردية»

«قال إنه سيحضر معه بعض أصدقائه»

«فهمتُ من توبياس شيئاً عن رحلة بحرية ينوي وهو وجماعته القيام بها. كان مؤمناً بالرحلة حتى إنه قال لي إنه سيموت خلالها ولن ينجو سوى واحد. أعتقد أنه قال: سينجو فقط كارستن نيبور»

«هذه قصة طويلة. ولكن ما الذي دفع توبياس لإخبارك بمثل هذه القصة؟»

«التقيته في المدرسة الشعبية بوسط المدينة، كان يحضر دروساً في اللغة العربية وكنتُ أحضر درساً في اللغة اللاتينية»

لم يبدُ على حورية أنها تشك فيما سمعته. استعادت الشرطية لياقتها وسألت:

«هل يزورك كارستن نيبور بانتظام؟»

«يزورني بانتظام، نعم. نتحدث طويلاً. هو الآن ينتظر خروجي من السجن لنقوم بالرحلة التي سمعتِ عنها من توبياس. كنتُ أنا صاحبة الفكرة يوماً ما. يؤمن كارستن نيبور أنه كارستن نيبور الذي خرج في رحلة علمية سنة 1761 بأمر من ملك الدنمرك. كارستن نيبور ذاك مات رفاقه في أرض العربية السعيدة، قتلتهم الملاريا والجن وشوك الجبال، ونجا هو. نجا، كما يقول في كتبه، بسبب امرأة اسمها فاطمة تعرف عليها على ظهر سفينة. كانت المرأة الوحيدة التي تُشفي من الملاريا. يعتقد كارستن نيبور أني سأشفيه من الملاريا إذا خرجت معهم. أنا أيضاً أريد الخروج معهم، لا لأشفيهم من الملاريا بل لسبب آخر»

توقفت حورية عن الحديث ثم ضحكت بوقار ضحكة امرأة تستبعد تصديق حديثها.

لكنها مضت قائلة، وقد آنست للضيفة:

«كانت العربية السعيدة أرضاً يحكمها رجل من أسرة النبي محمد اسمه المهدي اسماعيل، وكان يملك قصوراً في الجبال وقصوراً في الصحراء، وأخرى في الطريق إلى البحر. عندما وصلت سفينة كارستن نيبور إلى الساحل أخذهم حرس البحر وذهبوا بهم إلى قصر صاحب الدولة، وهو غير الملك. كانوا ستة علماء، وكان كل فرد متخصصاً في شيء. كارستن نيبور كان يعرف الرياضيات ويرسم الخرائط، لذا فقد اختاره ملك الدنمرك رئيساً للفريق. فالملك فريدريك كان يريد صورة عن العالم القديم. لا أدري لماذا كان يصرّ على الحصول الخرائط، لكن أغلب الظن أنه كان سقيماً وكان يريد السفر للاستشفاء في مكان بالقرب من أرض الظلام الدامس أو امرأة من هناك. قرأت ما كتبه كارستن نيبور هُنا، استطعت أن أحصل على كتابه بعد أن تحسنت علاقتي بموظفي السجن، أعني بعد أن لاحظوا أني صرتُ مفيدة للسجن. وفي الأشهر الماضية استطعت أن أعيد صياغة جانبٍ من تلك الرحلة»

شجعتها سيلڤيا على المزيد من الكلام. سألتها متى ستغادر السجن فقالت حورية إنها ستغادره خلال وقت قصير. وقالت متفاخرة إن حسن سلوكها في السجن جعل السلطات تعفيها من عامين إضافيين.

وقالت:

«عانيت في بداية الأمر من ضخامة اللغة الألمانية التي كتب بها نيبور كتابه في وصف بلاد العرب. الطريقة التي كتب بها عن موت أصدقائه أصابتني بالحيرة.بقيت لفترة أحلم بأني سافرت مع كارستن نيبور على سفينة حربية وفي كل مرّة كانت السفينة تقترب من اليابسة كان يلقي بجثتي إلى الماء ويغير طريقه. كان نيبور جامداً مثل خرائطه، ولست أدري كيف استطاع أن يفتح خرائط روحه لكل تلك الأسرار.في واحدة من خرائطه رسم العربية السعيدة على شكل سهل ممتد حول سرّة فتاة.إذا تمعّنت في الصورة ستجدينها هي الفتاة فاطمة التي اشتراها من السفينة ولم تقع في حبّه إلا بعد موت صديقه فون هاڤن»

لاحظت حورية أنها لم تقدم القهوة للضيفة، ثم تذكرت الحقيقة التي تعرفها: إذا شربت قهوة في سجن فستعود يوماً إليه.أخذت رشفة من كوبها ودخنت. ألقت ببصرها على وجه ضيفتها وتأملت الطريقة التي نحت بها الخالق زوايا فمها وعينيها. همست لنفسها: كان سعيداً وهو يخلقها، فهذا صنيع نشوان.

قالت سيلڤيا:

«لنتمشّ قليلاً على تلك الأرض الحمراء» وهي تشير إلى ملعب كرة قدم داخل الفناء.

وهما تتحركان جيئة وذهاباً تلقت حورية الكثير من التحايا، ولم يكن خافياً إن سيلڤيا تمشي إلى جوار امرأة مبجّلة على نحو ما.

«هل بالفعل تريدين أن تتعلمي شيئاً عن رحلة كارستن نيبور إلى العربية السعيدة؟» سألتها حورية وهي تبعد بقدمها اليسرى ورقة شجرة.

«لكي أكون معك صريحة: نعم. لم أعد أشعر بالأمن كما كنت في صغري. العاصفة التي حدثت قبل نصف عام أعطتني صورة عن الطريقة التي يمكن أن تنتهي بها حياتنا الجديدة إذا لم نتخذ مزيداً من الحيطة. حينذاك فكّرت مثل الأطفال: الطبيعة غاضبة، الرب غاضب، ونحن كما تعلمين لن نتوقف عن استفزازهما. نحن كبشر فعلنا كل شيء تقريباً. ماذا لو كان الرب يخبئ آلات التعذيب في مكان ما، في الظلام الدامس الذي تتحدثين عنه. تعرفت على راهبة اسمها أورسولا»

رددت حورية الاسم بتمهل وحذر وهي تنظر إلى السور البعيد.

قالت سيلڤيا، وقد خشيت أنها انزلقت إلى كلام لا تريد قوله:

«التقيتها مرّة أو مرّتين في فناء الدير في نيكولاوس»

وقالت حورية وهي تتأمل ظلها على الأرض وتمشي:

«دير نيكولاوس، في طريقك إلى إيسن القديمة»

«بالفعل. حدثتني عن خشيتها من أن يكون الرب في طريقه لإنزال العقاب بحضارتنا كما فعل بالمصريين في السابق. قالت إنها عثرت على ضفدعة ميّتة بالقرب من الكنيسة صباح اليوم التالي للعاصفة. هي تعتقد أن الضفادع ليست علامات جيدة إذا شوهدت أثناء هبوب الرياح»

توقفت حورية عن المشي واستدارت لترى وجه سيلڤيا. سيلڤيا الشهية

ارتبكت، لكنها سيطرت على ارتباكها فهي شرطية في نهاية المطاف. غير أن أياً من مخاوفها لم تقع.

وكامرأة عليمة، ابنة معلم دين في البلقان وقارئة فضولية في السجن تحدثت حورية كامل:

«هذا أمر مخيف بالفعل. كنت أتحدث عن هذا الأمر مع كارستن نيبور وآخرين قبل دخولي السجن. كما هو في العهد القديم هو أيضاً في القرآن. أرسل الرب على المصريين الضفادع والجراد والرياح والظلام الدامس وأشياء أخرى. قرأت العهد القديم ووجدت الرب أنهك المصرين وقتل مواشيهم، ولما لم يعد لدى المصريين من بهائم فإن الرب أحياها من جديد وملأ وجوهها بالدمامل. كان موسى يذهب إلى فرعون في الصباح ويقول له»يقول الرب اطلق شعبي ليعبدوني. وإن كنت تأبى فأنا أضرب جميع تخومك بالضفادع».كان فرعون يحتجز الإسرائيلين كعبيد. الرب يريد للإسرائيلين أن يكونون عبيداً له هو، فتنازع مع فرعون على ذلك الشعب. ولما نزل الظلام الدامس على مصر بقيت بيوت الإسرائيلين فقط مسرجة. لكن الإسرائيلين سرعان ما أصبحت قلوبهم غليظة وقد رأوا مدى المحاباة الذي ذهب فيها الرب لأجلهم. ولم يمض الكثير من الوقت حتى كان الرب قد غضب عليهم أيضاً وألقى بهم في ظلام سيناء الدامس لأعوام طويلة وغزتهم الضفادع»

أخرجت حورية سيجارة أخرى وتراجعت خطوة إلى الوراء ودخنت، ثم قالت:

«تعرفين، هذا ما يجري الآن. جلست سنين أمام محطة القطار. أنا الآن في منتصف الأربعين من عمري» قالت وهي تضع كفها اليسرى في الجيب الخلفية لبنطالها.

أضافت:

«يخرج الناس من بيوتهم بين السادسة والثامنة صباحاً، يخرجون إلى الأرض هكذا ببساطة. ثم فجأة يختفون. أين يذهبون؟ هم يذهبون إلى معتقلاتهم، وهناك يمكثون طيلة النهار تاركين الرب لوحده في الخارج. إذا ناداهم الرب وطلب منهم الخروج لفعل شيء فإنهم لن يتمكنوا من الخروج. لن يسمح لهم أرباب الوظائف بالانشغال بأي مسألة أخرى. أصبح العالم كله سجناً فرعونياً ونحن كلنا شعب إسرائيل. لم يكن الحال كذلك قبل عشرين عاماً.لكنه بعد عشرين سنة سيصبح أسوأ مما هو عليه الآن.وأنا أتأمل وجوه الناس في المساء، وقد عادوا من معتقلاتهم، أرى أناساً مسحوقين ليسو هم الذين رأيتهم صباح اليوم نفسه. يعودون تائهين ومنطفئين. لا أحد يقول لهم، في أماكن عملهم،إنه سيُنزل بهم عذاباً طيلة النهار. لكنهم عندما يلقون بأجسادهم على الأسرّة، عاجزين عن فعل شيء، يدركون أن قوة غير مرئية ظلت تنهال عليهم على امتداد ساعات اليوم. وأنها، مع نهاية اليوم، قد صيّرتهم إلى ما يشبه حنطة فرعون وقد ضربها الجراد. العاصفة الأخيرة داهمت السجن بقوة وكادت تقتلعه. حينها قلتُ لنفسي: إنه موسى، إنه هارون، إنهما يقولان لفرعون: اطلق شعبي وإلا ضربت تخومك بالضفادع والرياح»

ألقت بعقب السيجارة على الأرض وجعلت تدوسه بقدمها، ثم دارت دورة كاملة. ولما التقت عيناها بعيني سيلڤيا ابتسمت قائلة:

«أنت لا تعتقدين أنها هلاوس، أليس كذلك؟»

«حديثك أبعد ما يكون عن الهلاوس. هو فقط مخيف لأنه منطقي» قالت سيلڤيا وهي تتخايلُ جسدها يهوي كأنه عشبٌ من حنطة هالكة.

«ولكن ما العمل إذن؟» سألتها سيلڤيا.

فقالت المرأة العليمة:

«علينا أن نفعل شيئاً ما. إذا لم تكن تملك كلباً فاذهب إلى الاصطياد بقطّة. سنسلك طريق البحر إلى الجنوب، وسنذهب إلى العربية السعيدة. من هناك تأتي الرياح، وهناك يخبئ الله ظلامه الدامس. لا بد أن نفعل ذلك بعد العاصفة القادمة. حاول كارستن نيبور وفريقه فعل الشيء نفسه، أعني معرفة أسرار الرب، لكن الملك فريدريك أثقل كاهلهم بالمهام. فهو كان يريد إنقاذ العالم ومعرفة العالم ويريد منهم أن يبحثوا له عن امرأة جميلة قادرة على شفائه كما حدث للملك داود. وفوق كل هذا قال لهم اذهبوا إلى العربية السعيدة لتفهموا ما جاء في العهد القديم. تعددت المهام فماتوا الواحد تلو الآخر، ولم ينجُ سوى نيبور. وقبل أن يعود إلى موطنه كان الملك قد مات، فقال نيبور لنفسه: فتلكن فاطمة لي. ومكث معها أعواماً وكلما شارف على الموت أعادته فاطمة إلى أن ماتت هي في الطريق فعرف الطريق إلى بلده»

قالت حورية، وعيناها تبرقان.

«وشاخ الملك داود، تقدم في الأيام، وكانوا يدثرونه فلم يدفأ. فقال العبيد سنفتش لسيدنا الملك عن فتاة عذراء فلتقف أمامه ولتكن له حاضنة ولتضطجع في حضنه فيدفأ سيدنا الملك. فطافوا كل تخوم إسرائيل بحثاً عن فتاة جميلة»

سفر الملوك الأول، الإصحاح الأول

موسيقى

اليوم هو السبت، أما الفصل فلا يزال هو الخريف. الرجلان، كارستن نيبور وبيتر فورسكال، يتجهان لزيارة حورية كامل في السجن. يقع السجن في وسط مدينة إيسّن إلى الخلف من مبنى المحكمة،ويطل على مقبرة مهيبة تبدو من بعيد وكأنها جثة. أسوار شاهقة غطيت حوافها العليا بالأسلاك الكهربائية المتشابكة. يعرف الرجلان الطريق إلى السجن جيّداً. قبل ثلاثة أعوام كان فورسكال، الشرطي السابق، نزيلاً في الغرفة ٢١٢، لكنه لم يتحدث قط عن السبب.حدث ذلك بعد استقالته من العمل في الشرطة بوقت قصير. بقي في السجن ما يقرب من ثلاثة أشهُر وأصر على القول،بعد خروجه، إنّ ما جرى كان محض سوء فهم. لم يعلم أحدٌ من أصحابه شيئاً عن ذلك الذي جرى. أما كارستن نيبور فهو زائر دائم. هناك المعلمة حورية وهي تلقنه أشياء كثيرة: الموسيقى، التاريخ،رحلة نيبور، ومعارف أخرى. من المبالغة القول إن كارستن نيبور كان يذهب إلى

السجن ليتعلم وحسب. غير أن الحقيقة التي نعرفها تقول إنه كان يذهب إلى السجن للتعلم. شخصيته المنشطرة على نفسها بين الروك والچاز، العازف والبحّار، الحكيم والتائه بقيت كما هي، وهي أول ما لفت انتباه سيلڤيا.

لنقترب أكثر من غرفة حورية كامل في الدور الأرضي. سرير مرتّب بعناية، حامل كتب، وأرضية خشبية نظيفة. لا يمكن أن تكون مساحة غرفتها أكثر من عشرة أمتار مربّعة. يتصل بالغرفة حمام ضيق بداخله كبسولة زجاجية للاستحمام. تطل نافذة الغرفة على فناء واسع تغطي أرضيته الأحجار الصغيرة. ثمة طاولة عليها اسطوانات موسيقية، وهناك أكوام من الأوراق المرتبة بعناية، وأقلام متناثرة ومتعددة الألوان. إذا اقتربنا أكثر سنبصر أوراقاً مكتوبة باللغة الألبانية والألمانية. ثمة كتاب كبير مفتوح على خريطة تغطي صفحتين كاملتين.يوجد تلفزيون متوسط الحجم في غرفة حورية، يتدلى أعلى منه سلسال فضي يبدو أنها ورثته من الأجداد. لا تملك غرفة حورية أي وسيلة اتصال خارجية ولا إنترنت. أعلى الطاولة يمكنك رؤية صورة مرسومة: رجل يغطي وسطه مئزر خفيف، شعر كثيف يتدلى من فخذيه وساقيه، شعر كثيف يغطي صدره، شعر ينسدل على كتفيه. يضع الرجل قدميه في البحر. على كتفيه يتدلى ساقا امرأة جميلة وهو ممسك بخصرها. الرجل يبتسم ببلاهة والمرأة مبتسمة ولا تنظر إلى شيء. لا وجود لشمس أو قمر في الصورة.

في الطريق إلى السجن سأل نيبور صديقه فورسكال:

«كم امرأة زرت هذا الأسبوع؟»

«سئمتُ كل هذا» قال فورسكال وهو يضع قدميه على الأرض مغادراً الترام 105 في الجهة المقابلة للمحكمة.

واصلا سيرهما صامتين وعندما تراءت لهما أسوار السجن قال نيبور: «أنا أيضاً»

قبل التاسعة ببضعة دقائق كانا يجلسان إلى حورية خارج غرفتها. وضعت المرأة أمامهما كومة أوراق وأعطت كلاً منهما حزمةً منها.

قالت وهي توزع نظرها بين الرجلين:

«التقمص ليس كلاماً، ليس مجرد كلام. إذا لم تنتبه إلى الروح التي تسكنك فلن تتعرف عليها، لن تطلع على حقيقتك وستخسر أسلافك. نحن، كلنا، أناس آخرون لكننا لا نعرف ذلك. نعيش كأننا ولدنا من لاشيء، كما لو أننا ولدنا أنفسنا. تلك هي خطيئتنا الأساسية، نكران الماضي الذي بداخلنا، وتزييف حقيقتنا.لسنا أطفالاً جدداً بل تكراراً لمن سبق. وجدت آية في القرآن تقول إن الإله يطلب من الروح، عند موت صاحبها، العودة إلى الأرض والانتشار في عباده. تحدثنا في هذا الموضوع كثيراً، أعرف»

وأخذت تقرأ بهدوء:

«يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي»

رتّلت حورية الآيات بصوت عذب وخفيض، وهي تبعد سيجارتها عن وجهها، ففهم الرجلان إنها كانت تقرأ من الآية التي تحدثت عنها.

نظرت حورية إلى كارستن نيبور وقالت:

«أنت كارستن نيبور، أنت البحار الذي ضاع في العربية السعيدة وشارف على الموت لكنه نجا على يد امرأة. أنت من رسم الموانئ والبحار، أنت من اكتشف عرب القرن الثامن عشر، ولمس شمس الجنوب بيديه، أنت من اقترب من الظلام الدامس كثيراً»

صمتت هُنا، ثم قالت لنيبور:

«وإن كان الرجل الذي عاين الظلام هو بيترفورسكال بعد صعوده إلى جبل صبر في مدينة اسمها تعِز»

«انظر هُنا» قالت لفورسكال وهي تقلب الأوراق الموضوعة أمام نيبور حتى عثرت على صورة.

وهي تحرك أصبعها على الصورة راحت تشرح:

«هذان عاملان هنديان. وهذا هو ميناء اللّحية، أول موانئ العربية السعيدة التي رست فيها سفينتكم. انظرا جيداً. العاملان الهنديان يطلقان سمكةً في البحر. عندما تقرآن النص الذي لخصته من مذكرات أعضاء الرحلة ستفهمان القصة. هنا اكتشف كارستن نيبور الحقيقة التي لم يكن يبحث عنها. أعني هو وفريقه. ذهب هذان الرجلان الهنديان إلى بائع السمك هذا الذي يقف على القارب ـ وهي تحرك إصبعها على الصورة

ـ وطلبا سمكة كانت لا تزال حيّة، ثم أطلقاها في البحر. لا ينبغي إهدار الأرواح، ولا خلط روح من البحر مع روح من البر، لا يدري أحد لمن تلك الروح التي في السمكة. أغضبت تلك العقيدة بائعَ الأسماك المسلم فطلب منهما في الحال ضعفي سعرها»

أضافت وهي تغوص بعينيها في شعر نيبور المنكوش، وكان قد وضع الكاب على الطاولة:

«التقمص فكرة تستفز العرب. يقولون إنها عقيدة تكرر النساء وتخلط الرجال. هاجر أسلافي من الشام إلى البلقان بعد قتال مرير مع الأتراك. وعندما أدرك أسلافي أن العرب هم من كان يحرّض الأتراك عليهم بسبب عقيدتهم تركوا لهم الأرض وهاجروا»

في طريق العودة كان بيتر فورسكال ينظر من نافذة الترام ويسترجع وجه حورية كامل وهي تخبره بنبرة جامدة:

«أنت لن تعيش كما عاش بيتر فورسكال في الماضي، لكنك ستموت مثله. هكذا تمضي الحياة، وهكذا نحن مسيرون إلى حد ومخيرون إلى حد. ادرس هذه الأوراق جيداً، كما درست الأوراق الأولى. تذكر دائماً أن العرب سينبشون قبرك بحثاً عن الكنز. وأنهم عندما يكتشفون أن لا شيء ثمين في التابوت فسيلقون جثتك في العراء. اليهود هم من سيدفنون جثتك مرّة أخرى بطلب من صاحب الدولة وسيمنحهم التابوت لقاء ذلك. في السنة القادمة ستجف واحدة من السواقي القريبة من قبرك

وستكون جثتك هي السبب. العرب يعتقدون أن جثث المسيحيين تجلب اللعنة على الزرع والماشية»

أطلقت سحابة من الداخل وهي تنظر في عيني فورسكال:

«أظن أنه سيكون علينا أن نغيّر نهايتك وأن نكتب ختاماً يليق بك» قالت حورية وهي تحاول تبديد الوجوم من على وجه صديقها الذي تعرفه جيّداً.

«وهل نستطيع التحكم بتلك النهاية أم أننا فقط سنغيرها على الأوراق؟»

«بالطبع نستطيع»أجابته.

على الجانب الآخر من الترام كان كارستن نيبور يلقي بظهره إلى الكرسي ويتأمل سقف الترام تاركاً لحورية الوقت لترقص في رأسه وتقهقه:

«أما أنت يا نيبور فلن تموت قريباً. ستدفن أصحابك واحداً بعد الآخر. وعندما لن تجد قبراً لجثة السمين سائس الخيول فسوف تلقي به من على ظهر السفينة إلى المحيط. ستطفو الجثة، تطفو، تطفو، تطفو، وستأخذها الأمواج حتى تلقي بها في جوف الظلام الدامس. ستلتهمها ظلمات بحار الجنوب وستنجو أنت يا نيبور. ستنقذك المرأة التي أنقذت يعقوب»

كانت تقهقه، وكان يهز رأسه عبثاً.

ولكن من هو يعقوب الذي أنقذته المرأة؟ التفت نيبور إلى صديقه فورسكال وسأله:

«اسمع يا بيتر، هل تعرف من هو يعقوب الذي أنقذته امرأة؟»

«لا أدري. يمكن أن يكون أي يعقوب وأي امرأة» أجاب بيتر فورسكال الذي كان صدره في تلك الأثناء منقبضاً بعض الشيء.

منذ فترة تعمل حورية كامل على دراسة رحلة نيبور إلى العربية السعيدة. ربما كان دافعها من وراء ذلك رغبتها الدفينة في استعادة رحلة أسلافها و شتاتها. قبل قرنين من الزمان فرّ الجد والجدّة، وأناس آخرون، من جبال الدروز وحطوا رحالهم في البلقان. بقي الكثير من اللغة العربية على لسانها،كانت تغني بها، وتتلو القرآن في أوقات أخرى.لكنها كانت تحب الألبانية أكثر لأنها وجدتها، كما قالت، قريبة من لون شعرها البني الباهت. تعلمت حورية من والدها أن الأرواح دائمة الانتقال، وأن الأجساد أردية سرعان ما تبلى. وهنا في إيسّن، وقد صارت امرأة شريدة، تعلمت من المارة أن كل شيء آيل للزوال حتى اللغة والأغاني. ثم توقفت عن البكاء. في البدء توقفت عن البكاء على زوجها، ثم صار البكاء بالنسبة لها تبديداً للقدرة. كانت تجلس على الأرض وتغني فترى البشر من الأسفل.أول الأمر كانت تضع حجاباً صغيراً يغطي شعرها عدا غرتها، وكانت تتركه ينسحب إلى الخلف حتى يبدو أكثر شعرها، إلى أن تخلت عنه وأصبحت تبيع المخدرات. رأت البشر ينحنون إليها فأبصرت في أعناقهم الهلع وفي عيونهم الشرود. كانوا متشابهين على نحو بالغ القسوة. في البدء كان لكل بشر رائحة. ثم تشابهت الروائح وصارت مع الأيام واحدة.

خطرت فكرة الرحلة إلى الجنوب، بادئ الأمر، على بال فورسكال

الذي كان قادماً للتو من عقوبة قضاها في السجن، وقبل ذلك بوقت قصير كان قد تخلى عن شغله مع الشرطة. تحدث إليها، وباقي المجموعة، وهم يقفون أمام محطة القطار عن رحلة إلى جنوب الأرض أو إلى منتهاها لإبطال غضب الإله.كان يشرح فكرته غاضباً ويشير بقبضته حتى ظنت حورية أن الرجل يريد أن يلكم الإله في معدته. لم تلبث حورية سوى وقت قصير حتى أدخِلت السجن.

وفي السجن استعادتْ الكثير من الأشياء والأفكار، واستعادت أيضاً ما قاله الرجل الذي هجر الشرطة وبقي على اتصال بها وهي في السجن. كان من بين أصدقائها رجلٌ يعرف راهبة، وكانت الراهبة تخشى الظلام الذي سيأتي من الجنوب. عمل ذلك الرجل، كريمر، كحلقة وصل بين المرأتين فهما تؤمنان بالشيء نفسه وبمقدورهما تخصيب المشروع. استخدم كريمر كلمة: تخصيب، وكان يعي ما يقوله.زارتها الراهبة في سجنها. أرادت الراهبة أن تعرف أشياء عن الرياح التي تختبئ في بحار الجنوب، وعن خرائط تلك البحار. وأرادت حورية أن تقتنع أكثر بما يعنيه الظلام الدامس. كانت هناك بالطبع حلقات وصل أخرى بين المرأتين.قالت لها الراهبة قبل أسابيع قليلة من زيارة نيبور الأخيرة: عندما تخرجين يا حورية ستنزلين عندي في الدير.ضحكت البلقانية السجينة على طريقتها ثم قالت لزائرتها:

وإذا جاء الأفارقة؟

أدنت الراهبة فمها من أذن حورية وقالت غامزة:

فليأتِ الأفارقة.

أما صديقحورية الأقرب فكان شاباً تائه الملامح لا يحس بوجود أي عالم خارج صوته وضجيج آلته: كارستن نيبور. كان يمر أمامها، وهي جالسة للغناء، حاملاً آلة الضجيج خاصته يلقي إليها بنظرة أو اثنتين ثم يسلك طريقه. عرفت مواقيت ظهوره فقد كان يأتي مع الغسق. يدخل المدينة من الجهة التي تطلّ على محطة القطار، ثم يدور فيها مرّات ومرات ولا يدركه التعب. صار أزيز آلته جزءًا من ملامح المدينة عند الغسق. مع الأيام استطاعت حورية أن تضبط مواعيد مروره، عودته وتلاشيه في الظلام. وأحياناً كانت تقول لنفسها:سأدخن السيجارة التالية عندما يمرّ المُغني.

شيئاً فشيئاً صار الرجل يتمهل أمامها، وكانت هي ترفع صوتها بالغناء عندما يقترب. شيئاً فشيئاً صار الرجل يخفض صوت آلته وهو يقترب منها. ثم صار صوت غنائها أعلى من صوته. وبعد مضي وقت أصبح يقف أمامها لثوانٍ ويلقي ابتسامة. لكنه لم يضع في سلتها، قط، فلساً واحداً.في الأيام التي جاءت بعد ذلك شوهد كارستن نيبور وهو يجلس بالقرب من المتشردة الألبانية بعد كل دورة. ثم صار للرجل دائرة أصدقاء وسُمع له صوت وخرجت منه كلمات. وعرفت المدينة، آنئذٍ، أن الشاب الذي لا يسأله أحد عن اسمه أصبح يغلق آلته المزعجة لبعض الوقت، ويقف. وأحياناً يجلس. كانت كلماته قليلة، ثم صار يتحدث ويعرف. وعندما اكتشف أن اسمه هو اسم قديم كبُر شيء في داخله. لقد أيقظته الرياح.أما

حورية كامل فكانت تمسك كفه وتضغط عليها عندما يجلس إلى جوارها. تقول دون أن تنظر في وجهه:

«حتى روحك، حتى روحك»

وهكذا اكتشف كارستن نيبور أنه شخص غيره، أنه سواه، فداهمه شعور جارف بأنه أبَديّ وأن روحه لن تفنى وأن الموت دائري.

عندما اقترب الترام من المحطة التي سينزل فيها كارستن نيبور سمع فورسكال يسأله:

«عندي أم عندك؟»

فقال كارستن نيبور:

عندي.

في منزل نيبور جلس الرجلان وقرأ كل منهما الجزء الخاصة به.

ذلك الصباح أخبرتهما حورية كامل أن القصة التي تخص كل منهما صارت مكتملة. قضت وقتاً في دراسة الرحلة،وكان كارستن نيبور يحضر لها الكتب التي تريدها. «كل كتاب يدلني على كتب أخرى» أخبرته ذات مرة. استطاع أن يحصل على ما يريده من المكتبة العامة، وهي بناء زجاجي كبير يقع إلى جوار بلدية المدينة.وأحياناً كان يصور الأجزاء التي تخص تلك الرحلة ويدسها في جريدة، ثم يمضي.

بعد أن زجت السلطات بحورية كامل في السجن زارها نيبور. زارها لأول مرّة بعد مضي ستة أشهر، وجرى بينهما الكثير من الكلام. لم تعترف

له بشيء لا يعلمه، ولم يكشف لها عن شيء خاص. كان كل منهما قد قال للآخر ما استطاع أن يقوله خلال أكثر من عامين وهما جالسان وواقفان. أصبح عمر صداقتهما الآن زهاء خمسة أعوام. في السجن التحقت حورية بمجموعة الصلاة مع مسلمات من تركيا والبلقان وغجريات لبنانيات هجرن بلادهن في زمن الحرب. تركت تلك المجموعة والتحقت بمجموعة الموسيقا.يقسم السجناء إلى مجموعات وظيفية وفنّية بحسب رغباتهم. في البداية فكّرت حورية مليّاً، وأمام إحساسها العنيف بالذنب اختارت أول الأمر الالتحاق بمجموعة الصلاة. بعد مضي وقت هدأ ذلك الإحساس ونشأ في مكانه شعور بالظلم.

«علمتُهم الألحان البلقانية، ألحان الجبال. البلقان هي بلاد الجبال.كنت أغني بألحان هي خليط من التركي والألباني والعربي القديم. سحرتهم الألحان البلقانية والألبانية على وجه الخصوص. صرت أغني كل يوم في قاعة صغيرة ثم صرت مسؤولة عن المجموعة كلها وأشرف على مكتبة الاسطوانات الموسيقية.موسيقا بلدي هي خليط من موسيقا كل الغزاة الذين نشطوا في الجنوب من أسبانيا إلى تركيا. في القاعة المخصصة للموسيقى توجد آلات كثيرة تدربت على الكثير منها. عثرتُ على آلة عزف ألبانية كان جدي يعزف عليها في ليالي الأعياد اسمها: سيفتيليا. فهمت المعنى المأساوي لتلك الآلة هنا في السجن.فهي تشبه العود التركي لكنها صغيرة الحجم ولا يمكن أن تصدر لحناً تركياً. لا تتجاوز مساحتها كفّين، ولها عنق طويل. لم يترك الغزاة من شيء كامل في أرضنا»

كانت تحدث نيبور عندما يأتي.

ثم فتحت أمامه عالم الموسيقى المترامي فأوغل في طريق الچاز. وهي أحبّت الچاز في السجن، كانت ألحانه تذكرها بالآلام الأرضية وكفاحات الشعوب. وكانت تدل نيبور على الأشياء التي يجدر به الاستماع إليها. ثم أصبح عليماً بموسيقى الأراضي الأميركية وغدا بمقدوره مشاركتها الحديث حول الأغاني واستطاع مع الأيام إبهارها.

استطاعت حورية كامل أن تقنع إدارة السجن بالسماح لكارستن نيبور بالغناء مرّة في الأسبوع مع المجموعة. وصار يأتي كل أربعاء مع الخامسة مساء في الوقت المخصص للزيارات الجماعية، ويغني.

وفي يوم أربعاء، قبل أن تحدث العاصفة بعام، اتفق الاثنان، حورية وكارستن، على الكثير من تفاصيل تلك الرحلة. في أسرارها كانت تفكّر بمحاكاة تغريبة أسلافها، وفي قرارة روحه كان يرغب في وضع حدّ للخوف في العالم.

التقت المجموعة، مجموعة كارستن نيبور التي تقف منذ زمن بعيد أمام المحطة، بالراهبة أورسولا لأول مرّة في القبو الخاص بدير الكنيسة. وهو طابق تحت الأرض متعرج، يمكن النزول إليه من داخل الدير أو من باب خارجي يطل على المقبرة من الجهة التي تغطيها الأشجار بشكل كامل وكثيف. يحتوي القبو على أشياء عتيقة يعود عمر بعضها لأكثر من قرن.عرض كريمر، صديق أورسولا القديم، على الراهبة تلك الفكرة،

فترددت بادئ الأمر. في زيارته القادمة أبلغته بموافقتها «لتكن الزيارة يوم الأحد» قالت. ثم بعد تفكير قصير منحته الموافقة الكاملة:

«تعالَ مع أصدقائك وليضع كل منكم ورداً على قبر ويجلس إليه هنيهة. ثم سيكون بمقدوركم الصعود واحداً تلو الآخر إلى قبو الدير من الجهة الغربية»

قال كريمر للراهبة:

«لا أظن أنّ لأيٍّ منا قريباً في تلك المقبرة»

فنهرته الراهبة بصوت خفيض أقرب إلى الغمغمة:

«ليختر كل منكم قبراً، وليضع الورد»

اختار نيبور قبراً كُتب عليه:

أنا الموت والنشور،

من يؤمن بي فسوف يعيش بعد موته.

واختار كريمر قبراً كُتب عليه:

هنا يعيش، يتصارع، يحب، وينام الزوجان كونال.

اختار فورسكال قبراً كُتب عليه:

أنا السيدة روزڤيتا فرايتاغ، ماضية إلى الرب.

واختار بيرغرين، سائس الخيول، قبراًكتب عليه:

هنا يرقد الجندي راينر الذي دافع عن أرضه و آلمته شجاعته.

واختار فون هاڤن قبراً كتب عليه:

لو منحت لي فرصة أخرى سأكتب قصيدة وأغير بها الدنيا.

واختار باورنفايند، الرسام، قبراً وجد مكتوباً عليه:

كنتُ فناناً يرسم البحار، وأنا الآن ذاهب لأجهّز لكم مكاناً.

وضعوا الورود على المقابر وتسللوا إلى القبو واحداً تلو الآخر. وهناك جلسوا على كراسٍ قديمة على جانبي الممر الرئيسي للقبو، بينما جلست أورسولا في الواجهة.

يحفر الألمان تلك المخازن تحت الأرض ثم يبنون فوقها منازلهم وكنائسهم. وهم يفعلون ذلك منذ أزمنة طويلة ويستخدمونها لحفظ الطعام والأخشاب.وفي الحروب التي استخدمت فيها المدفعية حول الألمان تلك المخازن إلى خنادق ومخابئ للذخيرة. وبعد أن انقضى عام على الحرب العالمية الثانية صارت الطائرات الإنجليزية تحلّق فوق الأراضي الألمانية في أسراب يصل عددها أحياناً إلى ألف طائرة. هناك هرب الألمان، لأول مرة، إلى مخازنهم التي آلت إلى ملاجئ. في دير كنيسة نيكولاوس، في قبو الدير، اختبأ سكان إيسّن. لم تكن كل المنازل المحيطة بها تملك مخازن تحت الأرض. كانت مقاتلات الحلفاء تتحاشى مهاجمة الكنائس وذلك أمر منح دير الكنيسة أهمية إضافية. لا تزال بعض عبارات الحرب العالمية الثانية مكتوبة بالفحم على جدران الممر. منها هذه العبارة:

«إذا سمعتم صوت قنبلة فهذا يعني أنكم لا تزالون أحياء، القنابل التي ستقتلكم لن تسمعوا صوتها».

يتكون قبو الدير في الأساس من ممر كبير شكله المخروطي جعله يبدو للقادم من جهة المقبرة كما لو أنه نصف اسطوانة مقسومة طولياً. للممر أرضية واسعة، وعلى الجانبين أبواب تؤدي إلى غرف. على واحدة من جنبات الممر رأى ضيوف الراهبة كومة من خشب المدفأة. أما نبيذ الأودرورير فقد خبأته الراهبة في واحدة من الغرف العلوية. قالت إنها تخشى عليه من رطوبة القبو ومن برودته. قال لها كريمر إن البرودة أمر جيد بالنسبة للنبيذ فتجاهلت الراهبة كلامه، ثم عادت لتقول له: أنت لا تعرف حقيقة النبيذ. دفعت رائحة القبو الرطبة نيبور للسّعال فاعتذرت الراهبة في الحال. بعد أن جلسوا جميعهم طلب منهم كريمر الهدوء فتحدثت الراهبة.

«شكراً لمجيئكم» قالت وصمتت برهة.

«أعرف رجالاً ونساء ولدوا هنا في هذا القبو. وُلِدت في بيت أمي أثناء الحرب عندما كانت القنابل تنزل على كل شيء في إيسن عدا الكنائس. كانت أمي تغطيني بقماش أسود ما إن تسمع الطائرات ثم تركض بي إلى هُنا. ذهب الرجال جميعهم إلى الحرب وبقيت النساء والأطفال. حتى كبار السن زُج بهم في الحرب ولم يعد منهم من الجبهة الغربية سوى الكهل راينر. أما الذين ذهبوا إلى الجبهة الشرقية فلم يعد منهم أحد. كان راينر فخوراً بجراحه التي قضت عليه، وما من أحد قال إن ألمانيا انتصرت في الحرب سواه. مع الأيام لاحظت الراهبات أن صوت القنابل صار أقرب إلى الدير من أي وقت مضى فاقترحت أمي أن تخرج بعض النساء لقطع الأشجار

المحيطة بنا حتى يتمكن الطيارون المسيحيون من رؤية الدير وصليب الكنيسة.هكذا صارت القنابل تبتعد شيئاً فشيئاً عنا، وعاد إلينا الأمان. منحت الراهبات أمي الرضا، وصرن يقلن لها عندما تأتي مذعورة: تعالي هنا، اجلسي هنا.وكانت أمي تجلس هنا، حيث أجلس الآن»

وتوقفت أورسولا عن الحديث لثوان، كما لو أنها كانت تستمع لصوت خارج من جدران الدير.

ارتسمت ابتسامة على وجه كل رجل كان يستمع إلى الراهبة، ولم يجرؤ أحدٌ منهم على قول شيء.

أكملت الراهبة حديثها، مستغلة تلك الفرصة العظيمة فثمة حشد من الناس يستمع إليها الآن ولا يرغب بمقاطعتها. أما هم فهذه هي المرة الأولى التي يرون فيها الراهبة.

قالت:

«قبل أن تنفجر الحرب بأشهر هبّت رياح شديدة وأمطار لم يشهدها أحد من قبل. كما رأت إحدى الراهبات، وكان اسمها تيريزا، سحابة تطلق نوراً باهتاً. شاهدت الأمر نفسه من برج الدير لثلاث ليال متتالية، وسخر منها الرهبان قائلين إنه مجرد برق. لكن تيريزا التي ولدتها أمها على جبلٍ في الجنوب كانت قادرة على أن تميّز البرق عن سواه»

فتحت الراهبة ملفّاً سميكاً وقلبت الأوراق. ورقة، ورقتان، ثلاث، عشر. ثم طوتها وعادت إلى الورقة الأولى، وقرأت منها.ما تقرأه الراهبة

الآن هو ما كتبته حورية كامل حول رحلة كارستن نيبور إلى العربية السعيدة. أجرت الراهبة تعديلات وإضافات كثيرة بعضها جوهري وكانت تكتب بيدها. بمقدورنا اكتشاف الأشياء التي أضافتها الراهبة إلى النص.

«رأى كارستن نيبور شعلة القديس إيمانويل وهو يعاين بحر الشمال. لم يخبر أحداً بذلك لأنه عالم رياضيات وخرائط، ولا يريد أن ينظر إليه رجال الملك فريدريك الخامس كأنه خبير في النجوم. آمن كارستن نيبور بالله، وكان ابناً لرجل بار بالكنيسة، ولولا إيمانه بالقدير لما بقي حياً في بحار الجنوب كلها وفي صحراء العربية السعيدة.انطلقت سفينته إلى الشمال أولاً، وكادت الرياح الشمالية تغرقها.واجه نيبور الأخطار بقلب ثابت، فقد كان مؤمناً بأنه سيصل إلى غايته وسيجد الظلام الدامس في آخر المطاف، وسيتحدث إلى الإله وجهاً لوجه ما إن تصبح العربية السعيدة على بعد بضعة أميال، أو بعد أن يتوغل في صحرائها.توالت الشهور على السفينة وهي تجنح من ميناء إلى آخر، ومات رجلان من مساعدي القبطان عندما صارت أرض الدنمرك أبعد ما تكون.بعد أن سقط الرجلان في البحر قال القبطان إنه يفكر بالعودة فوافقه بعض رجال نيبور، مدفوعين بالذعر والهلع أمام سماء لم تبدِ أمامهم أي قدر من الشفقة. لكن نيبور ذهب إلى غرفة القبطان وأراه الشكل الذي رسمه للبحر والشمس قائلاً إن شواطئ البرتغال صارت على بعد مائة ميل، وأن الملك قاله له: إذا عدتم إلى الشاطئ كلما هبّت الرياح فلن تصلوا قط إلى الظلام الدامس.

وجدت السفينة طريقها من البرتغال إلى الموانئ الفرنسية مدفوعة بالرياح الجيدة. وما إن اقتربت من مارسيليا حتى شوهدت السفن الحربية تجيئ وتروح. قال القبطان، وهو يقود سفينة حربية في الأساس، إن ما يرونه هو سفن إنجليزية تنقل أسرى الحرب. جهز القبطان المدفعية، وطلب من نيبور وجماعته الاستعداد للأسوأ. «هذا البحر ليس سوى ساحة حرب ونحن مضطرون لدخول مارسيليا، ولنأخذ حذرنا. نحن سفينة حرب دنمركية لا علاقة لنا بمشاكل الفرنسيين والإنجليز» قال القبطان. اقتربت منهم سفينة انجليزية فذهب باورنفايند إلى مكان مناسب بحيث أمكنه رؤيتها وأخذ يرسمها. كان باورنفايند رسّاماً، ولم يترك سفينة لم يرسمها. عندما اقتربت السفينة الإنجليزية تحدث القبطانان من مسافة تزيد عن ثلاثين متراً، وكان هواء المتوسط هادئاً لدرجة الملال. قال القبطان «نحن دنمركيون» فطلب منه الإنجليزي الابتعاد عن المكان. رفض القبطان الدنمركي أوامر نظيره الإنجليزي وقال إنه مضطر للنزول في مارسيليا، فلم يعد لديه ما يكفي من الطعام والماء، وأنهم إنما يقومون برحلة علمية. «إذا كنتم تقومون برحلة علمية فعودوا من هذا الطريق وادخلوا إلى الأطلسي. أما شرقاً فلن تجدوا سوى الأتراك» قال الإنجليزي ثم أعطى الإشارة فانطلقت قذيفة مدفعية في الهواء كتحية متأخرة. رفع القبطان الدنمركي قبعته وقال بصوت عالٍ: تواعدنا مع فيلسوف هو الآن في مارسيليا، سيمضي معنا في الرحلة. وهنا أصدر القبطان الإنجليزي قهقهة عالية، ثم قال وهو يضع قبعته على رأسه: حسناً، ولكن إذا اشتدت

عليكم الرياح بالقرب من الجزر اليونانية فاربطوا الفيلسوف على السارية، وامنعوه من الكلام. هل تحملون كلاباً على السفينة؟

ثم تحرّك المركب الإنجليزي فاستطاع باورنفايند رؤية جانب منه يبدو أن مدفعية أصابته يوماً ما.

توقفت أورسولا عن القراءة ووجهت كلامها لضيوفها:

«انظروا، قمنا بتلخيص جانب من الرحلة: من كوبنهاغن إلى مصر. الشطر الثاني من الرحلة تعمل حورية كامل على تلخيصه. لديها الكثير من الوقت بالمقارنة بي»

فقال كارستن نيبور:

«زرتها قبل أيام ووجدت أنها قد أنجزت الكثير من الجزء المتبقي. قالت إنها تشعر أن كارستن نيبور تجاهل أشياء كثيرة وقعت لهم في مدينة جدّة وهي تحاول البحث في الأشياء التي لم يقلها. وفي كل الأحوال ستخرج حورية قريبا»

فقالت الراهبة: أعرف. لنتذكر أن هذا اللقاء حدث قبل العاصفة ببضعة أشهر.

وعادت لتقرأ:

«رسم باورنفايند السفن كلها. لكن السفينة التي كان عليها لم يرسم منها سوى جانب واحد عندما صارت جبال إسبانيا إلى الشمال. بقي سائس الخيول برغرين ضاحكاً طوال الرحلة. فقد كان يسخر من

الأهوال، وكان فورسكال يقول إن ذلك يعود لوزنه الكبير. أما الطبيب كريمر فكانت تلك الإشارة تغضبه، وكان يصر على القول إن طيبة قلب بيرغرين تعبر عن نفسها من خلال جسده الكبير. وفي الليالي كان الخمسة يجتمعون على سطح السفينة ويشربون قليلاً من الأودرورير، وكان نيبور وبيرغرين يعزفون ويغنون. وكان الآخرون يغنون خلفهم. اصطحب نيبور آلته الموسيقية معه، ويمكننا القول إنها كانت جيتاراً وكان عازفاً ماهراً. في الليل كانوا يطلبون من بيرغرين أن يقص عليهم ما شاهده في البحر خلال ساعات النهار. كان يقضي النهار وحيداً على جانب من السفينة، يتأمل كل الجهات. وكان ينزل أحياناً شيئاً في الماء، ويتأمله ثم يعيده إلى مكانه. وقد اكتشف فورسكال ذلك لكنه لم يغضب، بل قال له: بمقدورك أن تستخدم المكحال خاصتي ولكن عليك أن تعيده إلى مكانه، وإذا وجدت شيئاً غريباً فعليك إخبارنا على الفور ولا تنتظر إلى الليل. عندما خرجت السفينة من مضيق جبال طارق وعامت في مياه المتوسط هتف بيرغرين: رباه، يا له من بحر شديد الملوحة. وراح يتساءل: أي بحر هو هذا؟ وعندما سمعه نيبور ذهب إليه وأراه الخريطة التي كان يعمل على رسمها، فقال بيرغرين: لاحظت أن الرياح صارت أكثر هدوءاً ولكن الملح أكثر. ومضت الليالي، نيبور يتحدث عن السماء والخرائط، بيرغرين عن الأهوال التي تثير ضحكه، أما باورنفايند فكان يرسم السفن، ثم أصبح يرسم نساء شريدات فوق ظهور السفن. لم يكن فون هاڤن معهم فقد دفعه دوار البحر لمغادرة السفينة وهي لا تزال بالقرب من كوبنهاغن.

ومن هناك سلك طريق البر، عبرَ الأراضي الألمانية أولاً ثم حاد يميناً ودخل الأراضي الفرنسية، ثم اتجه جنوباً ووصل إلى ميناء مارسيليا قبل أن تبلغه السفينة.

قال الطبيب كريمر، في واحدة من الليالي، إن احتمال الإصابة بالمرض في المحيط أقل منها في البحر المتوسط. كان جاداً في حديثه، لكن ذلك لم يمنع بيرغرين من القول إن مدافع الإنجليز والفرنسيين التي لا تهدأ قد قتلت كل الأمراض على ظهر المتوسط، وأن ذلك هو التفسير الوحيد لندرة الأمراض في المتوسط.

التقى الفريق بفون هاڤن في ميناء مارسيليا، وكان قد تعرف على سفينته الدنمركية على الفور وذهب إليها راكضاً ما إن ألقت المقلاع وبدأت الأشرعة في الهبوط. قال له كارستن نيبور إنه لن يستطيع الهرب من البحار إلى الأبد. فهز الرجل رأسه وقال، كما لو كان يعتذر: بحر الشمال ليس بحراً يا كارستن، إنه مغارة مليئة بالماء وحسب. فضحكوا.

تركهم باورنفايند وراح يرسُم بحراً على شكل مغارة، لكنهلم يجد مكاناً ليضع فيه السفن.

وبعد أيام غادروا سكنهم الصغير في ميناء مارسيليا وشقوا طريقهم في الماء آملين أن يجدوا الصحراء في نهاية المطاف. غاصت السفينة في مياه المتوسط ليلتين متتاليتين، وكانت الليلة الثانية مقمرة. جاء باورنفايند وعرض على رفاقه رسماً لسفينة على جانبيها ٨٣ مدفعاً. شرح لهم قصة السفينة التي قال إن العبيد المسيحيين فروا بها من البحار التركية. قاطعه

بيرغرين عندما مرّت سحابة أمام القمر وحجبت النور عن السفينة، وقال: ولكن لماذا رسمت المدافع ولم ترسم المسيحيين؟ فقال باورنفايند إنه لم يبصر سوى المدافع.لكن تلك الإجابة أثارت غضب سائس الخيول ودفعته للقول: رأيت المدافع ولم ترَ المسيحين؟ ما الفرق بينك وبين الأتراك، إذن. وكادا يشتبكان بالأيادي لولا تدخل بعض أصدقائهم»

التقطت الراهبة أورسولا أنفاسها، وشربت قليلاً من الماء، ثم سألت ضيوفها ما إذا كانوا يجدون الطريقة التي لُخصت بها الرحلة جيدة، فقالوا جميعهم: نعم. عدا الرجل الذي كان يعمل شرطياً في دورتموند، ثم مع الأيام أصبح اسمه فورسكال، فقد رأى أنها مكثفة لدرجة إنها كادت تخنقه. نصحه الشاب كارستن نيبور بالخروج لالتقاط شيء من الهواء النقي والعودة

«ربما بسبب الرطوبة والمكان الضيق» خمّن نيبور

فرد فورسكال: بالطبع لا.

وأضاف:

«مضت على السفينة حتى الآن شهور عديدة وهي في البحر، ولا بد أن هناك ليال كثيرة كانت بلا أحداث، كانت باردة أو حارة لكنها هادئة. نريد أن نسمع عن هذه الليالي»

قالت له الراهبة:

«ما الذي تريد سماعه عن ليال لم يحدث فيها شيء»

تجاهل فورسكال ضحك أصدقائه وقال إنه يعتقد أن ذلك ممكناً بطريقة ما. ولم يقل ما هي تلك الطريقة. غير أن الراهبة لم ترتح للرجل كثيراً.

بعد وقت قصير كانوا، الستة، يقفون في محطة الترام على الجهتين. استقلّ ثلاثة منهم الترام القادم من المحطة الرئيسية، وركب ثلاثة في الترام الذاهب إليها.

ترويض العاصفة

قال النقيب أندريه كلاين لسيلڤيا كاوفمان وزملائها صباح أول أيام الأسبوع إن إعصاراً قد يحدث يوم الجمعة القادمة، أي بعد أربعة أيام. تنبأت هيئة الأرصاد في برلين بحدوث سلسلة متتالية من العواصف الصغيرة التي قد تتدهور إلى إعصار، على وجه الخصوص في المناطق الغربية المحاذية لبلجيكا.سألته سيلڤيا: هل أُطلق على الإعصار اسم رسمي؟ فقال النقيب كلاين: لا، ليس بعد. ثم استدرك وهو يغمز بعينه اليسرى: سنسميه نحن لوليتا. ضحك الرجال وأدخلت سيلڤيا أناملها في شعر غرتها وضحكت معهم.

تقع غرفة الاجتماع في الدور الأول في مبنى الشرطة على الجهة المطلة على أكبر جسور المدينة. بقيت سيلڤيا في الغرفة وحيدة لبعض الوقت، بعد خروج زملائها. اقتربت من النافذ وتأملت الجسر.كان الشتاء قد سيطر على كل شيء منذ بضعة أسابيع. في مدينة أخرى كان الجسر ليكون واحداً

من أسرارها، لكنه هنا يذكر الناس بالشرطة، وذلك ما جعله مهجوراً. لا جسور كثيرة في هذه المدينة، ويمكن القول إنه الجسر الوحيد الذي يملك سمات خاصة ترشحه لأن يكون جسر المدينة. صحيح إنه لا يمر فوق نهر لكنه عالٍ ويربط بين تلتين مرتفعتين ويبدو في الخريف، إذا نظرت إليه من الجهة الجنوبية، كأنه سفينة. في العادة، في أماكن أخرى، يذهب الأطفال إلى الجسر ويلعبون. يأتي المتسولون إلى الجسر ويجلسون. ومن وقت لآخر يأتي غرباء ويغنّون. وبعد أن يصبح كل هؤلاء كهولاً يأتي أطفال آخرون وآخرون فيفعلون الشيء ذاته، يسمعون حكايات قديمة يرويها الكهول عن أيام الجسر البعيدة.ومع الأيام يصبح الجسر حامل أسرار المدينة وحارسها. أي: جسرها. ما اسم هذا الجسر؟ سألت سيلڤيا نفسها. ثم استدارت وخرجت. في تلك الدقائق عبر كلبان الجسر مسرعين، وتوقفا قبل نهايته، ثم واصلا عدوهما. لن نخطئ كثيراً إذا افترضنا أن أحد الكلبين كان ذكراً يحمل اسم جنرال، وأن الآخر كان أنثى تحمل اسم قديسة.

في المساء مرّت سيلڤيا بسيارتها بالقرب من ميدان الراين، ثم وجدت نفسها تنحرف بصورة آلية إلى الميدان. نزلت، وتمشّت قليلاً. كان الثلج لا يزال يغطي جزءاً من الأرض، الأشجار العالية الجرداء تزأر في الأعلى، وشخص وحيد ينتظر الأتوبيس على الجهة المقابلة، هل كان رجلاً أم امرأة؟ حتى سيلڤيا لم تعرف.بحثت سيلڤيا عن الحفرة فلم تجد لها أثراً. فهمت في الحال. فقد قامت السلطات بردمها بناءاً على طلب تقدمت به الشرطة. ارتبكت سيلڤيا وعضت على واحدة من أصابعها، أظنها كانت

السبابة. إذا كان إعصار سيحدث مع نهاية الأسبوع فلا بد أن نيبور وجماعته قد عرفوا ذلك وهم يستعدون له الآن.

هذا أيضاً ما تذكرته سيلڤيا:

ستحدث عاصفة ثالثة، أو إعصار ثالث، وسيخرج نيبور وأصحابه لملاقاتها. في مكان ما سيجهزون حفرة عميقة وسيشعلون فيها النار. في الحفرة سيضع الرجال قطع اللحم المدهونة بالنبيذ الاسكندناڤي، ثم سيغطونها بصفيحة حديدية أو حجرية. يعتقد نيبور، أكثر من أصدقائه، أن العاصفة ستشوي اللحم. وتعتقد الراهبة أورسولا إن العاصفة لن تشوي اللحم لكنها ستمنحه السر. أما حورية فعلمت من قراءاتها وأسفارها شيئاً آخر: ستسكن بحار الشمال لزمن طويل بعد العاصفة الثالثة، أما بحار الجنوب فهي في كل الأحوال ساكنة. لا بد من حفرة، لا بد من اللحم، هكذا فعل نيبور الأول قبل قرنين ونصف من الزمن بالقرب من شواطئ هامبورغ قبل رحلته بأيام. لم يخبر أصدقاءه بالأمر خوفاً من السخرية، أو أن يشيَ به أحدهم إلى رجال الملك. لم يكن أصدقاؤه أناساً عاديين. كانوا علماء، وذلك ما جعلهم خطرين. تلك الحيلة ستبقيه حياً في بحار الأرض وفي صحراء العربية السعيدة حتى بعد موت كل أصدقائه، وأكثر من ذلك: ستجعله يحصل على فاطمة في نهاية المطاف، وتلك الفتاة ستمنحه خلوداً قصيراً. الرب لا يسوق العاصفة إلا بعد أن يملأها بالأسرار. لينتظر الرجل العاصفة على اليابسة أولاً، وليستوعب أسرارها، أو ما استطاع من أسرارها، ثم ليدخل البحر ولينازلها في المياه

العالية بعد ذلك. سيجدها واهنة، وجد كارستن نيبور رياح المحيط واهنة في أغلب الأوقات، باستثناء مرات قليلة.

تذكّرت سيلڤيا ما سمعته من برغرين، سائس الخيل:

«يتعلم البحارة كيف يروضون العاصفة وهم على ظهور السفن كما نتعلم نحن ترويض الخيل في اليابسة»

عندما حققت الشرطة مع نيبور وهو يرقد في مستشفى نيكولاوس بعد إصابته، كانت سيلڤيا حاضرة.استعدنا ذلك التحقيق مرّات عديدة، فقد كان حديثاً ثرياً وطويلاً استمر زهاء الساعتين وربما أكثر.ممّا يؤسف له أن النقيب كلاين تجاهل كل ذلك مكتفياً بالقول إن الرجل مصاب بفرط الخيال.

تذكرت سيلڤيا الآن بعض قاله كارستن نيبور آنذاك:

زملائي الذين ذهبوا إلى عاصفة لم يسبق لهم أن فهموها ضاعوا، ونجوت أنا. إذا لم تفهمي العاصفة ـ خاطبها نيبور بشكل مباشر ـ فستقعين في الخطأ ذاته الذي وقع فيه عجوز همنغواي. فقد طعن الرجل حوتاً، وبدلاً من أن يجرّ الحوتَ إلى اليابسة فقد حدث العكس. راح الحوت يجر السفينة إلى أعماق المحيط.هل قرأتِ العجوز والبحر؟ سألها نيبور،فقاطعه القائد: قرأ رجالي كتاب موبي ديك وتعلمنا كيف نصطاد الحيتان ونستخرج منها الزيت. استدار نيبور، آنذاك، إلى الضابط وقال: لكن رجال ميلڤيل لم يكونوا بارعين كل البراعة. فأولاً ضربتهم العاصفة في البحر وأوشكت

أن تقضي عليهم، ذلك أنهم لم يتحضروا لها وهم على البر. وثانياً طعن ستاربك حوتاً عظيماً فاندفع الحوت ودمر المركب. وأنت ذاهب إلى الحوت افهم الحوت أولاً، وأنت ذاهب إلى العاصفة افهم العاصفة قبل ذلك.

كيف ستعرف سيلڤيا الآن مكان الحفرة الجديدة. ربما لم تكن تعرف، في اللحظة تلك، أنها آمنت بكل هذا. أحدهم أخبرها إن اللحم الذي يُشوى في العاصفة يمنح الرجل قوة جماع لا قرار لها، وأن ذلك هو السر الذي جعل نيبور ملكاً على جزء من الصحراء يطل على البحر، ثم ناجياً وحيداً. أو لنقل: كان واحداً من الأسرار، فليس بمقدورنا نسيان فاطمة. سمعتْ من أحدهم، وهي تستدعيهم الواحد بعد الآخر، أن ثمة مقبرة في أحد أودية العربية السعيدة اسمها مقبرة نيبور، لا تزال تحمل الاسم نفسه. هناك دفنت سلالة نيبور كلها. تقول القصة التي سمعتها سيلڤيا إن الرجل صنع ذرية هناك، وأن حكام تلك البلاد قتلوهم جميعاً بعد أن علموا أن جدتهم الفاسقة التي جاءت مع الأوروبيين على ظهر السفينة كان تسمي نفسها فاطمة. لم ينج من ذرية نيبور سوى شخص واحد هرب إلى البحر على سفينة بُن صغيرة، واصطحب عبدين أفريقيين كانا قد فرّا من عُمَان. وفي الليلة التالية لهروبه تبعته أرواح أسلافه وذويه وعاشوا جميعاً بين البحر والمحيط. تذكرت سيلڤيا أن كارستن نيبور قال لها إن سفينته لا تزال تبحر في الظلام الدامس في بحار الجنوب، وأنها ترسو أحياناً بالقرب من جبل اسمه جبل الشمس القديمة. وأن سفينته تدور في البحار ولا تفعل شيئاً، وستبقى هكذا تدور ولا تفعل شيئاً حتى تصبح كل البحار أنهاراً في نهاية

المطاف، أو حتى يجدها هو. ثم غنى، تتذكر سيلڤيا، أغنية شمس قديمة محظوظة:

إلهي الذي في الأعالي،
ألا تراني عالقاً هنا والدموع ملء عيني؟
أرسل إليّ تلك السحابة الفضية،
اجعلها تحملني إلى الفردوس
أرِني ذلك النهر، ساعدني على عبوره
اغسلني من كل هذه الفوضى التي تسكنني
اجعلني حرّا مثل تلك الشمس القديمة المحظوظة،
تلك التي لا تفعل شيئاً
سوى الدوران حول العالم كل يوم.

فتحت سيلڤيا الآي باد الخاص بها وذهبت إلى موقع «كول بوي». وجدت الموقع مغلقاً وهناك رسالة تقول:سيعود الموقع للعمل قريباً ما إن تصبح الظروف أفضل. كل خانات الموقع كانت معطلة.

انشغلت سيلڤيا في الأسابيع الستة الماضية بأشيائها الخاصة. زارت أمها في كولن، وسافرت معها إلى مدينة غوتنغن لزيارة شقيقة أمها التي كانت تحتضر في المستشفى بعد أن تراكمت مآسيها الصحية في العامين الأخيرين.انشغلت سيلڤيا، ببساطة، عن القصة التي شغلت بالها طوال الخريف.

مرت الأسابيع مسرعة، ودخل العام الجديد عبر بوابة الشتاء.

في اليوم التالي هاتفت سيلڤيا سجن المدينة وسألت موظف الاستعلامات، الذي قدم نفسه باسم هارتمان، ما إذا كان بمقدورها أن تزور سجينة ما مساء نفس اليوم. سألها هارتمان عن رقم غرفة السجينة فلم تستطع تذكره. قال لها إن البحث عن سجين من خلال رقمه أو رقم غرفته أسرع وأيسر، فغمغمت. قالت له هي امرأة من معاريفي واسمها حورية كامل، لكنها عجزت عن تهجئة الاسم عندما طلب منها ذلك. عاودت الاتصال بعد أن تأكدت من هجاء الاسم، وكانت قد وجدته مخزوناً في تلفونها وإلى جانبه هاتف السجن. قال الرجل إن الاسم موجود بالفعل، وأن ثمّة وثيقة إخلاء سبيل على يسارها نقطة خضراء، ما يعني إن الشخص قد غادر السجن في الأيام الماضية.

«هل تستطيع فتح المذكرة» سألته.

قال بصرامة:

«استطيع فقط قراءة عنوان المذكرة من الخارج»

«يا إلهي، فهمت» غمغمت حورية وسألته ماإذا كان يرى أمامه أي معلومات شخصية، رقم هاتف منزلي أو عنوان سكن يخص حورية كامل، فاعتذر قائلاً إنه مجرد موظف استعلامات ولا يملك صلاحية البحث في ملفات السجناء.

«حاول أرجوك» توسلت.

«سامحيني» اعتذر.

أنهت سيلڤيا المكالمة وجلست إلى مكتبها، راحت تبحث عن حورية كامل.لم تعثر على عنوان بعينه. استعانت بأحد زملائها. قال لها الزميل، وكان اسمه ماركوس وهو عملاق وذو صلعة تغطي معظم رأسه، إن هناك تصنيفاً خاصاً بالمتورطين في تجارة المخدرات،وأنها تحتاج لحساب آخر وكلمة سر أخرى غير التي تستخدمها في العادة.

«تحدثي مع قسم النظام الإليكتروني واطلبي منهم حساباً خاصاً. لا تعرفين ذلك؟ منذ متى وأنت تعملين معنا هنا أيتها الشرطية المبجلة؟»

وقهقه ماركوس عالياً.

الذين سمعوا قهقهته عرفوا في الحال إنه ماركوس وأنه يسخر من أحدهم. ذهب ينقر بالماوس يميناً ويساراً، وبين الحين والآخر يقول لها مازحاً: الكهل ماركوس لا يرى شيئاً، هل رأيت شيئاً؟. وفجأة صرخ: أهاااا، هذه هي، الكهل ماركوس يرى كل شيء.

فتح رسالة رسمية حُفظت على شكل صورة. الرسالة هي تقرير ختامي عن حالة حورية صادر عن سجن المدينة. أرسل التقرير إلى الشرطة والبلدية في الوقت نفسه. قرأ الرسالة بصوت خفيض:

«حورية كامل..

سيدة في الثالثة والأربعين من العمر، قالت إنها مسلمة درزية عند دخولها السجن. وقبل مغادرتها طالبت بحذف الكلمة من خانة الديانة

وإبدالها بكلمة الله، لكن ذلك تعذر إليكترونياً. دخلت السجن بناء على الحكم القضائي رقم 1201 الصادر في السابع من يناير 2012، بعد إدانتها بالاتجار بالمخدرات. قضت فترة محكومية آمنة، ولم تثر أي متاعب وأعفيت من عامي عقوبة. خلال فترة إقامتها في السجن حصلت على زيارات شبه منتظمة من مجموعة من الناس قالوا إنهم أصدقاؤها، منهم راهبة من مدينة إيسن. انكبت، خلال فترة إقامتها، على القراءة والموسيقى وشكلت فريقاً كان يعزف الموسيقى البلقانية والتركية في المناسبات، كما درّست الموسيقى للسجناء. أجرينا مراسلات عدة مع الشرطة للتحري عن هوية زوار السيدة كامل فأبلغتنا الشرطة بما توفر لديها من معلومات. ووفقاً للرسالة الأخيرة الصادرة عن الشرطة بتاريخ 8 أكتوبر 2013 فهم مجموعة عاطلة عن العمل لم يسبق لهم أن ارتكبوا جنحة كبيرة، باستثناء رجل كان في الأساس شرطياً سابقاً.

تعرفت السيدة كامل على المجموعة عندما كانت تتسول في مدينة إيسن، قالت الشرطة. لم تفدنا بمعلومات عن علاقة الراهبة بالمتسولة، ولم نحصل على معلومات ذات معنى من السيدة كاملحتى الآن. كانت الراهبة تزور السجينة باستمرار وتتبادلان الحديث وأحياناً كتباً وأوراقاً. شوهدت السيدتان مراراً وهما تكتبان معاً، وأحياناً كانت إحداهما تملي والأخرى تكتب. قالت السيدة حورية كامل، عند التحري، إنهما تعيدان كتابة قصة عن رحلة علمية خرجت من ألمانيا قبل قرنين ونصف من الزمان وذهبت تستكشف أراضي العرب القدامى بحثاً عن شرح أفضل

للعهد القديم، وعن الظلام الدامس. سأل أحد عيوننا السيدة كامل عن سبب اهتمام راهبة بقصة كهذه فقالت المرأة، وكانت واثقة مما تقول، إنها استعانت بالراهبة لأنها تريد أن تغير نهاية القصة وأقدار الأبطال وذلك أمر جليل يتطلب راهبة. وفقاً لإفادة أخيرة صادرة عن البلدية فإن السيدة كامل ستنزل بعد خروجها من السجن في شقة سكنية على مرتفعات شتوبنبيرغ. إن التقييم الأخير لحالة السيدة كامل يؤكد أنها سيدة تتمتع بذكاء ومعرفة مستقرين وأنها جاهزة للانخراط في المجتمع، وبمقدورها أن تعمل كمدرّسة للموسيقى أو كمعلمة للغة أجنبية واحدة على الأقل فيما لو تخلت عن قصة الظلام الدامس»

تساءلت سيلڤيا، متلهفة:

«كيف يمكننا معرفة العنوان الذي ذهبت إليه بعد خروجها»

فقال ماركوس وهو يحرك رأسه يمنة ويسرة:

لحظة واحدة.

في طريق عودتها مرّت سيلڤيا بمرتفعات شتوبنبيرغ،عمارات سكنية متلاصقة وخلال دقائق قرأت مئات الأسماء على أبواب عديدة. في آخر الأمر ضغطت بخفة على زر مكتوب عليه حورية كامل، وانتظرت وما من مجيب. عندما فكرت بالضغط على الزر مرّة أخرى سرت رجفة في أناملها. لوهلة فقدت القدرة على التركيز في شيء بعينه، وذهبت عيناها تقرأن الأسماء المكتوبة من جديد: أسماء عربية وتركية، أسماء روسية

وبولندية، اسم هندي واسم ألماني. قرأت، أيضاً، أسماء أخرى عجزت عن تحديد القومية التي تنتمي إليها. شعرت سيلڤيا لأول مرة بالخوف على ألمانيا. أدارت ظهرها لباب العمارة واتجهت إلى سيارتها التي ركنتها على الجهة المقابلة لمتجر روسي. الجو كان قد امتلأ بالظلام لكن سيلڤيا استطاعت أن ترى كنيسة كاثوليكية على تلة صغيرة لا تبعد كثيراً عن موضع سيارتها. مرت بسيارتها في الشارع الموازي للكنيسة ورمت بنظرة سريعة فرأت دار حضانة ملتصقاً بالكنيسة. إنه دار مسيحي في هذا المكان، قالت لنفسها. شعرت سيلڤيا بالقلق على مستقبل المسيحية، ربما لأول مرّة. انطلقت الشرطية بسيارتها في شارع يتسع بالكاد لمركبة واحدة، ثم حادت يميناً وواصلت طريقها. كانت تهز رأسها بقوة، تريد أن تطرد أفكاراً ثقيلة وربما طارئة، ولا نعلم على جهة اليقين أي الأفكار أرادت سيلڤيا طردها في تلك الساعة.

في طريقها رأت كنيسة نيكولاوس، وكأنها تراها لأول مرة. خطر لها خاطر أربكها: ألا يحتمل أن تكون حورية قد لجأت إلى دير الكنيسة حيث صديقتها الراهبة أورسولا؟ صعدت التلة إلى أن ركنت سيارتها إلى جوار الكنيسة. كان ضوء خفيف قادم من متجر خبز ينير جزءًا من الشارع. تركت الكنيسة على طريقها وواصلت السير. صار الطريق أضيق، ولم تعد تسمع سوى وقع أقدامها على الطريق الطيني حيث ذاب الثلج. كلما اقتربت من الكنيسة كان الطريق يصبح طينياً أكثر، وتذكرت ما قاله بيرغرين، سائس الخيول، عندما سألته في زيارته الأخيرة: هل تذهب إلى

نساء مسنات؟ قال إنه يذهب إلى نساء مسنّات، وأنه يجد معاشرتهن أشبه بالمشي في طريق طيني. آنذاك كادت أن تقذف بكل ما في بطنها إلى وجهه. أما الآن وهي تصعد إلى دير الراهبات المسنّات، في جو من البرد والطين والتيه، فقد وجدت كلام بيرغرين شاعرياً إلى مدى بعيد.

وقفت تتأمل الدير من الجهة الخلفية.بدا لها الدير من تلك الجهة كأنه شيء ما يجلس على حافة الهاوية. رأت ما يمكن أن يكون دخاناً صاعداً من المدخنة. عند الركن البعيد للدير، الركن المغطى بالأشجار، لمحت رجلاً يتفحص نافذة من الخارج. الرجل الذي كان يلبس معطفاً ويغطي رأسه ارتبك على نحو واضح ما إن اقترب خيال الفتاة منه. اتجهت الشرطية إلى الرجل، وحيته فرد عليها.

ـ ماذا تفعل هُنا؟ سألته

ـ أتفرج على العالم، مثلك.

أخرجت محفظتها من جيب بنطالها. كانت، كالعادة، قد تركت ملابسها الرسمية في مكان عملها. فرَدَتْ محفظتها أمام عيني الرجل وقالت وهي تضيء محفظتها بكشاف صغير: أنا شرطية، وعلي أن أسألك مرة أخرى. وجودك في هذا المكان وفي هذا الوقت مريب. ماذا تفعل هُنا؟

قال الرجل ببلاهة شديدة الإقناع:

أنا روائي أكتب قصة عن الله، وأريد أن أعرف كيف يعيش في الشتاء. تجمدت الفتاة في مكانها ولم تقل شيئا. هز الرجل رأسه، وسلك

الطريق الطيني إلى الأسفل، تاركاً فتاة ربما مغمضة العينين تفكر بسؤال: كيف يعيش الله في الشتاء؟

قضت برهة هُناك، ولم تدرِ ما الذي عليها فعله. في نهاية الأمر استدارت وعادت أدراجها. وهي تمضي إلى الأسفل انزلقت في الطين وكادت تسقط على ظهرها. في تلك اللحظة وجدت سيلڤيا ما قاله بيرغرين أمراً في غاية القذارة.

جسد للرياح

اليوم هو الثلاثاء وأورسولا مرتبكة.

فتحت عينيها قبل الخامسة فجراً، وسمعت هدير الأشجار في الخارج. تذكرت ما قالته بائعة الخبز عن النبي الذي كان يسكنُ الأشجار في إيطاليا، وتبسّمت. جلست على حافة سريرها كما لو أنها تستعد للقفز. أغمضت عينيها وفتحتهما مراراً. في المرة الأخيرة أطبقت جفنيها وكتمت أنفاسها فرأت نفسها تجلس على حافة هاوية، وانقبض صدرها. هبت واقفة، وراحت تلهث لبرهة.

قبل أن تصبح راهبة كانت تفعل الشيء ذاته عندما تستيقظ: تجلس على حافة السرير وتغمض عينيها وتفتحهما ولكنها لم تكن ترى شيئاً بعينه. ربما شظايا ضبابية من آخر حلم مرّت به قبل أن تفيق.في الزمان السحيق ذاك، أول الزمان، كانت أيضاً تلاعب شعرها وتنظر إلى نهديها في الضياء الباهت. هي الآن راهبة تجاوزت السبعين. صحيح إنها لم تعد تنظر إلى

تهديها كما كانت تفعل في غابر الأيام لكنها أيضاً لا تتناول العقاقير ولا تشتكي من ألم في المفاصل. شيء ما في أعماقها يؤكد على حيويته، شيء شابٌ وأبدي يحرسها. ربما كانت الأناشيد، قالت مرّة لنفسها. تحسست أورسولا طريقها إلى النافذة وألقت ببصرها إلى الخارج. تحيط بالدير مئات الأشجار العجوزة، وهو ما يجعلها خطراً حقيقياً في أوقات العواصف. في العاصفة الأخيرة التي ضربت المدينة سقطت الأشجار العجوزة أولاً، ثم الأحدث سناً. أما الأشجار الشابة، خصوصاً تلك التي نبتت بعد الحرب، فلم يسقط منها سوى عدد قليل عند الحدود مع هولندا.

تغطي الأشجار التلة التي يجلس عليها الدير. تعطي الأشجار العجوزة انطباعاً كاذباً عن قوة الرياح، وتسقط قبل أن تصير الرياح أعاصير. تعرف أورسولا ذلك جيداً، ولذا فهي لم تكترث للهدير الذي سمعته قبل أن تفتح عينيها. ذهبت إلى الحمام، واغتسلت بماء دافئ. حكت صدرها بأظافرها ولاحظت خطوطاً حمراء. فعلت الشيء ذاته على بطنها. جسدها، استنتجتْ أورسولا،لا يزال طريّاً. منعت جسدها في العشرين عاماً الماضية عن كل الرجال، وها هي الآن تستعد لتهب ما تبقى منه للرياح.هل يمكن للرياح أن تبتلع جسد امرأة لم تجرِ فيه مياه الرجال لعقدين من الزمن؟ كانت الأسئلة تتدفق في خيال أورسولا وهي تسمع خرير الماء على جسدها.

صعدت أورسولا إلى برج الدير. كان الليل قد انكشف أكثر من قبل. المدينة تغطيها الرياح والغمام، تبدو الأضواء البعيدة كأنها عيون أشباح.

نظرتْ إلى ساعتها، إنها السادسة إلا خمس دقائق. الآن تسمع أجراس الكنيسة، فتحس بسكينة غامرة. توقف قرع الأجراس، فألقت أورسولا نظرة أخرى على المدينة. بدت الأضواء البعيدة، الآن، أشبه بمشاعل القديسين.لفحتها رائحة قهوة آتية من الأسفل. هبطت الراهبة الدرج الخشبي، والتقت أختين في الطريق. تبادلن كلاماً عن ترتيب الدير، شراء احتياجاتهن اليومية، وبعض التفاصيل المرتبطة بتقسيم العمل فيما بينهن.

كانت أورسولا سارحة في مكان آخر.

بالأمس، الاثنين، زارها كريمر. سمع خبراً، وهو في مدينة بوخوم، عن عاصفة وشيكة ستضرب مدن نهر الرور مع نهاية الأسبوع. ماذا كان كريمر يفعل في تلك المدينة؟ استقل خط الترام ١٠٧ من محطة قطارات إيسن ونزل في الموقف المواجه للمستشفى. بين الخامسة والسادسة مساءًا كان الوقت. ذهب الرجل يعدو ويلهث، فهو يريد أن يصل إلى الدير قبل أن يحل الظلام، كي لا يثير انتباه أحد. التقارير الأسبوعية التي تنشرها الشرطة عن اقتحامات المنازل واستلاب ممتلكات كبار السن خلقت جوّاً عاماً من الخوف والريبة في المدينة.لم يعتد أهل المدينة من كبار السن على الغرباء، وهاهم يستقبلون آلاف اللاجئين في الأعوام القليلة الماضية. ليلاً وفي أحياء مثل شتوبنبيرغ، القريب من كنيسة نيكولاوس، وحدهم المتجولون صحبة كلابهم لا يثيرون الانتباه.ربما كان من الجيد لكريمر لو اصطحب كلبه.

اتجه كريمر إلى التلة حيثُ الدير، وفي طريقه التقى امرأة ممشوقة القوام.

هذا الوصف المبتذل لا يقول شيئاً عن سيلڤيا التي كانت تضع شالاً حول عنقها. ألقى عليها التحية وأكمل طريقه إلى الأعلى.خيل للمرأة أنها سمعت صوته من قبل، وخيل للرجل أنه سمع صوتها من قبل. ذهب كل في طريقه، هو إلى الأعلى وهي إلى الأسفل. بعد بضعة خطوات توقف هو لينظر إليها، وفعلت هي الشيء ذاته. التقت عينا الرجل بعيني المرأة في الظلام، ثم أكمل كل منهما طريقه. كان الرجل يلهث، كأنه خائف أو ناج من خطيئة. فتحت سيلڤيا سيارتها وجلست خلف المقود ولم تحرك ساكناً. انتظرت نصف ساعة ولما لم يعُد الرجل من الأعلى فتحتْ باب سيارتها وخرجت. اتجهت صوب الدير حتى وصلت إلى الجزء الطيني من الطريق. هناك وقفت ودارت بعينيها في الأرجاء، لا أثر لأحد. اقتربت من باب الدير، وحاولت استراق السمع. ما من صوت سوى هدير الأشجار العجوزة حولها وصوت بعيد وباهت لسيارة إسعاف. في تلك اللحظة كان كل شيء يبعث الوجل والريبة. استطاعت أن ترى دخان مدفأة الدير وهو يصعد مختلطاً بالشفق البعيد، ولوهلة شعرت كأن ذلك الدخان يصعد من سرّتها. ارتبكت الفتاة التي قلنا مراراً إنها ممشوقة القوام، وقررت أن تعود إلى سيارتها وتنتظر. بعد مضي نصف ساعة أخرى، لنعترف إنها كانت صبورة للغاية، رأت سيلڤيا خيال إنسان قادم من التلة. تركته يقترب، ثم فتحت باب سيارتها وذهبت إليه وهي تغطيٍ رأسها بقبعة سترتها بعد أن تركت الشال في سيارتها.

ـ مساء الخير، قالت.

ـ مساء الخير، أجاب ومضى.

أوقفته قائلة:

لحظة لو سمحت.

بخفة عرّفت بنفسها:

«أنا شرطية، وأريد أن أسألك عن سبب تواجدك حول دير الراهبات في هذا الوقت؟»

قال الرجل الذي يقترب من الستين:

«أخطأت الطريق، أردت أن أختصر المسافة وأنزل من الجهة الأخرى لكني اكتشفتُ أنه طريق مغلق. هناك في الأعلى الدير والأشجار وسور المقبرة وما من طريق إلى الجهة الأخرى.»

كان يتحدث وهو يلهث، كأنه لم يتوقف عن اللهاث منذ وصوله. كان أيضاً يشير بيده باتجاه الدير.

سألته سيلڤيا بنبرة جافة:

«وبقيت تبحث عن الطريق لأكثر من ساعة؟»

انشغل الرجل بالبحث عن إجابة. أما هي فكانت تفتح أمام عينيه محفظتها وتضيئها بكشاف صغير. تحتفظ سيلڤيا بكشاف صغير في سيارتها.

رأى الرجل صورتها وكاد أن يتذكر شيئاً. يصعب علينا القول إنه تذكّر شيئاً.

مر كريمر في السنوات الأخيرة بنساء كثيرات، وأصبح يعتقد أن كل

امرأة في إيسن تشبه كل نساء المدينة. ويصبح الشبه حقيقياً أكثر عندما تقول المرأة إنها لا تشبه أي واحدةٍ منهنّ.

ألقت الشرطية بالضوء على وجه الرجل، ورأت ملامح كريمر. رأت وجهه العريض، لحيته الخفيفة التي طرأ عليها القليل من الشيب، وندبة صغيرة على الجهة اليسرى من أنفه.

«كريمر؟» قالت الشرطية، ونسيت أن تغلق فمها

«هل تعرفينني؟» سألها الرجل وهو لا يقل عنها اندهاشاً.

تجاهلت سيلفيا سؤاله، فهي تطوف هُنا منذ ما يقرب من ساعتين بحثاً عمّن سيوصلها إلى الراهبة. قبل ساعتين، تقريباً، وجدت رجلاً تائهاً بالقرب من الدير قال إنه يكتب قصة عن الله. وها هي الآن تقف أمام كريمر، الرجل الذي وعدها في ليلة من الليالي، وهي عارية، برؤية عش الرب في سيناء.

«هل كنت في زيارة للراهبة أورسولا؟» سألته.

يا له من سؤال دقيق من شرطية يبدو أنها تعرف عنه كل شيء. تلعثم الرجل، ولم يدرِ كيف يرد. بقي في مكانه يكرر:

هل تعرفينني؟

«أنت كرستيان كريمر، جئتَ على عجل لزيارة الراهبة أورسولا بعد أن سمعتَ خبراً عن عاصفة وشيكة» قالت وهي تلقي بالضوء بين قدميه وتزيح الغطاء عن رأسها.

«هل تعرفيني؟» كرر سؤاله الأبله وهو ربما كان قد عرف من هي. فليست كل النساء في إيسن متشابهات، كما يعتقد.

«تعال معي» قالت سيلڤيا وهي تضيء الطريق إلى سيارتها.

هناك جلس إلى يمينها وشد حزام الأمان على صدرهوأحس بالغرق. في الطريق إلى مرتفعات فريلندورف، حيث تسكن الشرطية، بقي الرجل صامتاً وهي تتحدث. تذكرها الرجل جيداً، فهو لم يقل شيئاً عن العاصفة سوى لامرأة واحدة.في تلك الليلة قال ما هو أبعد من العاصفة، حتى إنه جلب نبيذ الأودروير من الدير وضاجعها حتى الصباح ولم يخفِ عنها سوى الأشياء التي نسيها.

قالت له سيلڤيا، باختصار، ما تعرفه عن قصتهم وكشفت له حقيقتها. الرجل الوقور، الذي كان عاشقاً للراهبة في شبابها، اقتصد في الكلام. في نهاية المطاف ها هو يجلس الآن إلى جوار شرطية. يا للهول، غمغم.

عندما أوقفت سيلڤيا سيارتها أمام المبنى الكبير الذي تسكن فيه رأى الرجل الجدران وتذكر كل شيء. يا إلهي، غمغم مرة أخرى.

«ما الأمر؟» سألته.

«هل زارك أحد غيري من كول بوي؟» سألها

«كلهم، وأعرف الراهبة وحورية أيضاً. أعرف كل شيء عنكم»

ظنّ الرجل أنه قد هلك. لطالما حاولت الراهبة تهدئته، وكذلك أصدقاؤه الآخرون: لا داعي للهلع حين ترى شرطياً. غير أن الرجل

الذي فرّ من شرق ألمانيا في شبابه لم يجد بُدّاً من الهلع أمام منظر الشرطة، وكان ذلك في النهاية مفهوماً بالنسبة للراهبة، ومقبولاً بالنسبة لأصدقائه.

فتح باب السيارة ووقف يشاهد باب العمارة، ينظر إلى الشبابيك، لا يدري ما الذي عليه أن يفعله في تلك اللحظة.

«ولكن لماذا تفعلين كل هذا؟ ما الذي يخصك فيه كشرطية؟»

«أريد أن أكون معكم»كأن سيلڤيا صفعت نفسها بتلك العبارة، فهي لم تقل لنفسها قط، حتى الآن، إنها تريد أن تكون معهم.

«معنا؟»

«نعم، معكم»

«وكيف عرفت عنّا كل هذا؟»

«تفضل بالطلوع معي، ودعنا نتحدث عن كل شيء».

علمت من كريمر أنهم سيجتمعون مساء الغد،الثلاثاء، تمام السادسة مساء، في قبو الدير. كلفته الراهبة بإخبار الجميع. قالت له الراهبة بالأمس: علينا أن نلتقي غداً، وأن نعترف بذنوبنا بشكل جماعي. سيقف كل شخص في وسطنا وسيتحدث عن ذنوبه الثلاثة التي تؤلمه أكثر من أي شيء، أو عن أعظم الخطايا. لا بد من ذلك قبل العاصفة بثلاث ليال على الأقل، ولم يعد لدينا المزيد من الوقت.

«في الواقع كانت هذه فكرة حورية. الراهبة أورسولا وجدت الفكرة غاية في الأهمية» قال كريمر لسيلڤيا. ثم عاد وقال لها: ليس بمقدورنا

القول إن هذه الفكرة جاءت من حورية وتلك من الراهبة، فهما تعملان معاً كأنهما روح واحدة.

وعدها بأن يسهل لها أمر الانضمام إلى المجموعة. أخبرها، أيضاً، عن حاجة المجموعة للنساء. وشرح لها ما تشكل لديه من فكرة عن دور النساء في حماية السفن في المحيطات. وقبل أن تذهب هي للنوم في غرفتها، قبل أن ينام هو على أريكة الصالون، قالت له إنها تعرف إن فاطمة هي التي خلصت نيبور من الموت.

هز الرجل رأسه وأطال النظر إلى عينيها، وقال لها إنهم سيجتمعون مرّة أخرى لتدارس النهايات. بالنسبة له فهو لا يريد أن يموت بالملاريا في العربية السعيدة. فهو ذاهب لرؤية الرب والظلام، ومن أجل أن يفهم كيف كان العهد القديم يتنزّل.

في الواقع:

إنما كان يفعل كل هذا من أجل أورسولا التي قررت أن تذهب بما بقي في جسدها من طراوة إلى الرياح.

في البحر، في المنفى

جاء الثلاثاء منذ ساعات.

قبل السابعة صباحاً كان كارستن نيبور قد غادر منزله.لم يكن قد أحيط علماً بالموعد. ربما كان يفكّر بزيارة الراهبة أورسولا، لكنه الآن يمشي بمحاذاة الطريق السريع، إيه ٤٠،في اتجاه الشرق.كان خالياً من الأفكار تماماً، وعندما كان يتوقف لثوان ريثما يستمع لما يدور في رأسه لا يجد سوى هدير العاصفة فيواصل سيره. على ظهره حقيبة فيها جيتار. كان عليه أن يتحاشى في طريقه التجمعات المائية وشرايين المياة الصغيرة التي لا تزال تجري، فمن المؤكد أن مطراً غزيراً نزل في طريقه قبل ساعة أو أقل.

قبل السادسة صباحاً بوقت قصير، في مرتفعات فريلندورف، سمعت سيلڤيا حركة على باب شقتها. فتحت عينيها، ونهضت ببطء. لم تكن في عجلة من أمرها فقد أغلقت الباب بالمفتاح قبل أن تنام.ما من سبيل لفرار الضيف. نهضت ووضعت شالاً على كتفيها. كانت ترتدي بيچاما رمادية،

واتجهت إلى الباب وهي تنادي بصوت خفيض «كريمر». لم يرد الرجل على ندائها، وبقي واقفاً يلهث.

«إلى أين تريد أن تذهب في هذا الوقت؟»

«إلى الرفاق، لا بد أن أبلغهم بالموعد. إذا غادروا منازلهم فلن أتمكن من الوصول إليهم»

«في هذا الوقت؟ إنها تمطر في الخارج»

«أدري، ولكنها تمطر هُنا فقط، ليس في كل مكان»

«هُراء»

«لا ليس هراء، أنا أعلم منك بسحاب إيسّن. في الصباح تمطر بالقرب من الطريق السريع، وفي المساء على تخوم الأنهار، أما وسط المدينة فيبقى جافاً حتى منتصف النهار»

تمهلت قليلاً، ثم قالت له، وقد بدا لها أنه يتحدث عن دراية:

«حسناً سنذهب معاً»

«لا، أرجوك لا أريد أن أتسبب بأي إرباك.وعدتك بتدبر أمرك معهم على طريقتي.أنت تعرفين الموعد، وكذلك المكان. تعالي إلى الدير في الموعد، وسأمهد لذلك»

«على الأقل دعني أوصلك بسيارتي إلى محطة القطار. ألا تريد أن تصل إليهم بسرعة؟»

«ممم. ليست بالفكرة السيئة»

«سأرتدي ملابسي بسرعة، وأضع الماء في ماكينة القهوة. سنشرب القهوة في طريقنا»

نطقت سيلڤيا بالجملة الأخيرة عندما كان كريمر يهم بفتح فمه ليقول شيئاً.

قال كريمر لسيلڤيا، وهو يغادر سيارتها:

«لا تنسي أن تعترفي بثلاثة ذنوب، وأن تختاري خاتمة جيدة لحياتك. إلى اللقاء»

«إلى اللقاء»قالت سيلڤيا.

اليوم الثلاثاء، وسيلڤيا تعمل الآن. وصلت مبكرة، فهي لم تعد إلى منزلها بعد أن أوصلت كريمر إلى المحطة. جلست على مكتبها. فتحت حاسوبها وبحثت في غوغل: الموت في العربية السعيدة، الذنوب الكبيرة والبحار،المرأة والبحر، النهايات المجيدة، الإله والعاصفة، أين يعيش الإله، الظلام الدامس، عش الرب، ضفادع بني إسرائيل. كان كل شيء مشوشاً في ذهن سيلڤيا، حتى إنها لم تعد تحس بمكانها. تضع جملة على محرك البحث ولا تنتظر نتيجة. لا تعرف ماذا تريد، ولا إلى أين ستمضي. كانت تدون أشياء في كراس صغير استخرجته من دولاب مكتبها. بالأمس مساء وهي تجلس في صالون بيتها مع كريمر بعد ان استعاد شكيمته قال لها:

«لا تخافي. في البحر سنجدهم جميعاً، سنجد كل الأسلاف. لا تزال فئات معينة تعيش في البحر منذ ذلك الزمان، وستبقى هناك حتى تجف

البحار. قال كارستن نيبور إنه رأى في طريقه أناساً يجدفون في البحر بلا وجهة. اقتربت سفينته منهم وتحدث إليهم. كانوا ثلاثة إخوة يملكون دار نشر في حي سان دينيس فيشمال باريس. في تلك الأيام قاموا بنشر رواية «الراهبة» التي كتبها دينيس ديدرو، فغضب الملك وغضبت الكنيسة. كانت الرواية تتحدث عن سلوك الراهبات في أديرة فرنسا.عندما تقرئين الرواية وتشاهدين القديسات وهن يمارسن السحاق في الأماكن التي تتنزل فيها روح السيد المسيح ستفهمين غضب الكنيسة. حكم الملك لويس، أظنه لويس السادس عشر، على ناشري الكتاب بالتجديف في البحر حتى نهاية العمر. لم يكونوا وحيدين، فقد رأى نيبور مجدفين كثيرين على امتداد المتوسط، حتى إنه تساءل وهو يرى كل أولئك المذنبين المنفيين في البحر: ماذا لو لم ترسلهم الكنيسة إلى البحر؟ ربما لكان الإله قد بطش بأوروبا أشد البطش، كما فعل بالمصريين من قبل»

أغنية مفقودة

شعر الكلب الذي يحمل اسم جنرال بالقلق. أما الكلبة، وكانت تحمل اسم قديسة، فكانت تغادر مكانها وتذهب إلى الإسفلت،تعوي مثل ذئبة ثم ترجع إلى الجنرال. تحت شاحنة عملاقة في موقف مخصص للشاحنات بين مدينتي إيسّن ومولهايم جثا الكلبان ليلة البارحة، الاثنين، ثم نامت الكلبة أولاً. ما إن لمح الجنرال في الظلام أن القديسة قد أغلقت عينيها حتى رفع أنفه وراح يتحسس الشاحنة من الأسفل وهو مستلقٍ على ظهره. مر بأنفه عليها، على كل جزء فيها تقريباً. كان يتشمم المعدن ويئن ولمّا اقترب بأنفه من العجلات الأمامية علا أنينه. فتحت القديسة عينيها على أنين الجنرال، وأصدرت صوتاً دفعه إلى السكون. همَد أنين الكلب وبقيت تلك الرائحة التي عثر عليها تعذبه، لكنه في نهاية المطاف كان قد تمكّن منه النوم.

في سباته العميق رأى كلبة مستلقية تحت شاحنة. لكن حلمه كان مليئاً

بالرياح الماطرة وكان كلما اقترب من الشاحنة دفعته الرياح إلى الخلف. أما الكلبة تلك فبقيت في مكانها، وسمع صوتاً قاسياً يقول له: ماذا تفعل هُنا،إذا جاء فيردناند ورآك تختلس النظر إلى حبيبته فسيبطش بك في هذا المكان المقفر.

تقهقر حلم الجنرال، اختفت الكلبة أولاً ثم المكان المقفر، وبقيت الرياح الماطرة.فتح عينيه فوجد نفسه بعيداً بعض الشيء عن رفيقته. جرّ نفسه إلى الخارج، طاف بالمكان، كان ظلام دامس يغمر الأرجاء ورياح ماطرة تضرب كل شيء. عاد مسرعاً إلى رفيقته ووضع رأسه في حضنها وأغلق عينيه. حكّت الكلبة رأسه بأظافر ساقيها الأماميتين، فعلت لذلك لبرهة من الوقت حتى دمعت عينا الكلب وراح يئن ويسأل نفسه: ماذا لو استلب فيردناند كلبته، ماذا لو أخذتها العاصفة القادمة، ماذا لو ألقت الشرطة القبض عليه واحتجزته في معسكرٍ للكلاب الضالة وكان هناك كلب اسمه فيردناند؟

ضربه الفزع بقسوة حتى إنه نهض وأيقظ رفيقته. سرعان ما انطلق الكلبان، القديسة والجنرال، مارين بالشوارع الضيقة والواسعة، بالمباني والعربات، وبعد أقل من نصف ساعة كانا قد وصلا إلى كنيسة نيكولاوس.قفز الكلبان إلى المقبرة أولاً، ومنها صعدا إلى مكان قريب من الدير بحيث أمكنهما رؤية أنوار الكنيسة. هبطا ببطء، مستريحين للشعور المفاجئ بالأمن سالكين الطريق إلى باب الكنيسة. وقفا هناك يلهثان. ابتسمت الكلبة لرفيقها وحكت رأسها على جنبه الأيمن، أما هو فغمرته السكينة. فمن أين لفيردناند أن يعرف أين هو الآن.

قرعت الأجراس تمام السابعة صباحاً واستيقظ كلبان كانا قد غفيا قبل ساعات عند باب الكنيسة.

إنه يوم ثلاثاء، رياح باردة وأمطار. الشجرة التي وصفتها واحدة من راهبات كنيسة نيكولاوس قبل أيام بأنها شامخة مثل تاريخ بولندا سقطت قبل الفجر، سقطت إلى الجهة الأخرى بعيدة عن الدير. لا يوجد كلبان شريدان في مدينة إيسن سوى الكلبين اللذين يحملان اسمي جنرال وقديسة. هما أدركا ذلك من قبل، وهو ما يجعلهما دائماً راكِضين. في الحال صعدا، بخفة، تجاه الدير وغابا بين الأشجار. هناك وقف الجنرال ينظر إلى الهواء، إلى حزمة من خطوط الطاقة تمر عالياً في الفراغ بين مرتفعات شتوبينبيرغ والكنيسة وتذهب بعيداً حتى الحدود الشمالية لمدينة إيسن. على حواف المدينة تركت أسلاك الطاقة في الهواء وعدا ذاك فقد دفنت تحت الأرض. ظل الجنرال يحدق بغُرابين يجلسان جنباً إلى جنب على واحد من تلك الخطوط، أحدهما كان يحك إحدى جناحيه بمنقاره. خمّن: إنه الذكر، وتلك الساكنة هي الأنثى. وبلا سابق إنذار نبح نبحتين ثم عوى فتوقف الغراب الذي كان يحك جناحه عن الحركة، أما الآخر، لنفترض أنها كانت الأنثى، فبقي ساكناً. هز الكلب رأسه، كما لو كان يريد التخلص من شيء، ثم التفت إلى أنثاه. كانت القديسة واقفة تحدق فيه وفهم إنها كانت تفعل ذلك طيلة الوقت.

غمغم الكلب وغمغمت الكلبة. وفي الأعلى، على الخط، اقترب الطائر من الطائر الآخر والتصق به. كانت الأشجار تهتز قليلاً، تنتفض، ثم تعود

إلى سكونها ما إن تهدأ الريح. بقي الكلبان هناك يحدقان في الأشجار، كما لو كانا ينتظران شيئاً، ومن وقت لآخر يخرج الجنرال لمعاينة الطيرين ويعود إلى الأحراش. لم تبد الكلبة ارتياحاً لاهتمام كلبها الزائد بالطيرين. حاول أن يشرح لها الأمور التي تشغل باله، لكنها بقيت معتقدة أنه إنما يريد لفت انتباه الأنثى.

انتصف النهار فسمع الكلبان أقدام بَشَر.كانا قد غرقا في سبات، فهما لم يناما جيداً منذ ليال. مرّ كارستن نيبور بالقرب منهما قادماً من الأسفل،وكان يحمل معه آلته الموسيقية.انتفض الجنرال ورفع نصف جسده مستنداً إلى ساقيه الأماميتين. بقيت القديسة ساكنة، فماذا بوسع إنسان أن يفعله لكلبة مستلقية في غابة، ساررت نفسها وهي تغلق عينيها مجدداً.

قبل أشهر، في يونيو الماضي، سخر نيبور من سفينة «موبي ديك» التي أبحرت قبل أن تفهم العواصف. حذر الشرطة وهو يحتضن آلته الموسيقية ويدلدل ساقيه على حافة السرير: لا تفعل مثل ستاربك، لا تطعن حوتاً إذا لم ترَ ذيله. حتى قبل أن يلتقي الشرطة كان كارستن نيبور قد درس العاصفة، واختبرها على طريقته، حتى إنه صار يعرف كيف تحني الرياح نغمات الجيتار والبيانو، وكيف تصير الأغنية في الريح أغنية أخرى. قبل بضعة أسابيع هبّت ريح شديدة ففتح نيبور شبابيك منزله كلها ووقف يعزف أغنية «سفينتي» لدوريس داي.كان يترنح وهو يعزف مغمض العينين. رأى نفسه على سفينة حربية تقترب من شواطئ مالطا تداهمه الرياح والظلام وأنوار الجزيرة:

أشرعة سفينتي مصنوعة من الحرير

طوابق سفيني مزينة بالذهب،

بالمربى،

وبالتوابل

وهناك جنة تنتظرني.

سرعان ما أحنَتِ الرياح نغمات الأغنية الهادئة والبطيئة. استمر يغني «سفينتي» لكن نغمات البيانو كانت تصبح أسرع وأعلى وأكثر مرحاً خالقة الإيقاع البهيج لأغنية «رأيت ثلاث سفن» لنات كينغ كول. أذهله الاكتشاف ودفعته النغمة الجديدة إلى الغناء للسفن الثلاث:

رأيت ثلاث سفن مبحرة

في يوم الكريسمس

على ظهرها رأيت السيدة العذراء ويسوع

وسمعت الملائكة تغني لهما

في يوم الكريسمس.

ها هو نيبور يتمهّل مشيته ثم يتوقف ويلقي بنظره على الكلبة المستلقية أولاً، ثم على الكلب المتحفز. لاحظ كارستن نيبور أن الكلب كان متحفزاً ومستثاراً بلا سبب، وأكثر مما يحتمله الموقف. منذ البارحة ونيبور يشكك بالأخبار التي تقول إن العاصفة ستضرب المدينة يوم الجمعة. لقد سمع أخباراً كثيرة عن الطقس في الأعوام الماضية أثبتت الأيام أنها لم تكن دقيقة.

فالعواصف التي ستجيء لم تجئ، والرياح التي لن تمر بالمدينة مرّت بها. يحمل نيبور، هذا النهار، كلاماً كثيراً للراهبة وباقي الفريق. فهو يعتقد أن العاصفة قد تصل قبل الخميس ولديه علامات كثيرة. مضى في سبيله تاركاً الكلبين خلفه، وكان وهو يمضي بين الأشجار يصغي جيداً لأصوات الطيور في الأعلى وعلى جانبي الطريق.لاحظ أن الطيور مضطربة وأنها تصدر أصواتاً لم يعتد على سماعها في الشتاء، وأنه ما من داعٍ لكل هذه الجلبة التي تحدثها الطيور في هذا اليوم البارد لو أن كل شيء على ما يُرام. كما لاحظ قبل هنيهة أنه ما من سبب يجعل الكلب متحفزاً بتلك الطريقة لو أن الدنيا بخير. يعتقد نيبور، وهذا ما سيثيره بعد قليل، أن الطيور والكلاب تشعر باضطراب الهواء والبحر قبل أن يصبح ذلك الاضطراب محسوساً. سأل جاره هذا الصباح عن كلبه المريض، ولم يكن سؤاله بروتوكولياً، فقال الجار إن كلبه نهض قبل ساعة و أن صحته تحسنت فجأة. فهم نيبور كلام الجار على نحو مختلف.

هاهو يخرج من بين الأشجار ويذهب إلى باب الدير. ألقى نظرة على برج الكنيسة ورأى طيراً يجلس هناك ويحرك رأسه يمنة ويسرة.

«اللعنة» غمغم كارستن نيبور.

كان كارستن نيبور أول الواصلين.

وجد الباب الخارجي لقبو الدير موارباً فدفعه ودخل. كان باباً ثقيلاً من الخشب سرعان ما أزّ ومالَ حتى عاد إلى وضعه الأول. ردهة الدير مخروطية وعلى جانبيها غرف صغيرة، بدت لكارستن نيبور كأنها ممر في

سفينة. جلس في الظلام، سبق أن جلس في هذا المكان مرّات عديدة خلال الأعوام الماضية، هو يعرف كل ما يتعلق بالدير. وإذا نسيت أورسولا أن تغلق الباب الداخلي للقبو فإن كارستن نيبور يستطيع أن يقول مَن مِن الراهبات تلك التي يسمع الآن صوت قدميها.إنه، ببساطة، يحفظ الدير عن ظهر قلب، ويحفظ أقدام الراهبات.

قبل شهرين،مع نهاية الخريف، أجبرته الراهبة أورسولا على الصلاة أمام الصليب المعلق على الواجهة. كانت منفعلة لأسباب لم تفصح عنها وكان قد قدم للتو لزيارتها. طلبت منه أن يغني لليسوع فلم يجد أغنية مناسبة.تحب أورسولا الطريقة التي يغني بها كارستن نيبور، ومما قلته مراراً إنها تعتقد إن أغانيه على ظهر السفينة ستعدل قبس إيمانول أهمية ومهابة. همهمت الراهبة قليلاً ثم قالت له وهي لا تنظر في عينيه:

«هيا اعزف أغنية: ليكن هنالك نور».

راح الشاب والراهبة يترنمان بتلك الأغنية الدينية لفرقة هيلسونغ وورشيب، وشيئاً فشيئاً استعادت الراهبة مرحها.

الآن، بينما هو ينتظر مجيئ الراهبة سانداً ظهره على الكرسي ورأسه على الحائط، وكان يحرك أصابعه على أوتار الجيتار ويعزف الأغنية ذاتها التي طلبتها أورسولا قبل شهرين، عند نهاية الخريف:

امنحِ الضياء للأعين التي فقدت البصر

طهر قلوبنا بنيرانك

تنفّس فينا ونحن نصلي،

التمع فينا ونحن نبتهل

اخرجنا من السجن والعار

حوّل قهرنا إلى مدائح

وامنح المساكين أخباراً سعيدة.

في تلك الأثناء نزلت الراهبة من الباب الداخلي للقبو. ربما سمعت صوت الوتر. تحسست الحائط وأنارت القبو. لم يكن هناك من أحد سوى الشاب كارستن نيبور يغني «ليكن هنالك نور». حيته أورسولا بحركة وابتسامة بينما واصل هو الغناء. غمرتها سكينة ورهبة، وكانت قبل قليل تشعر بالتوتر حتى إنها تلاسنت مع واحدة من الأخوات قبل أن تبادر هي إلى الاعتذار.جلست. توقف نيبور فأشارت له تطلب منه الاستمرار. تمهل قليلاً، لم يتبادلا أي كلمات،يعرف نيبور أن الراهبة التي تجلس الآن أمامه تحب ابتهالات فرقة «هيلسونغ ورشيب».بخفة وجد نفسه يغني «السلام على الأرض».

بقي يكرر:

المجد للإله، السلام على الأرض،

المجد للإله،

حبُّه يمنح الدفء للأرواح الباردة

عندما يذوب الجليد.

تبادل الشاب والراهبة كلاماً خفيفاً بعد ذلك.

سألته:

ـ لا بد أنك سمعت الأخبار عن العاصفة؟

ـ نعم.

أجابَها.

أضاف:

أظن أنها أقرب من ذلك، ربما تصل قبل الجمعة.

ـ ما الذي يدفعك لقول هذا؟ سألته معترضة.

ـ هناك إشارات كثيرة تقول إنها وشيكة. أيضاً لا تتمتع أنباء الولاية بأي دقة.

ـ ماذا تعني بالإشارات الكثيرة؟

ـ أعني الكلاب والطيور، الإشارات التي تحدث عنها كارستن نيبور في كتابه. جئت من أسفل المدينة مشياً على الأقدام. مشيت ساعة ونصف تقريباً. كل الطيور فزعة، الكلاب مرتبكة، رأيت كلاباً تعوي بلا سبب. أخشى أن تضربنا العاصفة الليلة ونحن لم نجهز شيئاً بعد.

قالت وهي تمط شفتيها:

قد يكون صحيحاً ما قلته فيما يخص الأنباء الرسمية. أما فيما يتعلق بالإشارات فلا يمكن الجزم أن هناك إشارات جلية حتى الآن. القديسة هيلداغارد لم تشر في كتابها إلى الكلاب والطيور.

«ولكن كارستن نيبور فعل»

تظاهرت أورسولا بأنها لم تسمع جملته الأخيرة.

قامت من مكانها واتجهت إلى الباب الخارجي للقبو، فتحت الباب ونظرت إلى الخارج، أطالت النظر ثم عادت إلى كارستن نيبور وقالت:

«الليلة الماضية صعدتُ ثلاث مرات، ربما أربع مرات، إلى أعلى مكان في الكنيسة ونظرت إلى الجهة الغربية، كانت السماء مكتظة بالسحاب والظلام ولا أثر لقبس إيمانويل. في الطلوع الأخير مكثت قرابة الساعة وحدقت في الغرب. نور إيمانويل لا يأتي سوى من الغرب. لا تنتظر شيئاً من الشرق. عدت إلى ما كتبته القديسة هيلداغارد، إلى كتابها. كنتُ أسأل نفسي ما إذا كانت هيلداغارد قد حددت موعداً لظهور قبس إيمانويل. قلبت كتابها مسرعة، ووجدتها تتجاهل تلك المسألة. لكنني بعد بضعة صفحات وجدتها تقول إن بين العاصفة وقبس إيمانويل وقتاً يكفي الفلاحين.فكرت بكلامها ووجدت أن الفلاح يحتاج إلى يومين كاملين حتى يوفر الملجأ لمواشيه وآلاته، ويصنع له ولأهله مخبأ آمناً. هذه أرض تضربها العواصف باستمرار منذ قديم الزمان، ولولا الإشارات التي تصل الفلاحين لذهبت العاصفة بكل شيء ولما بقيَ هنا في أوروبا من شعب. عندما أفكر بتاريخنا بهذه الطريقة فإني أتلقى ما قالته القديسة هيلداغارد على محمل الجد.لا أظن الكلاب قادرة على التنبؤ بموعد العاصفة وإلا لفهم ذلك الفلاحون، فهم أعلم الناس بالكلاب. قالت هيلداغارد إن الله خلق الكلاب والفلاحين في الوقت نفسه. وهي تضع يدها على جبينها

قالت:المغفرة، لا أدري ما إذا كانت قد قالت هذا الكلام، لكني أجدني مؤمنة به.

بقيت تجيء وتروح، وهو يغفو على كرسيه ويستيقظ. وضعت أمامه بعض الأوراق وطلبت منه مراجعتها. اتفقت معه على الأشياء التي ينبغي أن تقال في لقاء اليوم، وتمنّت عليه أن لا يثير موضوع الإشارات.وقع بينهما جدل حول جملة من الترتيبات الفنّية لكنهما كانا قد اتفقا في الأسابيع الماضية، بُعيد خروج حورية من السجن، على الشكل الأخير الذي ينبغي أن تأخذه الرحلة. وكان ذلك الاتفاق قد وقع فقط بين الثلاثة:أورسولا، كارستن نيبور، وحورية كامل. بعد زهاء خمس ساعات من وصوله إلى الدير وصل رجلان، أحدهما كان كريمر.

ثم وصل رجلان آخرن.

ثم وصل رجل أخير.

وجاءت بعد ذلك سيدة شابه ما إن دفعت الباب ودخلت حتى خيم السكون. قامت الراهبة من مكانها، وكان كريمر قد حدثهم بكل شيء وهو يبلغهم بالموعد. كذلك تحدث إلى أورسولا وحورية كامل قبل وصول الأخيرين. سرعان ما تذكرت المرأتان تلك الشابة.وكالعادة وجدت الراهبة نفسها مضطرة لتهدئة روع كريمر. فكون الفتاة تلك شرطية جعله يرتجف مجدداً. أما عندما تذكر، فجأة، أنه سبق أن ركب عليها دون أن يكون على علم بهويتها فإن هلعاً ضرب أحشاءه من جديد وكاد يقذف بها إلى الخارج.سرعان ما استعاد رباطة جأشه. في الحقيقة يصعب تخيل

الطريقة التي سينفعل بها كريمر حين يتعلق الأمر بالشرطة. ففي كثير من الأحيان لم تكن الشرطة تثير بداخله أي قدر من الضجيج.

حيّت الراهبة ضيفتها وأخذتها إلى مكان بالقرب منها. كانت الراهبة أورسولا ترتدي زيها التقليدي، كامرأة في دير وكألمانية منذورة للإله. ومثل ألمانيات الزمان القديم لا تحب أورسولا الكلام خارج المواضيع. قالت، وقد توزع الضيوف على جانبي الردهة وجلست هي في الواجهة وإلى الخلف منها تجسيد برونزي للمسيح في لحظة الصلب:

«في ليالي العربية السعيدة كان كارستن نيبور يخرج إلى البريّة ويغني. سرعان ما كان البدو يهبون إليه ما إن يسمعوا الأغنية. كان يغني أغنية وحيدة كل ليلة، الأغنية نفسها حتى يغلبه النعاس فيعود إلى داره تاركاً البدو خلفه مأخوذين بأغنية لم يفهموا منها شيئاً. مع الأيام مات أصحاب نيبور، ونسي هو الأغنية، ولم يأتِ على ذكرها بعد ذلك. ربما كانت أغنية عن الأصحاب، أو عن الطريق، أو عن العودة. كانت الأغنية الوحيدة التي استطاعت أن تجلب البدو كل ليلة وتسحرهم. بعد رحيل كارستن نيبور بحث البدو عن الأغنية في كل مكان. اختطفوا بعض التجار الأوروبيين القادمين لشراء البن وطلبوا منهم الغناء، ولما لم يجدوا الأغنية أوسعوهم ضرباً وتركوهم عرايا في البريّة.

وذات مرة دخل أربعة من البدو إلى الميناء ومكثوا ليالٍ طويلة يتحسسون عن الأغنية، ولما لم يعثروا عليها عادوا. يقال أن سفينة نيبور لا تزال تمضي في البحار، لكنها لا تبعد كثيراً عن مياه العربية السعيدة حتى

لا تضل الطريق.وفي الليالي القصيرة من السنة ترسو على شواطئ العربية السعيدة وينزل منها أحفاد نيبور ويرددون الأغنية نفسها بالقرب من قبور أجدادهم. أدرك البدو ذلك مع الأيام، وما إن تصير الليالي أقصر حتى يتركوا البرية وينزلوا في مكان غير بعيد عن مقبرة آل نيبور. هناك يكون بمقدورهم الاستماع إلى الأغنية ولا يعلم البدو حتى الآن ماذا تقول».

هذا الدخول الدرامي للراهبة أصاب الجميع بالذهول حتى إنهم عجزوا عن التعليق. قالت الراهبة، مستكملة حديثها:

«سنذهب معاً إلى العربية السعيدة وهناك سنبحث عن أشياء كثيرة، وقبل أن نفعل شيئاً هناك سنبحث عن أغنية كارستن نيبور المفقودة.نحن لا نعلم ما بداخلها، ولماذا هي أغنية قادرة لهذا الحد، ولا ماذا وجد فيها البدو»

نظرت الراهبة أورسولا إلى الوجوه واحداً بعد الآخر وتوقفت عند عيني الشاب كارستن نيبور. سحب الشاب عينيه من عينيها وألقى ببصره على أرض الردهة، ولم يكن يفكر بشيء محدد، كان مثل البدو مأخوذاً بأغنية مفقودة لا يعرف هو عنها شيئاً.

السفينة في القبو

كانت حورية كامل أول المتحدثين.نزلت من الدير تحمل طبق حلوى في يديها، مرّت بالطبق على الضيوف واحداً بعد الآخر.بعد ذلك أفسحت لها الراهبة مكاناً إلى جوارها. تحدثت حورية عن فكرة الاعتراف بالذنوب قائلة «إنها تقي مصارع السوء، وتدحر الطبيعة، وأنها عابرة لكل الأديان». استحضرت جملة تعلمتها من متصوفة البلقان «عبدي اعترف أمامي بذنبك لأجعلك مثلي تقول للشيء كن فيكون». كانت الراهبة تهز رأسها موافقة على الكلام الذي تسمعه.واصلت حورية حديثها عن الاعتراف وكانت تنظر إلى عيني سيلفيا عندما قالت «كان السيد المسيح يقول لتلاميذه: الحق أقول لكم، ما تربطونه في الأرض يكون مربوطاً في السماء، وما تحلونه في الأرض يكون محلولاً في السماء»

واصلت حورية حديثها وهي تصرف بصرها عن الجميع:

«لكي نصبح قادرين على التحكم بإرادة السماء علينا أن نعترف لبعضنا

بالزلات كما تعلمنا من وصية يعقوب. لا شيء سيمكننا من السيطرة على البحر سوى الاعتراف بالذنب. البحر هو طريق الحوت، وفي بطن الحوت مكث يونان ثلاث ليالٍ قبل أن يلقيه الحوت إلى البر، كما نعرف من العهد القديم. في جوف الحوت اعترف يونان بذنوبه وقال إلهي إني من الظالمين. بعد نجاته من الهلاك عاد ملِكاً على جانبٍ من البر. سنعترف بذنوبنا قبل البحر، وستحرسنا طهارتنا الجديدة واعترافنا. قديماً كان الصيادون لا يذهبون إلى البحر إلا إذا تأكدوا من طهارتهم، وكان الجنود يعترفون لنسائهم بكل شيء قبل أن يذهبوا إلى المعركة»

كانت حورية تغطي رأسها على طريقة الراهبة لكن بحجاب واحد، وكانت الراهبة تلبس حجابين: أبيض يغطي كل شعرها، وأسود يغطي حجابها الأبيض مع عنقها وجانب من صدرها.بحجاب وفستان طويل مزركش بدت حورية الجديدة شديدة الشبه بحورية الأولى، التي كانت تجلس بالقرب من القطارات وتغني. قبل أن تنتهي من كلامها قالت إن الاعتراف بذنب واحد يكفي، على أن يكون ذنباً جسيماً ولا يزال يؤلم صاحبه.

رفعت سيلڤيا يدها وسألت ما إذا كان من الأفضل أن يكتب كل شخص ذنوبه على ورقة ويسلمها إلى الأب في الكنيسة فقالت الراهبة: أفضّل أن يعترف بعضنا لبعض بالزلات. علقت حورية، موافقة على كلام صديقتها: وأنا أيضاً، فالذين يرغبون في أن يسلكوا طريق الحوت عليهم أن يتحلوا بالشجاعة والطهارة معاً.

طلبت الراهبة من الشاب كارستن نيبور الحديث فقام الشاب من مكانه وذهب إلى حيث تجلس السيدتان. تركت له حورية المكان وذهبت لتجلس في المقعد الذي كان يجلس عليه. في الأثناء تلك دفع الكلب الذي كان يحملُ اسم جنرال الباب برأسه ودخل، ثم تبعته كلبته التي تحمل اسم راهبة. كانت الكلبة بيضاء عدا ثلاث بقع سوداء: أذناها ومؤخرة رأسها. وكان الكلب أسود اللون بلا أي بقع. أنّ الكلب، أو ربما كان ذلك أنين الكلبة، وأشارت الراهبة بيديها للضيوف أن دعوهما.كان الظلام والريح يغمران كل شيء في الخارج. بعد دخول الكلبين شعر كارستن نيبور بالتوتر ونظر في عيني الراهبة التي فهمت ما يجول بخاطره فطلبت منه، هامسة، الحديثَ المتفق عليه ولا شيء سواه.

قال كارستن نيبور، الشاب:

«الحقيقة أننا فكرنا ملياً ولأيام طويلة في الطريقة المثلى للقيام بهذه الرحلة، أعني بتلك الرحلة. لا يخالجني شك في أني أنا كارستن نيبور الذي كادت الملاريا تفتك به في سهول العربية السعيدة قبل مائتين وخمسين عاماً،وأن هذا الدير هو السفينة، وأنكم أنتم البعثة التي أرسلها الملك فريدريك الخامس.كما تعلمنا من الأختين، الراهبة أورسولا والمعلمة حورية، فنحن أناس سابقون»

وهو ينظر إلى سيلڤياجاداً ومازحاً في آن:

«وأنت الشقراء التي سيكون اسمها فاطمة»

واصل حديثه وهو يقلب في أوراق وضعها على طاولة صغيرة أمامه:

«وضع نيبور ورجاله أقدامهم على السفينة لأول مرة في صيف ١٧٦١، ولم يصلوا إلى شواطئ العربية السعيدة إلا في شتاء ١٧٦٣.كانت رحلة مهلكة من الصعب استعادتها في هذه الأيام. السفينة التي نقلتهم لأول مرة من ميناء هامبورغ كانت سفينة حربية، أوصلتهم إلى البحر المتوسط. من المتوسط أوصلتهم سفينة تركية إلى مصر، ومن مصر ركبوا على ظهر سفينة حجيج حتى جدّة، ومن جدّة أخذتهم سفينة بُنعمانية إلى العربية السعيدة. لم يعد لهذا الطريق البحري من وجود»

توقف برهة، كما لو كان يختبر انتباه الحاضرين.

واصل حديثه:

«أراد فريدريك الخامس من البعثة أن تجد له تفسيراً للعهد القديم، على وجه الخصوص أراد شرحاً لبعض القصص الواردة في سفر الملوك. طلب، أيضاً،أن ترسم له البعثة البحر الذي يختبئ فيه الظلام الدامس، أو سلاح الرب كما يسميه فورسكال «وهو ينظر إلى فورسكال». قبل أن تنطلق البعثة أسرّ فريدريك الخامس إلى كارستن نيبور بما يشغله أكثر من أي شيء: اجلبوا لي فتاة جميلة من بر العربية السعيدة، تأكدوا أنها بمواصفات المرأة التي أحضرت إلى الملك داود وشفته من السقم، أريد امرأة من هناك قادرة على أنَ تهبني الخلود. سأله نيبور عن مواصفات المرأة التي عالجت الملك داوود من السقم فقال إذا قرأتم العهد القديم في بر العربية السعيدة ستجدون تلك المرأة. وقبل قليل سمعنا، كلنا، الأخت

أورسولا وهي تتحدث عن الأغنية المفقود لكارستن نيبور، الأغنية التي لا تزال تجلبُ البدو من الصحراء إلى الموانئ، وتدفعهم إلى النوم جوار المقابر في الليالي القصيرة. إذا قلنا إن هذه هي المهام التي علينا أن ننجزها في رحلتنا فهي مهام كبيرة، علينا قبل ذلك أن نجد الرحلة.تحدثنا كثيراً خلال الأيام الماضية، ووجدنا الطريق، طريق الرحلة. ستنطلق الرحلة من هنا، من قبو هذا الدير، وستكمل طريقها هنا. لن نبرح هذا المكان لعامين كاملين، أو حتى هبوب عاصفتين متلاحقتين، أو عاصفة ورياح كبيرة. وسندخل البحار كلها ونحن هُنا.سنخوض الرحلة معاً، سنرسم البحار وسنكتشف الظلام الدامس وسنرى الأتراك في المحيطات، وسنسمع المدافع الانجليزية بالقرب من أسبانيا، وسنشاهد الحجيج وهم يتقافزون من السفن، وسنجلس مع الملك اسماعيل، ملك العربية السعيدة، وسنجد زوجة للملك»

لم يكن هذا الخبر الذي ساقه كارستن نيبور بتواطؤ بيّن مع الأختين بالأمر الهين بالنسبة لأناس يحلمون بركوب البحار منذ أعوام. انفجر الجدل الذي وصل حد الشجار، وسُمع نيبور وهو يصرخ مشيراً بيده إلى فورسكال «هل تعرف أين هي العربية السعيدة الآن؟»كان فورسكال يتحرك في الردهة وهو يزمجر «هذه خدعة» غير آبه بما يقوله صديقه. استطاع كريمر أن يدفع فورسكال للجلوس، وبقيت الأختان صامتتين. سأل بيرغرين الراهبة، مستغلاً لحظة من الهدوء: وكيف سنموت إذن؟

فردت الراهبة بأقل قدر من الحماس:

لماذا تشغلك النهاية إلى هذا الحد؟

أما بيرغرين، سائس الخيول البدين، فقال للراهبة:

«هذا ما سمعته منك من قبل عندما طرحت عليك السؤال ذاته. بلى تشغلني النهايات فأنا المخلوق التافه الذي تجاهله المؤرخون، وأصرّوا على القول إن أعضاء الرحلة كانوا خمسة. أنا مجرّد نادل على سفينة حرب قديمة بين جماعة من العلماء، ومع ذلك فأنا متأكد أنك قد كتبت لكل واحد منهم نهاية عداي»

حاولت تهدئته فارتفعت نبرة صوته وقال:

«أشعر بالامتنان للسيد نيبور لأنه قال في كتابه إنه ألقى بجثتي إلى البحر وهو ذاهب إلى الهند. ربما ما كان ليتذكر حتى جثتي لولا أنها ألقيت في مياه البحر مع جثة الرسام باورنفايند. ومع ذلك فأنا معني بنهايتي ولا أريد أن تلقى جثتي إلى البحر مرة أخرى»

«هراء» صرخت حورية وهي تضرب على الطاولة الصغيرة بيدها، وكانت قد عادت إلى مكانها بعد أن فرغ نيبور من كلامه.

على إثر كلمة هراء التي أطلقتها حورية هبّت سحابة حرجة من الهدوء. في اللحظة تلك وقف باورنفايند وتحدث مباشرة إلى الراهبة التي كانت فيما يبدو تبحث عن ورقة بعينها بين كومة أوراق.

«اسمحي لي بالكلام يا أخت» قال بارونفايند.

رفعت الراهبة رأسها، نظرت إليه وهزّت رأسها.

قال الرسام:

«أنا أيضاً تشغلني النهاية.من الجيد أن أذكّركم بما شاع بعد عودة كارستن نيبور وحيداً إلى الدنمرك. آنذاك قالوا إن الرجل ألقى بكل زملائه في البحر ليبقى هو المسافر الوحيد الذي زار أراضي العربية السعيدة وعرف معنى كلام الرب. الرسام باورنفايند، وهذا ما أعلمه جيداً وأدركه من واقع التطابق بين روحي وروحه، كان صحيح البدن وينعم بعافية معتبرة وكان يكتب يومياته بدقة. قال نيبور إن صديقه الرسام كان شديد السقم لحظة غادرت السفينة ميناء المخا إلى الهند، وأنه في اليوم الذي فارقته روحه كان قد صار شيئاً بالغ الصفرة والهزال.في الواقع، وقد قضيت وقتاً طويلاً في قراءة يوميات باورنفايند ورسومه وتطور حالته النفسية، لم يكن شديد السقم وهو على ظهر السفينة وكان عاشقاً أكثر منه مريضاً. ثمّة صورة لفتاة جميلة رسمها في اليوم الذي قال نيبور إنه يوم وفاته.تمضي المرأة، وهي من نساء الجبل فيما يبدو، إلى الأمام وهي تحمل شيئاً فوق رأسها وفي الوقت نفسه تلقي نظرة إلى الوراء من فوق كتفها وهي مبتسمة. ما من شيء في ما فعله باورنفايند في يوم وفاته يقول إنه كان بائساً. أنا لا أتهم نيبور بتزوير الرحلة، وأرجو أن لا يأخذ كلامي هذا المنحى. نجا نيبور من الملاريا التي قتلت كل أصدقائه، كيف نجا؟ قال إنه استعان بالطبيعة والطعام والتمارين وبفاطمة. ولكن أين فاطمة؟ لم يعُد إلى ذكرها بعد ذلك.كان باورنفايند يفعل الشيء نفسه، بحسب كلام نيبور، ورغم ذلك نال منه الموت. حسناً، لا أريد أن أقول شيئاً بعينه بيد أني أجد كلام

كارستن نيبور الذي قاله الآن لا معنى له وهو يتعارض مع أبسط الأشياء التي اتفقنا عليها خلال ما يزيد عن ثلاثة أعوام. سنغلق الباب على أنفسنا في هذا الدير لمدة عامين وسنتخيل الرحلة والعواصف.

قال وهو ينظر إلى حورية:

هل عثرتم على الطريقة التي سنموت بها هُنا؟ وهل سنموت بصورة حقيقية أم سنتخيل موتنا؟

وجلس.

تدخلت الراهبة أورسولا قبل أن يقع شيء، إذ لاحظت أن الكلمات التي هوى بها باورنفايند على نيبور قد تفسد كل شيء. فهذه الرحلة صممت، بصورة كاملة، على الرواية التاريخية التي تركها كارستن نيبور قبل قرنين ونصف من الزمن. تحدثت الراهبة كثيراً، بعثرت الموضوع ولطفت الأجواء بعض الشيء. شرحَت الشكل الذي صممته مع حورية ونيبور للرحلة، وسمع الضيوف لأول مرة الهيئة التي ستأخذها رحلتهم.

في التصميم الذي عرضته الراهبة، بحماس وقلق، سيُغلق باب الدير على الفريق، وسيكون من حق الشخص أن يصعد من القبو إلى أعلى الدير من وقت لآخر وفق ترتيب معين، قالت أورسولا. لن يذهب أحد إلى ما هو أبعد من أسوار المقبرة المطلة على سكّة الترام من الجهة الشرقية. وعندما يحين موعد وفاة شخص، كما هو مدون في مذكرات كارستن نيبور، ستفتح له أورسولا باب الدير وسيغادر المجموعة إلى الأبد. داخل

صندوق حديدي صغير ألقت أورسولا بعشرين ورقة مطوية كتبت عليها أسماء مدن ألمانية. سيلتقط الشخص، من ستحين وفاته،ورقة وسيدسها في جيبه ويمضي. بعد أن تغلق الراهبة باب الدير سيكون من حقه أن يطلع على اسم المدينة التي سيقضي فيها ما تبقى من عمره فور خروجه من الدير. لا ينبغي أن يُطلع أحداً على ما في تلك الورقة.

تأملت الراهبة، وهي تشرح، وجه سيلڤيا. وبعد هنيهة قالت ببطء وسكينة: وأنتِ ستذهبين إلى الدنمرك وستكملين حياتك كأرملةٍ للملك فريدريك الخامس. إلا أن سيلڤيا انفجرت ضاحكة وضحك معها فورسكال فقط.

«أنجزنا كتابة نهايات عددٍ منكم، بعضكم تسلّمها بالفعل. أعمل مع حورية على الانتهاء من الجزء المتبقي، أما الآن فعلينا أن نتحضّر للعاصفة» قالت الراهبة.

وقبل أن تنهي كلامها طلبت من الجميع الوقوف للصلاة ومن نيبور أغنية «كم هو رائع اسمك»اعتذر نيبور ووقف صامتاً،فقد تعكّر مزاجه بصورة كبيرة. شرعت الراهبة تنشد،وشاركها بعضهم:

كم هو رائع اسمك،

أنت لا ندّ لك،

أنت لا مثيل لك

لا الآن ولا في الأزل.

أنت الحاكم وهذه مملكتك

وهذا مجدك.

تبارك اسمك سيد الأسماء.

بعد الفراغ من الصلاة، التي أخذت أقل من دقيقتين، جلسوا. جلست سيلڤيا إلى جوار كارستن نيبور وكانت تهمس فيه وهو يهز رأسه دون أن ينظر إليها. امتلأت الردهة فجأة بالهواء المشحون، الغمغمات، الأصوات المتداخلة، والنبرات الغليظة. وخطر في بال حورية أن الرحلة يمكن أن تفسد وإلى الأبد. كانت حورية قد توصلت إلى هذه النهاية وهي في السجن، وبعد ذهابها إلى الدير شرحتها للراهبة التي سرعان ما اقتنعت. تقتنع الراهبة بسرعة، فهي في نهاية المطاف مستعدة لقبول أي خاتمة سلسة. انضم إلى الخاتمة تلك نيبور وكريمر. لم تجد الراهبة صعوبة في إقناع كريمر، صديقها القديم، أما حورية فتكفّلت بنيبور.

اختفى الكلبان داخل واحدة من غرف القبو الضيقة،ولما غنّت الراهبة «كم هو رائع اسمك» أنّت الكلبة ولعق الكلب عنقها. فهمت الكلبة أن الراهبة تقصد بعلها.

انصرف الموجودون، لنقل: البحارة، في أحاديث ثنائية. قال فون هاڤن، الخبير باللغة العربية، لحورية: انظري، نحن الآن هنا في هذا الدير ثلاثة نساء وستة رجال وكلبان. ١١ روح.

حورية: بالفعل

فون هاڤن:

لماذا لا نكمل الرحلة كما اتفقنا عليها من قبل. الجزء المهم في الرحلة هو ما سنفعله في العربية السعيدة. الغاية هناك، هناك الرب والعهد القديم والظلام وبُغية الملك دواد، هناك الموت والملاريا وأغنية كارستن نيبور المفقودة، هناك مقابر نيبور، وهناك سفينة آل نيبور تسرح بين البحر والمحيط، هناك الأكفان أيضاً.

قالت حورية، وهي تحاول أن توقف اندفاعه:

هل تريد أن تقول شيئاً عملياً يمكننا مناقشته؟

فون هاڤن: بالطبع.

تفضل، قالت حورية.

شرح فكرته:

لنسافر معاً بالطائرة، ببساطة. أين تكمن المشكلة في ذلك؟ لنصل إلى أقرب مكان من العربية السعيدة ومن هناك لنبدأ رحلتنا. بحثت عن العربية السعيدة في الإنترنت، اسمها الحقيقي هو اليمن وهي محصورة بين البحار من الأسفل والجبال من الأعلى. لا تزال على عهدها منذ هجرها كارستن نيبور. لن يسألنا أحد عن عملنا ولا هويتنا. الملك اسماعيل الذي كان يحكم الأرض آنذاك لأنه من عائلة الأنبياء لا يزال يحكم للأسباب نفسها. صار له اسم آخر. أستطيع أن أؤكد لك أنه لا يزال كما كان أسلافه يرسلُ مواطنيه الحفاة إلى الموانئ ليبيعوا القمل للأوروبيين.

وقفت حورية وقالت وهي تصفق بخفة:

دقيقة واحدة، لو سمحتم.

ثم أشارت إلى فون هافن وطلبت منه الحديث.

وقف الرجل وتحدث.

لم يكن أحدٌ من الحاضرين قد استعد لهذه الساعة. كانوا يتحدثون، في الأغلب، عن العاصفة التي ستأتي قبل موعد الرحلة وبقيت الرحلة دائماً شأناً ثانوياً. كانوا يقرأون تفاصيل الرحلة التي سيقومون بها وكأنهم عادوا منها للتو. أثار فون هاڤن بكلامه العملي والمنطقي الجدل مرة أخرى. وكانت رائحة الطين تهب من وقت لآخر من الخارج.سمع الرجل أكثر من صوت يقول إنها فكرة جيدة، ولم يعرف مصدر الصوت. شوهدت الراهبة وهي تخوض مع سيلڤيا حديثاً مليئاً بحركات اليدين وبتعابير الوجه. في تلك الأثناء فهم كريمر الإشارة التي لمحها بين عيني حورية كامل فذهب إلى الباب. فتح الباب ببطء، كما لو كان إنما يريد لفت الانتباه، وسمح لشيء من الظلام بالتدفق إلى الداخل. كانت الريح قد أصبحت أكثر ضراوة وخُيّل لكريمر أن المدينة، التي ألقى إليها ببصره، قد انطفأت. قال لنفسه إنها، بكل تأكيد، ليست ريحاً ألمانية. استطاع صوت الريح أن يضع حداً مؤقتاً للجدل.

طلبت حورية من الجميع الذهاب لمعاينة الشيء الذي سيعرضه عليهم كريمر في الخارج، بالقرب من الباب.تجمعوا هناك وكانت الريح تزداد حدّتها رويداً رويداً وربما حرّرتهم تلك الريح من شيء من الغضب.

قال كريمر، شارحاً:

«في الأسابيع الماضية قمنا، الراهبة وأنا، بعمل حفرة كبيرة هنا على مقربة من ضريح السيد أليكسندر كلاين ـ دينست، أول رجل مات في مناجم الفحم قبل أكثر من مائتي سنة.مات بعده كثيرون في المناجم ونال هو فقط لقب الشهيد. ولكي يحصل على راحة أبدية فقد ملأوا قبره بالفحم البكر، من الموجة الأولى المستخرجة من فحم مدينة إيسن. تعتقد الكنيسة، وأنا أيضاً، وربما أنتم، أنه فحم مبارك»

في سره كان يسخر من كلامه هذا ويقول لنفسه إن ثمة فرق بين أن تقول الكنيسة للناس إنه فحم مقدس وبين أن تعتقد بذلك.

أكمل حديثه:

«وسعنا قاعدة الحفرة لتصبح بيضاوية بهذا الشكل «وهو يضيء قاع الحفرة بمصباح جيب» من حسن حظنا أن الأرض هنا رخوة، فلم نحفر سوى مترين أو ثلاثة حتى وصلنا إلى قبر أليكسندر كلاين ـ دينست، ولم يكن ذلك بالعمل الشاق كما قد تتصورون. تلك كانت الطريقة الوحيدة المتاحة للحصول على شيء من فحم أليكسندر كلاين دينست. نصحتنا الراهبة، أعني نيبور وأنا، باستخدام فحم طاهر لأن ذلك من شأنه أن يجعل الذبيحة أكثر قداسة. على كل حال ـ وهم ينظرون إليه بدهشة بالغة ـ سينزل معي اثنان منكم إلى الحفرة وسنقوم بردم النفق»

عندما انتهى من حديثه وقع جدل كثير لكن كريمر، لسبب غامض، أنصت فقط لأنين مخنوق يبدو أنه لكلب وكلبة.

بينما كان كريمر يقترب من موقف الترام، أمام مخبز الكنائس الباردة، اقتربت منه سيلڤيا وأمسكت بيده. التفت الرجل إليها فاغراً فاه فمنحته ابتسامة دفعته للمضي خلفها بوقار وسكينة، وكانت لا تزال تغطي رأسها بقبعة سترتها طالعة للتو من القبو. بقيا صامتين، هي تقود سيارتها وهي ينظر في الظلام. سمعت سيلڤيا كل شيء سمعه كريمر، وهي مثله تعرف كل شيء وتجهله في الوقت نفسه. حددت لها حورية دوراً وجدته سيلڤيا كارثياً: أن تقضي عمرها في الدنمرك كزوجة لملك قديم، أو أرملة لملك قتلته الحُمى قبل قرون. كانت قد حدثت نفسها بمغامرة نادرة، ستركب البحار والمضايق وستمضي مع الجِمال في صحراء سيناء، ستستمع إلى عجلات الرب وهو يفرّ ببني إسرائيل هرباً من المصريين، وستصعد على السارية وهي تشد وسطها بمئزر مهترئ وستفك الحبال وتفتح الأشرعة. وفي الطريق إلى العربية السعيدة سترى قطعان البدو وهم على ظهور خيولهم يسابقون السفن التي تمر قريبة من البر.

انعطفت يساراً ودخلت محطة آرال القريبة من منزلها وملأت سيارتها بالبنزين. عادت إلى مقعدها ووضعت في حجر كريمر ساندويتشتين قائلة «إنها العاشرة الآن ولا يوجد في منزلي شيء لنأكله». مط الرجل شفتيه قائلاً: لا أشعر بالجوع، ولكن شكراً على كل حال. سألته، وهي تنظر يميناً وشمالاً لتتأكد من خلو الطريق على الجانبين من العربات:

بماذا تشعر الآن؟

فقال ببطء وهو يمط الحروف:

لا شيء.

ربما تذكر في تلك اللحظات أن الفتاة شرطية.

عبرت بسيارتها إلى الطريق الرئيسي وواصلت سكتها.كانت قد بدأت تمطر من جديد. قالت، وهي تراقب حركة المسّاحات الأمامية:

حلمتُ برحلة إلى الصحراء، إلى جبال العربية السعيدة.

قال كريمر:

محزن. قبل أيام رأيت اللوحة التي رسمها باورنفايند لمنزل في العربية السعيدة. كان مبنياً من الحجر على صخرة. رأيت في الصورة فتاة من الجبل في قميص من الكتان، كانت محاطة بالسحاب كأنها قديسة.

مازحته، بلا أدنى رغبة في المزاح:

محزن أنك لن ترى الفتاة المحاطة بالسحاب.

قال: ولا المنزل المبني على الصخر.

أضاف: دعينا نرَ ما الذي سنتفق عليه في لقائنا غداً.ليتنا على الأقل اعترفنا بذنوبنا الليلة.

«لن أحبس نفسي في الدير لعامين»قالت سيلڤيا بصرامة.

«لست ضد الفكرة بصورة مطلقة وأظن أن كارستن نيبور وحورية بالإضافة إلى الراهبة سيمضون فيها إلى نهايتها»قال كريمر ببرود رجل متواطئ.

«ما الذي يجعلك واثقاً من ذلك؟»

أجابها كريمر، وهو يحاول أن يخفي شيئاً أو يفصح عنه:

«أظن أن الراهبة غير مستعدة للتخلي عن الكنيسة والدير»

في اللحظة تلك كانت سيلڤيا توقف سيارتها. بقيت خلف المقود بعد أن أوقفت موتور السيارة. سألت كريمر، وهي تنظر في عينيه اللتين كانت تبرقان في الظلام كعيني قطة:

ما معنى ذلك؟ هل تريد الراهبة أن تتسلى بوجودنا لعامين كاملين وحسب؟

ـ لا أظن ذلك، فهي مؤمنة بالرحلة.

ـ هل اختارت لنفسها نهاية كما طلبت منا أن نفعل؟

ـ لا أدري، ربما لا.

ـ الإجابة الصحيحة: لا.

أضافت:

انظر، سألخص لك النهاية التي اقترحتها الراهبة: سنغادر الدير واحداً وراء الآخر خلال عامين. بعد عامين سيكون كارستن نيبور قد أعاد كتابة الرحل من جديد وسيكون آخر من يغادر وسيذهب إلى مدينة لن يفصح عنها لأحد. قبله ستكون حورية قد غادرت. أخبرتني أنها فضّلت أن تتلاشى في الظلام كما حدث للمرأة العربية التي أحبها باورنفايند وبعد أن انتهى من رسمها قهقهت وبقيت ترقص حتى حل الظلام، ثم التقطت برقعها وخرجت ولم تعُد.

ـ أها. قال كريمر الذي اعترته قشعريرة.

ـ هذه نهاية تلائم فتاة كانت حتى اليوم الذي أدخلت فيه السجن متشردة.

ـ وماذا عن الراهبة؟ سألها بتوجس وبلاهة.

ـ سأقول لك ماذا ستفعل أورسولا: ستغلق القبو، وتذهب إلى غرفتها لتقرأ كتاب هيلداغارد، وتنتظر قبس القديس إيمانويل، وربما ستؤلف كتاباً عن الروس.

ـ كتاب عن الروس؟ قال كريمر، مستغرباً.

ـ ألا تعلم؟

ـ لا، بالطبع.

ـ كان كارستن نيبور قد شرع بتأليف كتاب بعنوان «الروس قادمون». كارستن نيبور لا يحب الكتابة، كان يملي قصصه على كاسيت صغير ويدفع به إلى محل متخصص في الكتابة في وسط المدينة. السيدة التي كانت تستمع إلى تسجيلات نيبور وتفرغها على الأوراق، وكانت واحدة من فريق من أربع سيدات، وجدت الحكاية التي يرويها نيبور ممتعة وراحت تسلم نسخة ورقية مما تكتبه إلى الشرطة. قرأت الجزء الأول من كتابه. بصرف النظر عن محتواه من الناحية العقلية فقد وجدته تلك السيدة مشوقاً ومثيراً. توقف كارستن نيبور قبل عامين عن التأليف ولم يعد يذهب إلى محل الكتابة ذاك. أظن أن الراهبة قد عرضت عليه أن تُكمل هي تأليف الكتاب على أن

ينشغل هو بدراسة رحلة نيبور. التقيتها أكثر من مرة، وهي لا تعرف عني شيئاً، ودارت بيننا أحاديث كان الروس دائماً مصدر القلق فيها. وفي مرة ضمن كلام كثير قالت إنها ربما تؤلف كتاباً عن خطر الروس. قالت إنها ربما تختار له عنواناً مثل «الروس قادمون»

ـ هل تريدين القول إن كارستن نيبور قد انتهى بالفعل من كتابة الرحلة؟

ـ من المحتمل أنه قد وضع تصميماً للكتاب.

ـ ما الذي تريدين قوله؟

ـ لا شيء، أشعر بالدوار.

في تلك الليلة غادر أكثر من شخص وهو يحمل أوراقاً كُتبت عليها النهاية التي تليق به.

التحديق في العاصفة

غفى كريمر على أريكة الصالون، ثم راح في سبات عميق. أما سيلڤيا فوقفت أمام مرآة دولابها وراحت تتأمل نفسها. لقد مضى وقت طويل على اليوم الذي اكتشفت فيه لأول مرة إنها امرأة صالحة للحب. لكنه ليس طويلاً للقول إنها لم تعد صالحة له. العمل في الشرطة يجعل نهدي المرأة مع الأيام، قال صديقها الروسي، شبيهين بقبعات كبار السن. هي لا تخشى هذا الهراء، تقول لنفسها، بل شيئاً آخر:أن تتعامل مع كل فرصة حب مستقبلاً كقضية أمنية فتباشر التحقيق فيها.يعيد العمل، أي عمل، هندسة نظام الانفعالات والاستجابات لصاحبه في نهاية المطاف.ثم، وهذا ليس نادراً، ينظر الناس إلى صاحب المهنة كأنه هو المهنة نفسها بوضاعتها، قداستها، أو عاديتها.ذلك، لنقل: ربما، ما جعل سيلڤيا تتلعثم وتشعر بسخونة شديدة في عمودها الفقري عندما قال لها كريمر، الليلة الماضية، إنه كان على علاقة عاطفية مع الراهبة أورسولا قبل ثلاثين عاماً. ذهبت،

بعد أن فرغ من كلامه، إلى الحمام وأحست برغبة في التقيؤ. تخيلته راكباً على الكتاب المقدس. وعندما وضعت يدها على جبينها وأغلقت العينين رأته في أعلى التلة يدحرج الكنيسة إلى الأسفل مستخدماً قضيبه.

رأت نفسها تتدحرج ببطء إلى الثلاثين ولا شيء يوقفها شيء، لا النوم ولا العواصف.نظرت إلى ملابسها المعلقة في دولابها ولاحظت، ربما لأول مرة، أنها لا تستخدم منها سوى القطع الثلاث على الجانب الأيمن، القطع التي يسهل تناولها بمجرد أن تفتح خزانتها.أغلقت باب الخزانة واستدارت فرأت السرير كأنه قرية مهجورة.رائحة هجران وغربة، صوت رحيل، موسيقى وداع، رماد، مواكب، نساء راكضات وراء عربة مغادرة، أشياء أخرى لا حصر لها رأتها سيلفيا التي أغمضت عينيها لبرهة. الرجل الأخير الذي أحبته كان روسياً، هل تعلم أورسولا شيئاً عن ذلك؟ في الأيام الماضية اشتكت أورسولا إلى سلطات المدينة من الروس الذين يأتون نهاية كل أسبوع إلى كنيستهم الأرثوذكسية، على التلة المقابلة لكنيسة نيكولاوس. في شكواها، التي أرسلتها مكتوبة، قالت إنهم يغلقون كل الشوارع ويعطلون السير، وأن أفراحهم تكون عالية وصاخبة لدرجة إنها تخشى «قالت إنها تخشى» أن تؤثر بهجتهم المفتعلة على نفسية كبار السن الذين يشكلون أغلب سكان الحي المحيط بالكنيسة. أصرّت، لأسباب غامضة، على وصف كنيسة الروس بالأرثوذكسية وجعلتها آخر كلمة في الشكوى.قدمت أورسولا تلك الشكوى استجابة لتوسلات رجلٍ وامرأة يسكنان في الحي.

لا تدري سيلڤيا الآن ما الذي عليها فعله. لقد سمعت في قبو الكنيسة مقترحاً شديد السخافة بالنسبة لفتاة لديها عمل تؤديه وتعيش حياة صارمة. كانت لتتحمس للضياع في صحراء العربية السعيدة أو في بحارها، على الأقل فهي كانت ستقضي حياتها هناك في مطاردة الرب، في البحث عن إشاراته، وستنخرط مع السكان الأصليين الطيبين، سكان اليمن الذين وصفتهم مذكرات نيبور بأنهم أطيب شعوب الأرض وأكثرهم سعادة. إنهم البشر الذين جعلوا كارستن نيبور «قرأت سيلڤيا هذا الأمر» يقول إنه فهم أخيراً لماذا غادر الاسكندر الأكبر البلقان بحثاً عن اليمن السعيد حتى ضل طريقه ومات قبل أن يجده. كان يبحث عن الأرض التي تهب السعادة. لاحظ نيبور، تتداعى سيلڤيا الآن وهي مغمضة العينين، أن الخير والشر في العربية السعيدة شيء من الماضي، وأن الغنى مثل الفقر لا يجلبان السعادة أو المذلة. كل ما في الأمر أن سكان العربية السعيدة يشعرون بالسعادة على مر الأيام. ربما مردّ ذلك إلى حقيقة أنهم يعيشون حالة متوسطة بين اليقين والخوف، السعادة والألم، البحر والجبل. الرب خلف البحار، كما يعرفون، والقوة في الجبل، وهم ينامون بين هاتين القوتين. اكتشف نيبور ذلك وهو لا يزال في الصحراء ولم يغير ما كتبه بعد صعوده إلى الجبل.

كانت سيلڤيا لتتخلى عن الصرامة التي تنتظم حياتها فيما لو قرر الفريق أن يمضي في الرحلة. شعرت بالاشمئزاز وهي تتخيل أصدقاءها يلقون بخروف تركي إلى الجرف ويصبون عليه خمرة دنمركية قبل أن يشعلوا

فيه النار. هي الآن أمام اعتقاد مركّب، هو خليط من كل الأديان. لكنه، في مجمله، لا يلائمها. الملال الذي يطويها كل ليلة ليس ضارياً لدرجة أن يدفعها إلى الاختباء في قبو الكنيسة لعامين أو ثلاثة، لكنه فتّاك لدرجة أنه قد يدفعها إلى الفرار إلى الصحراء السعيدة. اضطجعت على جانبها الأيمن وحدقت في النافذة طويلاً وفي لحظة ما سقط الجفنان.

أيقظتها ضربات شديدة على باب الغرفة. قامت فزعة وأول شيء فعلته أنها أنارت اللمبة الموضوعة على الكوميدينة ثم وضعت كفيها على نهديدها، وهي ترتجف، قبل أن تلاحظ أنها ليست عارية. صاحت مذعورة، وهي لا تكاد تسمع نفسها «ما الأمر؟» وقبل أن تنتهي من سؤالها كان كريمر يصرخ من خلف الباب «العاصفة، العاصفة».

خرجت إلى الصالون، هرعت إلى المطبخ ثم الحمام. أرادت أن تتأكد ما إذا كانت النوافذ محكمة الغلق. عادت إلى الصالون ودفعا معاً، كريمر وهي، الكنبة الكبيرة إلى الباب المؤدي إلى البلكونة. كانت الأشجار القريبة من الدار تهوي واحدة بعد الأخرى، وبعد مضي أقل من نصف ساعة كانت المنطقة الخضراء المحيطة بالمبنى قد أصبحت جرداء، أو هكذا خُيّل لها. لم يلاحظ الاثنان، بسبب العتمة المفزعة، أن العاصفة قد اقتلعت جزءًا من سقف المبنى المقابل وأثارت الفزع في سكان الأدوار العلوية الذين هرعوا إلى الأسفل باحثين عن خباء.حاولت الاتصال بأمها غير أن خطوط الهاتف كانت قد تعطلت خلال دقائق. جهاز الراديو أيضاً لم يلتقط أي موجة، فتحت التلفزيون لتفهم ما الذي يحدث فلم تجد سوى

صوراً مشوشة وأصواتاً غير واضحة. جثت على مؤخرتها ساندة ظهرها إلى الحائط في مواجهة البلكونة. أما كريمر فقد اختفى لبعض الوقت في الحمام.

«قضي الأمر» غمغم كريمر، بعد عودته من الحمام.

قالت سيلڤيا، وهي تلاحظ أن العاصفة تأخذ تدريجياً شكل ريح عادية:

«ربما سيكون علينا الانتظار طويلاً»

قال كريمر:

«إذا قالت أورسولا أنها رأت قبس إيمانويل فسيكون علينا أن ننتظر أعواماً، فهو يظهر مرّة كل ثلاث عواصف»

قالت سيلڤيا:

«حتى إذا رأته فإنها لن تقول إنها رأته».

هزّ كريمر رأسه وهو يلاحظ بعض البيوت، في المبنى المجاور، تشعل النور.

«لا أظنها تكتم الحقيقة» قال.

«صدقني» قالت.

أضافت:

«أورسولا لا تريد لهذه الرحلة أن تبدأ ولا أن تنتهي»

أغلب الظن أن كريمر صدق هذه الكلمات، أو أنها لامست شكاً عميقاً في داخله. هو الآخر، كما نظن، لم يكن يريد لهذه الرحلة أن تبدأ. فقد لاحظ إن إحساسه بالعالم وبنفسه قد تحسّن منذ برزت هذه القصة إلى الوجود. أصبح، من جديد، يتحرك قريباً من حبيبته القديمة «أورسولا» الفتاة التي تركته في نهار بعيد، قبل ربع قرن،قائلة إن الكنيسة أولى بقلبها من رجل فرّ من الشرق ولم يخض نضالاً قط لأجل أمّته. فكّر ذلك اليوم بحديثها القاسي، وسأل نفسه ما إذا كان قادراً على القيام بشيء في مواجهة الشيوعية. منحته السماء فرصة أخرى وأعطته هذا اللقاء: هو يرتدي ملابس البحارة وهي في ثياب راهبة. لا شيء يمكن أن يضيفه القديس إيمانويل إلى الأشياء التي تشغل كريمر. ومن الأفضل أن لا يظهر قط، وأن ينتظره هو والراهبة ولا يأتي. الأفضل من كل ذلك،يخطر في بال كريمر، أن تذهب العاصفة ويذهب كل رفاقه بلا رجعة، أن لا يبقى في مدار أورسولا من أحدٍ سواه، هو الذي وإن فرّ من الشرق إلا أنه الآن جاهز لركوب البحر والذهاب إلى الرب في جنوب الأرض.ولا شك، يهجس كريمر، أن الراهبة أورسولا تدرك الآن أن الرجل الذي يقف إلى جوارها قد صار بطلاً. ولولا أن الشيوعية قد انهارت من تلقاء نفسها لكان قد ذهب إليها بنفسه.

عند الرابعة فجراً كانت العاصفة قد هدأت تماماً. كانت راهبات الدير الثلاث قد هرعنَ مع وصول العاصفة إلى الكنيسة. خلفهما ركض الكلبان. كانت أورسولا تقرع الأجراس والأختان تشعلان البخور.

بقيت أورسولا تحدّق في السحاب من نافذة عالية على الجهة الغربية من الكنيسة، ولا ندري ما إذا كانت قد لمحت قبس إيمانويل.

كانت سيلڤيا مصيبة، فأورسولا لم تعد قط إلى ذكر ذلك القبس، على الأقل أمام كريمر. لاحظت إحدى الأختين، أغنِس، أن الكلبين يحاولان دفع باب الكنيسة إلى الخارج. ذهبت إليهما وفتحت الباب فانطلقا راكضين تحت سماء ساكنة لم يعد فيها من الريح سوى النزر اليسير. بعد اجتيازهما للشارع الرئيسي القريب من الكنيسة توقفا برهة ورفعا صوتيهما بالعواء. كان عواءًا طويلاً ومتكرراً وشجياً، وبدا صوت الكلبة التي تحمل اسم قديسة شديد الشبه بالأناشيد التي تُغنى بعد انتهاء المعارك. وبدا صوت الكلب الذي يحمل اسم جنرال أشبه بأغاني الحصاد.

شيء ما لا نعرف كنهه دفع الكلب الذي يحمل اسم جنرال إلى تذكر خصمه فيردناند. جعله ذلك الشيء يختنق بصوته الأخير ثم يتوقف فجأة ويدور حول نفسه ويتشمم ذيل رفيقته قبل أن ينطلق راكضاً على طول خط الترام باتجاه المدينة. كانت الأشجار قد تساقطت بالآلاف وسدّت الطرقات. بالقرب من الطريق الفرعي المؤدي إلى المستشفى كانت شجرة كبيرة قد وقعت وسدت المدخل وهشمت سيارتين معاً، إحداهما كانت سيارة إسعاف. حادا يميناً وذهبا يركضان على طول شارع القبور الذي يبدأ من الجهة الشمالية للمستشفى. بعد بضع مئات من الخطوات كانا قد وصلا إلى دار المُسنين في الشارع نفسه. توقفا على الجهة المقابلة للدار وجلسا لمشاهدة سيارتي شرطة وسيارة إسعاف وأنوار مضاءة وحركة

كبيرة.حمل الرجال الذين يلبسون البرتقالي رجلاً مُسناً فاقداً للوعي ملابسه مضرجة بالدم، وكانت امرأة يبدو أنها ممرضة تنهر أحد الرجال الذين يرتدون الأزرق الداكن.

كان العجوز المصاب قد وقف خلف النافذة وراح ينظر في وجه العاصفة مباشرة. ذلك ما استنتجه الكلب الجنرال: لا بد وأن العجوز قد نظر إلى وجه العاصفة مُباشرة وهو ما أغضبها. إن أكثر ما يثير غضب العواصف هو أن تنظر الكلاب أو كبار السن إلى وجهها بصورة مباشرة.

ارتطمت الرياح بزجاج النافذة دافعة إياها في وجه العجوز الذي كان لا يزال مبتسماً وسعيداً حتى تلك اللحظة. هب العمال المناوبون، وكانوا رجلين وامرأة، بعد أن سمعوا أصواتاً مفزعة في الدور الثاني. أخرجوا الرجل المسن من الغرفة وكان قد غاب عن الوعي وينزف. أغلقوا الباب من الخارج فراحت الغرفة تمتلئ بالماء شيئاً فشيئاً. ولكي تتأكد المرأة المناوبة أن الرياح لن تقتلع الباب فقد ضغطت عليه بمؤخرتها لبضع ثوان كما لو أنها أرادت أن تثبته في مكانه. حدث كل هذا قبل ساعتين تقريباً ومنذ ذلك الحين لا يزال الكهل غائباً عن الوعي في كوريدور الدور الأرضي في مواجهة الباب، وحوله العاملان وبعض المسنين الذين راح واحد منهم على الأقل ينتحب. لكن الممرضة كانت تطمئنهم بين فيّنة وأخرى قائلة إن قلبه ينبض وأن تنفّسه طبيعي.

نظر الكلب في عيني رفيقته ليتأكد ما إذا كانت قد تعلمت الدرس،

فخفضت أنثاه بصرها وحركت الطرف البعيد لذيلها، ثم واصلا العدو بسرعة أقل.

يبلغ الكلبان قرابة السابعة من العمر، بفارق أربعة أشهر لصالح الكلب الجنرال، ولطالما نظرا معاً إلى العواصف والرياح من الخلف. ينتمي الكلب إلى سلالة عملاقة من كلاب نهر الرور تمتاز بأجسادها الزاهية الضخمة. كل سلالته عاشت في منازل الألمان، وقبل نصف قرن مات أكثر من نصف أجداده بسبب الحرب. أما هو فاختار التشرد حتى يستطيع النجاة بنفسه فيما لو عادت الحرب مرة أخرى، لا يريد أن يموت على طريقة أجداده. ولكي يحمي نفسه من العواصف والحروب فقد اتبع نظاماً صارماً جعل حجمه، في نهاية المطاف، صغيراً وجسده أكثر ليونة.

أما الكلبة التي أصبحت تحمل اسم قديسة فقد قفزت، قبل أعوام، من حديقة زوجين مسنين يعيشان بالقرب من نهر الرور ولحقت بكلب مر راكضاً. لم تفصح له قط عن تاريخها ولم يحدث أبداً أن قالت له ما الذي فعله أجدادها في الحرب الأخيرة.

أورسولا إلى المكتبة

«في طريقنا إلى مدينة جبلة نزلنا بخانٍ على أطراف وادي زبيد، كان الخان قريباً من الجبل وهناك شربنا القهوة. أنهكتنا القهوة والماء في العربية السعيدة، مضى علينا وقت طويل منذ شربنا النبيذ لآخر مرّة، لقد نفد علينا وفسد الكثير منه بسبب حرارة تلك الأرض. قلت لفورسكال، وهو يرص بعض النباتات في آنية نحاسية حملها معه:

هل بقي في عروقك شيء من النبيذ؟

أجاب وهو يخرج نبتة صغيرة من الإناء ويضع أخرى:

بقي شيء من الأودروير في عروق الساقين وأظن أنه سيكفيني لصعود الجبل ونزوله.

تملك امرأة الخان، والذي صبّ لنا القهوة كان رجلاً. عندما ذهبت لأعطيها ثمن القهوة، ونحن نستعد للمغادرة، وقف رجل من أهل البلدة خلفي وقال بصوت متقطع وواضح إن اسمي أحمد وأنه يعرفني منذ

سنوات. أما هي فكانت تظنّ أننا رجال دين أتراك، وطلبت مني قراءة الفاتحة، وهي صلاة معروفة لدى المسلمين. وضع الرجل، الذي منحني اسم أحمد، يده على كتفي وقال للمرأة بوقار: دعي أخي أحمد وشأنه، فلا يزال أمامه طريق طويل.

وراح يقرأ لها الفاتحة.

من عادة أهل السهل، في ربوع العربية السعيدة، سؤال المسافر عن المكان الذي باتوا فيه والمكان الذين سيقضون فيه ليلهم. ولأنهم يفعلون ذلك بنوايا حسنة فمن اللائق الرد عليهم بصدق. ذلك ما دفعني للرد على الرجل الذي كان واقفاً أمام الخان يراقب الناس «إننا ذاهبون إلى مدينة جبلة لزيارة قبر الملكة».

نصحني، وهو يحك شعر رأسه ولا ينظر في وجهي:

«لا تنخدعوا بزبيد، الناس في الجبل ليسو عراة الأجساد مثلنا بل يلبسون جلود الخراف.»

سأله فورسكال ما إذا كان يقصد نصيحتنا، فقال الرجل وهو يتأمل متاعنا:

«هل تحملون أكياساً للنوم؟ اشتروا أكياساً للنوم من أم طه.»

وكان يشير إلى مدخل باب الخان.

شكر فورسكال الرجل على نصيحته ووصفها بالثمينة. مضينا، فورسكال وأنا، نسوق حمارين على ظهريهما متاع يخص كلاً منا. تركنا

باقي أصدقاءنا في زبيد، في منزل يملكه صاحب الدولة، وبقيت فاطمة بصحبتهم. كان حماري يبدو أكثر صلاحاً من حمار فورسكال الذي كان أكثر انشغالاً بالنظر إلى المارة.

ونحن نجتاز تلك البلدة الصغيرة التي تقع على الطريق إلى جبلة لاحظنا أن الرجل الذي أسدى إلينا النصيحة يمشي خلفنا ويتمهّل،وكلما ألقى أحدنا النظر إليه صرف هو بصره إلى المنازل القريبة وإلى الزرع على جانب الطريق. قلت لفورسكال إن فكرة النوم في الكيس مثيرة: «تضع جسدك في كيس مغلق من كل الجوانب عدا فتحة عند الرأس. تتراكم أنفاسك وتدفئ جسدك. يالها من فكرة لمقاومة صقيع الجبال». كنت أشرح مسألة النوم في الكيس لفورسكال كما سمعتها في مدينة بيت الفقيه من أحد الأدلاء العرب. إلا أن فورسكال أخذ يحرك كفه أمام وجهه كأنه يهش ضباباً، وطلب مني أن لا أعود للحديث عنها فهي تذكره بالكفن. ما قاله فورسكال أجبرنا على الصمت لبعض الوقت حتى اجتزنا البلدة. هناك قال فورسكال مغموماً:

«أخشى أن يتفاقم مرض فون هاڤن»

«سيعتني به الطبيب كريمر، أو هكذا أتمنى»

«أوه، كريمر. ما الذي دهاك. الرجل لا يكاد يترك بيت صاحب الدولة»

دخلنا جبلة قبل الغروب بوقت كافٍ لصعود جبل شِدرا ومشاهدة

القلعة. تركنا متاعنا أمام خانٍ في وسط المدينة بعد أن وعَدنا صاحبه بحراسة الحمارين، كما أرسل معنا دليلاً. سألنا الدليل، الذي قال ونحن نصعد الجبل إن اسمه اسماعيل، عن الذي بنى القلعة فقال إنه حسّان الجاهلي، وهو جد قديم للبلدة وكان ملكاً. رأينا آثار مدفعية على جدران القلعة، ونوافذ ضيقة كانت في الغالب مخصصة للرماة. سألْنا الدليل، ونحن ننزل من الجبل، ما الذي حدث للقلعة فقال إنها مدافع الأتراك. من على أحد الجدران الغربية أمكن رؤية الشمس وهي تنزلق بهدوء ومهابة حتى إني نسيت اسم الدليل. وقف هو إلى جواري وسألني عن الشمس في بلادي فقلت له إنها، بالطبع، أصغر. طلبت منه، وأنا مأخوذ بتلك الشمس، أن يذكّرني باسمه فقال إن اسمه موسى.

بتنا ليلة واحدة في منزل أمّنه لنا صاحب الخان. ولأول مرة في العمر داهمني إحساس عميق، قبل أن يغلبني النوم، أني رأيت الإله من جبل شدرا»

أطلقت حورية كامل زفرات عميقة وهي تنتهي من قراءة النص بهذه الصيغة بعد تعديل رأته ناجحاً على النص الأصلي الذي جاء في كتاب كارستن نيبور.أغلقت الكتاب وذهبت للبحث عن أورسولا، وكان النهار قد انتصف، فعرفت أن صديقتها غادرت الدير قبل ساعة ولم تقُل إلى أين هي ذاهبة. تمشت حورية أمام الدير ورأت ما فعلته العاصفة الليلة الماضية بأشجار الدير. رغم كل ما يردده الألمان عن الأشجار القديمة فقد لاحظت حورية أن الأشجار الأكبر سنّا هي التي بقيت على قيد الحياة.

بقي لأورسولا تلك الرحلة، قالت لنفسها، وسوى ذلك فلا معنى للعالم. ها هي العاصفة قد مضت ولم يلتقطها أحد.

عندما ذهبت الأخوات إلى الكنيسة ليوقدن البخور ويضربن الأجراس بقيت حورية في الدير. صعدت إلى البرج، تنقلت بين النوافذ القديمة، كانت العاصفة تضرب بوحشية نادرة حتى إنها شكّت في أن تكون الرياح هولندية.

«لو رأيت قبس إيمانويل فسأعرف إنه قبس إيمانويل» قالت لنفسها ساعتئذٍ وواصلت تلفتها المذعور.

التقت الأختان، حورية وأورسولا، في المسافة الفاصلة بين الدير والكنيسة.كان قد مضى من النهار الكثير، وكانت السماء قد أرسلت زخات من المطر الخفيف على المدينة على نحو متقطع منذ الصباح. سألتها حورية إن كان كل شيء على أحسن حال، فمطت الراهبة شفتيها وحركت رأسها. وهما تمضيان إلى الدار سألتها حورية: هل رأيت القبس؟ لكن أورسولا لم تبدِ جواباً، وانطلقت وهي ترفع رداءها عن قدميها بيديها الاثنتين.

وهما تدلفان إلى الدير قالت الراهبة لحورية:

«ذهبت الريح كلها، لم يبق منها شيء.»

قالت حورية، وهي تساعد الراهبة على طلوع الدرج:

«لو انتظرناها ربما تأتي مرة أخرى»

«لا أظن هذه تأتينا ثانية، أو ربما تأتي وتقتلع كل شيء» ردت أورسولا.

وقفت حورية أمام غرفة الراهبة ريثما تبدل الأخيرة ملابسها المبللة. عندما سمعت حورية اسمها قرعت الباب ودخلت. وفي الغرفة جلست على كرسي على الجهة اليمنى من السرير.

«ما العمل الآن؟» قالت حورية وهي تتحاشى النظر في عيني الراهبة التي كانت قد خلعت غطاء رأسها وجلبابها وأشعلت سراجاً صغيراً.

«سأعمل في مكتبة المستشفى» قالت أورسولا.

«أي مستشفى، وأي مكتبة؟» ألقت حورية بالسؤال وبقي شدقها الأسفل مفتوحاً «مستشفى نيكولاوس» قالت أورسولا وهي تشير بيدها من النافذة.

«ما الذي دهاك؟ ما الذي تريدين قوله؟»

استدارت الراهبة وذهبت تقول بصرامة غير معهودة:

«انتهى كل شيء، العاصفة التي مرت بالأمس لن تعود مجدداً قبل أن تمضي الأعوام.وأظنها ستكون سنين كثيرة. لو أننا اعترفنا بذنوبنا بالأمس،لو أننا ألقينا اللحم في الحفرة وصببنا عليها النبيذ، لو لو لو كنت سأوافق على المضي في الرحلة إلى أي مكان، في قبو الدير أو في البحار. فكّرت بعد مغادرة الأصدقاء باكتراء واحدٍ من قوارب الإيطاليين القديمة كبديل لفكرة المكوث في قبو الدير. عرفت أن الإيطاليين يؤجرون قوارب قديمة عمرها يزيد عن مائة عام. الفرنسيون والأسبان يفعلون الشيء

نفسه. مشكلتنا الآن ـ قالت وهي تعدل وضع خيوط سوتيانها وتنظر إلى لمبة مطفأة في السقف ـ أننا لم نعترف بالذنب قبل هبوب العاصفة الكبيرة. هذا ما يجعلني أقول: لقد انتهى كل شيء. في العاصفة القادمة سأكون ربما قد أصبت بسرطان الإمعاء كما حدث للراهبة ماريا ـ إيڤا»

غمغت وأشاحت بيدها وهي تقول:

«أنت لا تعرفين الأخت ماريا ـ إيڤا.لقد انتهى كل شيء بالنسبة لي، في الحقيقة كنتُ أتمنى أن تتأخر العاصفة كثيراً لأنتظرها كل يوم. الأشهر الأخيرة الماضية كانت هي الأجمل في حياتي، عشت أنتظر شيئاً كبيراً رائعاً بحجم عاصفة. الآن وقد مضت لم يعد لدي من شيء كبير رائع أنتظره. أدركت فجر هذا اليوم أني انطفأتُ»

قامت من مكانها وأدارت ظهرها لحورية كامل التي هبت واقفة واحتضنتها من الخلف وهي تهمس:

«سنجد شيئاً جديداً وسيكون كبيراً ورائعاً وسننتظره ولن يأتي، أو سيتأخر كثيراً»

مسحت الراهبة دموعها بكم بلوزتها الخمرية، وقالت وهي تنشج:

«سأشتغل في مكتبة المستشفى. علمتُ في الأيام الماضية أنهم بحاجة إلى امرأة متقاعدة لديها خبرة مع الكتب. المرأة التي كانت تعمل هناك عرفت بإصابتها بمرض خبيث في الأسبوع قبل الماضي. زرتهم هذا الصباح وتحدثنا»

«وماذا عن عملك في الكنيسة؟ ماذا عن الدير؟»

«سأحتفظ بكل شيء وسأعمل بملابس الراهبة. لا تنسي أن المستشفى تابع للكنيسة»

تعرّفت الراهبة على حورية كامل قبل نحو عامين، وتوطدت علاقة السيدتين بسرعة. المرأة التي كانت تقرأ القرآن بالقرب من محطة القطار، والأخرى التي كانت تبكي في قداس الأحد خوفاً من الروس اتفقتا على رحلة طويلة إلى العربية السعيدة. عملتا معاً لتلك الغاية، انتظرتا العاصفة ودرستا الكتب القديمة. أعادتا كتابة الرحلة التي قام بها كارستن نيبور إلى العربية السعيدة بطريقة مكنتهما من تغيير نهايات الأبطال. بيد أن العاصفة باغتتهما بالأمس ومرّت مسرعة وربما لاح منها قبس إيمانويل. لم تشاهد أي من المرأتين القبس، لم يُشاهَد القبس وهو يخرج من فرجة بين سحابتين وينحني كأنه يشرب. حتى لو شاهدته الراهبة، حتى لو شاهدته حورية فماذا بمقدور قبس يخرج في العاصفة أن يقوله لامرأتين تتأهبان للسفر إذا لم تكونا قد اعترفتا بذنوبهما. المؤكد أن ما حدث البارحة صدم الأختين، وبطريقة ما: لقد خرّب علاقتهما. لنقُل: لقد اقتلع الأساس المتين الذي قامت عليه تلك العلاقة.ستمضى الراهبة أورسولا إلى العمل، هي لا تمزح. الراهبة أورسولا، ونحن نعرفها جيداً، لم تتعلم المزاح في طفولتها، وفي الكهولة يصبح المزاح لذة آثمة.

إلى أين ستمضي حورية كامل؟ بقيت الأختان صامتتين لبعض الوقت.

ما من كلام سوى جملة «سامحيني» التي كانت تخرج مقطعة الأوصال من بين شفتي الراهبة.

في اللحظات تلك كانت حورية كامل تفكّر بأمر جدي: لماذا لا تبحث هي الأخرى عن مكتبة في مستشفى وتقوم بتوزيع الكتب على المرضى. تخيلت نفسها وهي تغني لهم في الغرف وتوزع عليهم كتاب «وصف العربية السعيدة» وتسألهم في اليوم التالي ما إذا كانوا قد وجدوا القصة ممتعة.

اللقطة تلك، لحورية وهي تغني لثلاثة مرضى، جعلتها تتبسّم وهو ما لفت انتباه أورسولا التي فضلت أن لا تسأل عن السبب.

مقابر الفرنسيين

بقيت الشمس، في اليوم الذي أعقب العاصفة الأخيرة، مختفية. قضى فون هاڤن تلك الليلة في منزل الشاب كارستن نيبور، وكانا قد غادرا الدير قبل العاشرة. في الطريق، في الترام، ابدا فون هاڤن انزعاجه الشديد من الفكرة التي طرحها نيبور وأيدتها الأختان. احتفظ نيبور بصمته وفضّل النظر إلى الظلام من خلال نافذة الترام الذي كان يسير أبطأ من العادة. أما فون هاڤن فجعل يردد ساخراً «نختبئ في القبو لكي نكتشف البحر؟». ابتسم نيبور عندما سمع كلمات صديقه لأول مرة، ولمرة واحدة. رأى ابتسامته على زجاج النافذة ولم تعجبه.من محطة القطار المركزية اشترى نيبور صندوقاً منبيرة بيكس الشهيرة. غمغم وهو يرفع الصندوق: أضعنا الكثير من الوقت. وهما يستعدان لدفع الحساب سأل كارستن نيبور صديقه، الذي كان يقف إلى الخلف منه، ما إذا كان قد اشترى شيئاً هو الآخر فقال فون هاڤن: سأشرب القهوة.استقلا تراماً آخر ونزلا بالقرب

من منزل نيبور. سلكا الطريق إلى المنزل مشياً على الأقدام وكان مطر خفيف يتساقط. في الطريق كان نيبور يشرب البيرة ملتزماً الصمت، ممسكاً بيده الأخرى بصندوق البيرة، ويفكر باكتشاف البحر. أما صديقه فكان يشرب القهوة في آنية بلاستيكية، ويثرثر حول الرحلة. بين وقت وآخر كان فون هاڤن يعيد سؤاله: هل سنجد البحر إذا اختبأنا في القبو؟ سرعان ما لاحظ فون هاڤن أن قهوته قد امتصت برودة الهواء. غير مجرى الحديث وقال لصديقه ضاحكاً، وقد غادرا الترام، أريد منك أن تعرف الآن أن الظلام حوّل قهوتي إلى بيرة. استرسل: ما الذي سيحدث لنا إذا اختبأنا في الظلام في انتظار امرأة نزوجها للملك؟ ثم انفجر ضاحكاً. لثانية تخيل أن ضحكته قد تعطل القطارات فتوقف عن الضحك في الحال.

لما صار ممكناً القول إن منزل كارستن نيبور أصبح قريباً توقف نيبور واستدار إلى صديقه الذي كان لا يزال ممسكاً بكوب القهوة. قال نيبور، وهو ينظر إلى مكان ما إلى الخلف من صديقه:

«كان من المفترض أن يتسلم كلّ منا هذه الليلة الجزء الخاص به، ويطلع على النهاية التي اقترحناها أنا والأختان. بما إنك شربت القهوة»

قاطعه فون هاڤن:

«ألقيت بنصفها على الأرض»

«هذا يعني أنك لن تنام سريعاً. سأعطيك الجزء الخاص بك وسأذهب للنوم. لا توقظني إذا هبت العاصفة» قال نيبور.

قال فون هاڤن وهو يدس يده في جيب سترته:

«حصلت على نسختي»

وهو يدير المفتاح في باب العمارة التقط فون هاڤن صندوق البيرة من الأرض، صعدا الدرج واحتك جيتار نيبور بدرابزين الدور الثاني فتأوه صديقه لسبب غامض.

«وصل فون هاڤن مع القافلة إلى مدينة المخأ بعد يوم من وصولنا، السيد فورسكال وأنا، إليها. دخلنا المدينة على حِمارين عند الغروب قبل أن تغلق الأبواب. أمام المدخل الجنوبي ترجلنا ومضينا سيراً على الأقدام. في مصر رأينا المسيحيين يترجلون عن دوابهم إذا دخلوا مدن المسلمين وكانوا مجبرين على فعل ذلك، ففعلنا الشيء ذاته في مدن العربية السعيدة. بيد أن عرب المخأ استغربوا ذلك الفعل منا. حملنا رسالة من تاجر كبير في مدينة اللُّحية إلى تاجر آخر في المخأ اسمه سيد صالح، وكانت تلك الرسالة مما بعث فينا السكينة ونحن نقترب من المخأ. قيل لنا أن بالمدينة تاجراً وبحاراً اسكوتلاندياً يقال له فرانسوا سكوت، غير أننا تجاهلنا الاسم ورحنا نبحث عن سيد صالح. استقبلنا ولده اسماعيل، وكان شاباً متحمّساً تعلم الهولندية من هولندي مرتد كان يصطحبه إلى أعالي البحار. أخذنا إسماعيل إلى منزل له في المدينة وأحضر لنا الشراب. ولأنه لم يكن يشرب فقد غاب هنيهة ثم عاد إلينا مصطحباً رجلاً هندياً مدمناً. في اليوم التالي اكتشفنا أن اسماعيل قد عين حرّاساً على المنزل كانوا يمنعوننا من الحديث إلى المحلّيين. ومع الأيام اكتشفنا أن الحرّاس، الذين لم يتنبهوا إلى

فطنة فون هاڤن بالعربية، كانوا يترجمون كلام المحليين على خلاف حقيقته لكي يعززوا ما حكاه اسماعيل عنهم: إنهم همجيون، يكرهون الغرباء، وقد يصبحون قتلة. كان اسماعيل يفعل ذلك لكي يحتكر الأوروبيين لنفسه.

في اليوم التالي، عند الساعة التاسعة صباحاً، وصلت القافلة وأُخذت إلى الجمارك. كانت فاطمة ملتصقة بالعليل فون هاڤن طيلة الوقت ومن المحزن أنه، رغم ذلك، لم يشفَ من أسقامه. حضر صاحب الدولة إلى مبنى الجمارك وجاء اسماعيل. قام موظفو الجمارك بتفتيش القافلة، كانوا ينكشون الأشياء بعِيدان طويلة وبقضبان حديدية مسننة الأطراف. لما فتحوا صرة متوسطة الحجم كان فورسكال قد جمع فيها بعض الثعابين أصيبوا بالفزع وتراجعوا إلى الخلف، ثم صبوا جرار النبيذ على الأرض وأغلقوا مبنى الجمارك وطردونا وهم يشتمون الفرنسيين. ثم بعد ذلك رفضوا الحديث إلينا، فنحن نرغب بتسميم المدينة وذلك ما يفسر وجود طبيب ضمن الفريق. علِم البحّار الاسكوتلاندي بالأمر، وكانت علاقته جيدة بالرجال والنساء على حد سواء، فجاء مسرعاً. ساعدنا الاسكوتلاندي على استرداد بعض أشيائنا، وأخبرنا أن موظفي الجمارك ألقوا بكتبنا من النوافذ، وأن الحشرات التي وجدوها في المتاع الخاص بفورسكال قد دفعت صاحب الدولة إلى الجنون، وأنه أقسم بشرف امرأته التي يعرفها الاسكوتلاندي جيّداً أنه لن يسمح لنا بالمكوث في المدينة ليلة واحدة.بعد قرابة الثلاث ساعات عاد إلينا الاسكوتلاندي وأخبرنا

أن صاحب الدولة يريد رؤية الطبيب كريمر، وقال إنه يتمنى أن نبقى في المدينة أطول فترة ممكنه حتى تبرأ ساقه الجريحة.

في الأيام التالية رفض فون هاڤن مغادرة المنزل «كانت هذه الفقرة مكتوبة باللون الأحمر، ما يعني أنها قد تخضع لتعديل جديد». كان شحوبه يزداد قتامة، وأمكن رؤية أشياء سحيقة في عينيه الغائرتين. ما إن ينزل الليل على المخأ حتى يصير جسد فون هاڤن جمرة، ويبدأ في الهذيان. كان يتحدث عن الملوك والنساء، وأحياناً عن السفن والمعارك. في الليلة الرابعة قال إنه سيكتب وصيته وذهب إلى النوم على سقف المنزل. الطبيب كريمر صار يقضي النهار في منزل صاحب الدولة، وكان صاحب الدولة رجلاً من الجبل على علاقة وثيقة بالإمام الحاكم في العاصمة صنعاء. وفي الليل يصعد إلى السطح ويقضي وقتاً في رعاية فون هاڤن الذي كان يحتضر كل ليلة حتى الفجر، ثم يغرق في سبات عميق حتى الظهيرة. لم يكتب فون هاڤن قط وصيته. في الليلة السابعة ارتفعت حرارته كالعادة وذكر اسم امرأة عربية لا نعرفها، وكان يحدّق كالغرقى في عيني فاطمة. هوى بعد ذلك في سباته الأخير وهو يهذي بالإيطالية تارة وبالعربية تارة أخرى.

نهار اليوم التالي اجتمع عدد من الأوروبيين الذين كانوا يتواجدون في المدينة ويعملون في تجارة البن وأخذنا معاً الجثمان إلى مقابر الفرنسيين خارج المدينة. كان في مقدمة الجنازة سبعة رجال كاثوليكيين جاؤوا على ظهر سفينة من بومباي. نصحنا إسماعيل بأن نضع الجثمان في لباس ناسك حقير حتى لا يسرقه السكان المحليون، إلا أن كريمر رفض الفكرة بصورة

مطلقة قائلاً إنه سمع من زوجة صاحب الدولة قصصاً كثيرة عن تقدير المحليين لقبور الغرباء»

أحسّ فون هاڤن بانقباض في صدره وهو يقرأ نهايته على ذلك النحو، غير أن بعض الرضا داهمه لما رأى جثمانه يذهب إلى مقابر الفرنسيين. هو لا يزال هناك، تخيّل، في صحراء العربية السعيدة منذ مئات السنين يعيش كصاحب قبر فرنسي. قفز الرجل على فقرات كثيرة فقد كان يريد رؤية جنازته وحسب. الصفحة الأخيرة ستكون هي ما يعنيه الآن. ثمة نهاية وضعتها حورية وعدلتها الراهبة أورسولا.

ستكون، أخبرته حورية، نهاية مشرّفة تليق برجل كان من أعظم المتخصصين في أدب الشرق: فون هاڤن.

«مال قلب فاطمة إلى فون هاڤن. كان الرجل الوحيد الذي يجيد العربية على نحو مكنه من الثناء على جمالها بعبارات مؤثرة وهم لا يزالون على ظهر السفينة. في اليوم الأول قال إنه كان يشرح لها كيف تصنع السكاكر في أوروبا. كنت أقضي ـ من المفترض أن المتحدث هو كارستن نيبور ـ وقتاً في قياس المسافات ورسم الجبال التي كنا نراها من وقت لآخر. وكان فورسكال يقيس ملوحة البحر ويدرس أمواجه الصغيرة، وكنا نتبادل ملاحظاتنا.على خلاف البحر المتوسط كان بحر العرب هادئاً وكانت الرياح تهبّ من الشمال، وما من سفن تحمل المدفعية. انصرف فون هاڤن، الذي لم يجد له عملاً على السفينة، إلى فاطمة. ناولني، في ليلة، خبزاً ساخناً

كان العمانيون عراة الصدور يصنعونه في مقدمة السفينة. قال وهو يناولني الخبز إن فاطمة تعرف الشيء الكثير عن البحار.

ـ هل قالت لك شيئاً جديداً عن هذا البحر؟ سألتُه.

ـ قالت إنه سينتهي إلى مضيق في الأسفل وقد لا تستطيع السفينة عبوره لشدة ما هو ضيق.

ـ هل أنت متأكد أنها كانت تحدثك عن البحر؟

ـ أظنها كانت تتحدث عن البحر.

أجاب فون هاڤن مستغرباً.

عندما لاحت قباب ومنازل اللّحَيّة سمعتُ فون هاڤن يقول لبرغرين السائس إنه صار يعرف الكثير عن تلك البلاد. كان برغرين، مثلي، قد لاحظ إعجاب فاطمة ـ لنقُل إنه كان إعجاباً ـ بفون هاڤن، ولم يكن مرتاحاً للأمر. الطبيب كريمر حاول التقرب منها، كان يحاول الفوز ببعض الود نظير ساعته التي دفعها إلى مالكها القديم.بعد وقت قصير انصرف كريمر إلى عمله.

جثا فورسكال على ركبتيه بالقرب من مقعد كبير البحّارة، كانوا سبعة، في مقدمة السفينة. كان يمد بصره فوق البحر بشكل أفقي، وأحياناً ينظر من خلال ناظوره الذي يقلب الأشياء. سألته، وأنا أقف خلفه، عن الذي لفت انتباهه في هذا البحر المستوي والهادئ فقال»إنه المكان الأمثل لحروب البحار»

ـ ولكننا لم نر سفناً حربية. قلتُ له.

ـ ذلك أن الأراضي القريبة من هذا البحر لا تعرف المدفعية. قال فون هاڤن.

ـ إذا استقر بنا الحال قريباً من هنا سنعلم العرب صناعة المدفعية. قلتُ ضاحكاً.

ـ لو عرف العرب طريق المدفعية سيبحرون إلى المتوسط. قال جادّاً.

في الأثناء تلك كانت فاطمة تقف أمام الخبّاز،ناولها رغيفاً استلمته بيدها اليسرى وذهبت به إلى كريمر. رأينا، فورسكال وأنا، دمعتين لاهبتين في عيني الطبيب كريمر، ولو أنهما نزلتا لثقبتا السفينة. لقد دفعت له قرصاً ساخناً نظير كل عواطفه وساعته».

كانت الجملة الأخيرة مكتوبة بالأحمر مما يعني أن الراهبة تفكّر بتعديلها فهي وإن أرضت فون هاڤن إلا أنها جارحة بالنسبة لكريمر.

توقف فون هاڤن عن القراءة وقام يعد صفحات الجزء الخاص به. كانت زهاء 18 صفحة. يسترجع فون هاڤن يومه: ذهب مساء هذا اليوم إلى الدير وهو يحمل ثلاثة ذنوب قال إنه سيعترف بها دفعة واحدة. جلس إلى جوار حورية كامل وأظهر رباطة جأش زائفة. همست فيه حورية، وهي تعلم ربما الأشياء التي تساوره «وجدنا لك نهاية لائقة».فون هاڤن نفسه لا يملك صورة واضحة عن نهاية تليق به. كان يفكّر بأمر واحد:

لا يريد الموت في العربية السعيدة. ماذا لو سمعت الأختان ذنوبه.

خشي أن يتلعثم في كلامه إذا ما قام للاعتراف، الأمر الذي دفعه إلى كتابة الذنوب على ورقة. إليكم الذنب الذي كتبه ولم يعترف به:

«أنا ابنُ عمّي، وأبي لا يعرف عن ذلك شيئاً. كان أبي من العمال الذين رمّموا كاتدرائية كولن بعد الحرب. وبالرغم من أنه لم يكن نازياً إلا أنه كان يردد الأناشيد النازية أثناء العمل في الكاتدرائية، وقد أدى ذلك إلى طرده. وكان عمي على الضفة الأخرى يعمل في إعادة بناء الجسر الذي يصل بين ضفتي مدينة كولن ويردد مع الكثير من العمال أغاني الفلاحين. ذهب أبي بعد ذلك إلى الجسر، وهناك واصل العمل حتى اليوم الذي تصادم فيه مع أحد المشرفين، واشتبك الرجلان مستخدمين بعض آلات البناء.بعد ذلك قرر أبي الذهاب إلى الشمال، إلى روستوك،وكنت قد بلغت السادسة من العمر. صار يزور أمي مرة في الشهر. كانت أمي تعمل، وكانت تتنقل بين مواقع بناء في المدينة، ومع الأيام أمّن لها عمي شغلاً بالقرب من مكان عمله الجديد بعد الفراغ من الجسر. كان يعود مع أمي إلى البيت ويغادرنا بعد تناول العشاء، وأحياناً يواصلان الحديث حتى يدركني النعاس.مع الأيام أدركت أنه كان يضاجعها، كانا يتضاجعان بضراوة لم تكن وحسب كافية لإيقاظي، بل لحفر ذاكرتي وجرحها على نحو بالغ.ثم صرت أتلذذ بالاستماع إليهما متظاهراً بالنوم. مع مرور الوقت صرت أحنّ لتلك المضاجعات. سمعتها تحدثه عن ولده الذي يشبهه في العناد وفي الرائحة، وفهمت أنها كانت تتحدث عني. تخلى أبي عن العمل في روستوك وعاد إلى كولن، وتلاشى عمي عن الصورة شيئاً فشيئاً. سمعت فيما بعد أن عمّي

وجد عملاً في السكك الحديدية. كتمتُ السر عن أمي وأبي،عن أمي التي تعلم وأبي الذي لا يعرف. قبل عشرة أعوام، وأمي تحتضر في المستشفى، كنت أعودها، وأجلس إلى جوارها. وضعتُ على الكوميدينة القريبة من رأسها ثلاث صور تعود إلى شبابها، أظهر فيها كلها. في يوم جمعة، بين الثالثة والرابعة عصراً، طلبتُ الحديث إلى الطبيب المعالج فأخبرني أن آلامها خفت بعد أن رفع لها جرعة المورفين. قلت له إني وجدت لها مكاناً في «هوسپيتز»، وهو المكان الذي يوضع فيه المحتضرون، فقال إنها تُحتضر بالفعل ومن الممكن أن تموت الليلة أو بعد غد. مكثت جوارها حتى الثامنة، كان السرطان قد التهم عمودها الفقري. استطاعت أن تفتح عينيها ببطء شديد، كما لو أنها كانت تجرّ مقطورة. نظرت إلى الصور الثلاث، ثم إلى وجهي. داعبتُ جبينها بظهر أناملي وسألتها ما إذا كانت لديها رغبة في شيء فأغمضت عينيها ثم فتحتهما. كان تنفسها عسيراً، وكان قلبي يوشك أن ينفجر. همست فيها سائلاً ما إذا كانت تريد أن ترى عمّي أو صورة له، فأغمضت عينيها ولم تفتحهما بعد ذلك. حتى وأنا أقبل جبينها وأودعها بقيت عينيها مغلقتين وصارت أنفاسها أكثر عسرة. قبل منتصف الليل هاتفني الطبيب المناوب وقال إن أمي قد توفيت.حزن أبي على أمي بالمقدار الذي توقعته،وكان يعيش كرجل متقاعد يمضيأغلب وقته في المشي.

منذ ثلاثة أعوام يعيش والدي في دار للمسنين بعد إصابته بالعته، وفقدانه للذاكرة. في الصيف الماضي خسر فريق دورتموند مباراته أمام

شلكه فلم أتحمل الصدمة. عدت مع أصدقائي بالقطار وكنا نخلط الخمر بشراب البرتقال حتى بدأ لون العالم يتحول إلى الأصفر الداكن. كانت الأجواء لا تزال مشمسة رغم إن الساعة كانت تقترب من العاشرة. أخذتني خطاي، لا أدري لماذا ولا كيف، لزيارة أبي في دار المسنين. وجدته يمشي في حديقة قريبة من الدار، صافحني ببرود وأراد أن يواصل مشيه. جلستُ على واحدة من كراسي الحديقة ومضى هو في طريقه، ثم سرعان ما عاد إلي. سألني وهو يقف أمامي: أنت سكران؟ أجبته: أنا سكران. جلس إلى جواري ونسي ما قلته له للتو.

ـ هل تفتقد أمي؟ سألته.

ـ أوه

ـ كثيراً؟

هز رأسه وامتلأت عيناه شيئاً فشيئاً بالدمع ولم يقل شيئاً.

ـ هل تعلم أنها كانت تخونك مع أخيك، وأني لست إبنك؟

هب والدي واقفاً واختفت الدمعتان من عينيه. حملق في عينيّ واللعاب يتطاير من بين شفتيه وهو ضام قبضتيه.

«أنت خنزير» قال وهو يزمجر واللعاب يتطاير من فمه.

«إنها الحقيقة» قلتُ له وأنا أتحاشى النظر إلى عينيه.

بصق في وجهي ومضى.

بقيت في مكاني زهاء عشرين دقيقة فرأيته قادماً. بدا لي في تلك اللحظة

كما لو أنه قد شاخ عشرين سنة دفعة واحدة. صار ذابلاً ومنحنياً أكثر، وكانت قدماه تتباعدان وتقتربان كما يحدث للمرء في ساعات الذل. وقف أمامي وتأملني بسكينة وسألني: منذ متى وأنت هنا؟ لم أرد على سؤاله، جلس إلى جواري وبدأ ينتحب. قمت وتركته. وبعد ساعتين، بعد منتصف الليل، قرعت الشرطة باب منزلي بحثاً عن والدي الذي اختفى منذ أكثر من ساعة ولم يترك أثراً.قبل الفجر عادت به الشرطة، كان واقفاً أمام الكاتدرائية يتأملها من الجهة الغربية، من الجهة التي كان يعمل فيها قبل خمسين عاماً»

كيف يمكن للمرء أن يعترف بذنوب كهذه للناس، سارر فون هاڤن نفسه وهو يطوي الورقة مرة أخرى. هو الآن في منزل صديقه كارستن نيبور الذي ذهب، فيما يبدو، للنوم. هو معني، بصورة ما، بنهايته. لننسَ أمر الرحلة، فالرجل الذي يتقلب الآن على أريكة بنية اللون في منزل صديقه لديه سؤال موجع: لو سمعت حورية ذنوبه أكانت لتجهد نفسها في كتابة نهاية تليق به؟ ما النهاية التي يمكن أن تليق برجل فعل مثل ذنوبه؟

مات فون هاڤن في المخا ودفن في مقابر الفرنسيين وشيعه كاثوليكيون أقحاح، وهو الآن يحرسه أتباع الشيخ الشاذلي، كما أخبرهم نيبور. أما هو، الرجل الذي يحمل تلك القصة القذرة والمؤلمة في جمجمته، أيستحق نهاية أفضل من نوم ناعم على سطح منزل قريب من البحر؟

جبل صبر

كان فورسكال آخر الذين غادروا الدير قبل وقوع العاصفة. وكان الضيف الوحيد الذي شيعته حورية كامل حتى الخارج، حتى المقبرة. سألته حورية، وكانت تمسك بيدها حزمة من الأوراق، عن رأيه فيما سمعه فقال «لقد قلتُ رأيي بصراحة ومع ذلك فسأدرس الموضوع بمفردي»

«ستجد هنا على كل حال نهاية تليق بشخص مثلك»

قالت حورية وهي تسلمه الأوراق.

«أرجو أن تكوني قد عثرتِ على طريقة لنجاتي»

«وجدتُ لك موتاً مشرفاً» قالت، وهي ترنو إليه بعين واحدة.

ولمّا لم يحرِ جواباً، وبقي يتأملها بثبات كأنه يراها لأول مرة، قالت ضاحكة:

«بدلاً عن فرار اليهود في الظلام حاملين تابوتك على الأكتاف... «

قاطعها فورسكال، الذي لم يبد ارتياحاً لطريقتها في الحديث:

«أرجوك، أنا أعرف هذه القصة جيدا، وسبق أن ضحكنا عليها نهاراً كاملاً وأنت في السجن. يومها قلتُ لك إني سأذهب إلى العربية السعيدة لأستعيد تابوتي. لم تعُد هذه القصة تسليني. في الحقيقة تمنيتُ لو أنكما، الراهبة وأنت،...»

تركته حورية كامل يتحدث، لكنه حبس الجملة الأخيرة في فمه وراح يهزّ رأسه يمنة ويسرة ثم مد يده مصافحاً.

«فكّر بالذنب الذي ستعترف به في الغد»

قالت حورية وهي تصافحه.

«في الغد؟» تساءل فورسكال بنبرة عامرة بالمكر والسأم.

كأن هذا الحوار المقتضب، كما خطر في بال حورية وهي تدلف إلى القبو، جرى بين شرطي قديم ومتشرّدة سابقة. هذه الفكرة تسببت برعدة بسيطة في خصر حورية كامل وفقراتها السلفى وربما سمعتْ بداخلها صوتاً يقول إنه آخر حوار سيجري بينهما.

أما الطريقة التي سيموت بها فورسكال، كما انفردت الراهبة أورسولا بكتابتها دون تدخل من حورية، فكانت كالتالي:

«تعلم فورسكال العربية بسرعة، وصار أقربنا إلى العرب. ذهب يطارد النباتات والحيوانات الصغيرة ففتحت له تلك المهمة قلوب السكّان. غير أنهم ذهبوا به بعيداً وأغووه بالجبال. حدثوه في المخا عن جبل اسمه صبر،

يحيط بمدينة تعِز. قالوا إنه هزم الإمام الحاكم في كل الحروب لسببين اثنين: قبر الملك إسماعيل، وزهرة الفارس. الملك إسماعيل هو الجد الأقدم لأهل الجبل، كان نبياً ويعرف مُراد الإله وحِيله. حاول جنود حاكم المدينة، مراراً، صعود الجبل وفي كل مرّة كان قبر الملك إسماعيل يردعهم، وهم لا يعرفون حتى الآن كيف كان يفعل ذلك. وعندما حاول الجنود الالتفاف على الجبل من الجهة الغربية صرعتهم زهرة الفارس. عاد الفارون من الجنود إلى ثكناتهم في المدينة وهم يسحبون جارية في العشرين من عمرها كانت ذاهبة لتجلب شيئاً لشيخها. أسخطت تلك الجارية مدينة تعِز لأيام طويلة إلى أن أطلق الحاكم سراحها.

وصلنا إلى تعز قادمين من المخا، وكان أول شيء أراده فورسكال هو الصعود إلى الجبل وزيارة الملك إسماعيل. ذهبنا برسائلنا إلى حاكم المدينة وتحدث الرجل إلينا بلين وود، قال إنه سمع الكثير عنّا وعن حقيبة الثعابين التي نحملها فوق رؤوسنا. قلنا له ما من ثعابين في حوزتنا ولاحظنا أنه لم يصدّق ما قلناه. حذرنا الحاكم من أشياء كثيرة: من القاضي، من جبل صبر، وأن يحل علينا الليل ونحن خارج الأسوار.

صباح اليوم التالي، باكراً، ذهبت لزيارة قبر النبي موسى، وكانت عليه كتابة عجز اليهود والمسلمون عن فهمها. أما فورسكال فلم نعثر له على أثر حتى الليل. اصطحبه واحد من خدم الحاكم، وكان جندياً انهزم كثيراً، وذهبا معاً إلى الجبل. على أعلى قمة من الجبل ينام الملك إسماعيل في قبره معطياً ظهره للمدينة. لو نظر إليها، قال الخادم، لاشتعلت. أسفل القمة

التي يوجد عليها قبر الملك إسماعيل توقف الخادم هامساً: لا يجدر بأحد الصعود أبعد من هذا. مضى فورسكال أبعد من ذلك واقترب من ضريح الملك، ومن هناك تأمل الأرجاء.

كان الضريح محاطاً بزهور زرقاء اللون، ظنّ أنها زهرة الفارس. أدركته مهابة، وخشي من لمسها. كان كل شيء يدعو للرهبة، وبعد وقتٍ من التحديق في الفراغ المهيب لمح فورسكال ظلاماً دامساً يسري بين الجبال البعيدة، كان يتهادى بينها مثل المُزن ثم يتلاشى غرباً. خلف الجبال المحيطة بالمدينة من الغرب أمكن لفورسكال، الواقف إلى جوار الضريح، أن يرى فراغاً واسعاً ولا بد أنه البحر. أصابته معاينة الظلام الدامس بوهن شديد حتى إنه جثا على ركبتيه وتعرّقت جبهته. لجأ بظهره إلى الضريح وأغمض عينيه لوقت قصير حتى استعاد عافيته، وكف عن التحديق في الأشياء.

في تلك الليلة ضربت الحُمى جسد فورسكال، وسمعته يهذي بكلمات لا أعرفها ربما كان قد تعلمها من الخادم، غير أنه ظل يكررها حتى ظننت إنها صلوات تعلمها من سكان البلاد.

كان فورسكال هو المسافر الوحيد الذي أدرك الظلام الدامس ومسّه ذلك الظلام بسوء.سرعان ما غرق في سبات عميق فأخذه خدم الحاكم، رغماً عنّا، إلى قبر الشيخ موسى ورشوا عليه الماء والبخور. قرأ أحدهم القرآن وهو يضع كفه على جبينه. انتابني بعض الخوف، أما الآخرون، على وجه الخصوص بيرغرين، فكان الهلع من نصيبهم. وقف طبيبنا كريمر

حائراً، وفي نهاية المطاف صدق الكلام الذي سمعه عند قبر الشيخ موسى وراح يغمغم: ربما كانوا محقّين.

حملنا جسد رفيقنا فورسكال إلى قبر اشتريناه من يهودي أسلم قبل عشرين سنة.قريباً من باب الشيخ موسى،أحد الأبواب الأربعة للمدينة، حفر اليهودي ذلك القبر، ووضعنا فيه فورسكال»

قرأ فورسكال ما سبق وهو يسمع هدير العاصفة.كان يعرف أنه ترك شبّاك الحمام مفتوحاً، وبعض الملابس في البلكونة. ترك كل شيء على حاله حتى إنه لم يأبه للعاصفة، لم يصرخ «اللعنة»، ولم يقم من مكانه. استمر في القراءة تحت إيقاع العاصفة وشاهد جثته تدخل قبراً كان ليهودي مرتد. إلى أن خفّت العاصفة وصارت ريحاً خفيفة، ثم برداً معروفاً قبل الفجر. كانت ليلة خطرة، يعرف فورسكال ذلك، فيها ترك روحه وخياله يسرحان في العربية السعيدة تحت إيقاع العاصفة. طلع الصباح على أشجار ملقاة على الأرض وحطام كثير في الشارع المقابل لشقّة فورسكال. نظر فورسكال، الذي لم يذق النوم، إلى كل هذا وبدا مقتنعاً أنه أنجز أخيراً تلك الرحلة التي انتظرها أعواماً.

لن ينتظر عاصفة أخرى، قال لنفسه. أما الطريقة التي دفنه بها رفاقه فقد كانت لائقة، ومن الجيد إنهم عثروا له في بلاد المسلمين على قبرٍ يهودي. سرّه أن يعلم أنه، في زمن غابر، قد عاينَ الظلام الدامس ورأى قبضة الإله التي يضرب بها. صار، الآن على الأقل، ممتلئاً ومطمئناً. وخطر في باله إنه ربما قد صار كلّي القدرة، وأنه بعد أن عاين الظلام الدامس لم

يعد بحاجة إلى القديس إيمانويل. المدينة التي ستناسبه الآن، سارر نفسه، لا بد وأن تكون قريبة من البحر، وعليه أن يبلغها قريباً. فكّر، وهو يراقب رجالاً يزيحون شجرة عن الطريق:

سأذهب إلى هامبورغ، إلى آخر مكان في ألمانيا رآه فورسكال قبل رحلته.

طائر الكناري

أراد بيرغرين، سائس الخيول، أن يعترف بذنبه الأعظم. وفي الطريق إلى قبو الكنيسة رأى أنه ما من شيء يستحق أن يقال. التقى بصديقه باورنفايند، الرسام، في محطة قطار إيسّن واستقلا معاً الترام رقم ١٠٧ الذي يمر بالقرب من كنيسة القديس نيكولاوس. قال باورنفايند إنه لا يعرف عن نفسه ذنوباً جسيمة، ولمّا سأله برغرين عمّا يقصده بالذنوب الجسيمة قال باورنفايند «ذلك النوع من الذنوب التي تغرق السفن في المحيطات». بدت تلك الفكرة مقنعة بالنسبة لسائس الخيول، فراح ينظر إلى الخارج والترام ماضٍ في طريقه إلى أن اختفى مطعم ماكدونالدس، ثم اختفت محطة البنزين، وظهرت حديقة صغيرة إلى اليسار.

«وأنت، لا بد أن لديك ذنوباً؟» سأل باورنفايند صديقه.

«أنا؟» أجاب سائس الخيول.

لم يتحدثا بعد ذلك عن الذنوب إلى أن غادرا الدير.كان الرجلان

غاضبين وهما يغادران حتى إنهما لم يجيبا الراهبة أورسولا التي أرادت تعرف ما إذا كانا سيجيئان في الغد، وما إذا كان أحدهما على الأقل قد تسلّم «نهايته». هكذا قالت: نهايته.

جلس الرجلان ينتظران ترام العاشرة إلا عشرة، ولشدّة ما كانا غاضبين فقد عزفا عن الحديث. بعد هنيهة قال السائس لرفيقه دون مقدمات:

«أنا من مواليد إيسن، ابن هذه المدينة»

«سبق أن أخبرتني بذلك» قال الرسام باورنفايند وهو يحدق في الإشارة الحمراء دونما سبب.

«تركتُ رجلاً يموت في المنجم ولم أخبر أحداً قط»

«تركتَ رجلاً يموت في المنجم؟» غمغم باورنفايند بهذه الجملة مرتين أو ثلاثة إلى أن أدرك معناها، فاستدار إلى رفيقه وقد اتسعت حدقتاه وراح يعيد الجملة للمرة الرابعة أو الخامسة.

«نعم، لقد تركت رجلاً يموت في منجم للفحم»

اقترب منه باورنفايند حتى كاد صدرا الرجلين أن يلتحما. كان باورنفايند قد حدث نفسه، وهو يغادر باب القبو، بالعودة إلى الحياة التي يعرفها الناس وترك رفاقه إلى الأبد. كأن السائس بيرغرين، وهو يلقي عليه بتلك المفاجأة، قد فتح له الباب قائلاً: إنه قرار جيّد، فلا يجدر بك أن تكون رفيقاً لرجل ترك صديقه يموت في منجم.

قال بيرغرين:

«كان اسمه لوكاس، ابن جارنا الذي يعمل سائقاً للشاحنات، وكان في السادسة عشرة من عمره، قريباً من سنّي آنذاك.كان منزل جدّه يبعد عن منزلنا بضع مئات من الأمتار، وكان جدّه شاعر المناجم في ما مضى من الأعوام. كان يوم أحد عندما قررنا النزول إلى قاع منجم للفحم في شمال المدينة، يتجاوز عمقه الألف متر. أحضر لوكاس طائر كناري من منزل جده. ارتبط جدّه بالكناري كما ينبغي لعامل أصيل في منجم للفحم، فما من شيء كان يبقيهم على قيد الحياة سوى طيور الكناري. اتفقنا على أن أمسك بقفص الطائر بيدي بينما سيقوم لوكاس بالحفر مستخدماً آلة يتركها العمال في الأسفل، في القعر. مكثت في مكاني على ارتفاع لا يزيد عن عشرين متراً عن القاع، وهبط لوكاس حتى الأسفل. وكان صوت الآلة وهي تحفر يصم أذني. سرحت قليلاً إلى أن أفقت على سقوط الطائر في القفص، ولا بد أنه قد مات.يقتل غاز أول أكسيد الكربون طيور الكناري أولاً، فإذا سقطت رؤوسها فلا بد من مغادرة المكان في الحال. اعتاد آباؤنا على استخدام هذه الحيلة لتفادي الموت الصامت في مناجم الفحم. صعدت السلم مسرعاً والهلع يكاد يلقيني إلى الأسفل، لم أتخل عن القفص ولم أصرخ، ولما صرت في الأعلى وتحسست نفسي أدركت فداحة ما فعلته. وبدلاً عن أن أفعل أي شيء، أصرخ طلباً للنجدة أو ألقي بحجر إلى الأسفل لتنبيه لوكاس، أي شيء ذي معنى أو بلا معنى.. فقد وليتُ هارباً، وكتمت سرّي حتى هذه اللحظة».

توقف بيرغرين عند هذه الجملة ثم ألقى ببصره إلى الجهة التي سيأتي

منها الترام، كأنه كان يخشى أن تقع عيناه على عيني صديقه.بقي باورنفايند صامتاً.

بعد دقائق معدودة صعد بيرغرين إلى الترام وبقي واقفاً عند الباب يحدق في باورنفايند الذي عبر الشارع إلى الجهة الأخرى

ولم يَعلم له بعد ذلك أثراً.

أفزع ذلك الوداع روح بيرغرين فأحس بأن الترام يضيق عليه ويخنقه. تذكر ما كان يعرفه عن نهايته إذ يلقي كارستن نيبور بجثته إلى البحر. إنها نهاية مفزعة تليق برجل ترك صديقه يموت في منجم للفحم وولى هارباً. وصل إلى منزله وفتح كل النوافذ، فقد كان يحس بالاختناق، وفجأة هبّت العاصفة بوحشية منقطعة النظير. جلس بيرغرين على أرض الصالون ومدد رجليه. كان قبل أن تهب العاصفة قد شرب زجاجتين من بيرة «شتيرن» التي يفضلها عندما يحس بانقباض في صدره، وفي العادة لا يشربها سوى في الحدائق العامة ومداخل الغابات.ها هو يمسك بالثالثة. ترك نفسه للعاصفة وتمنى لو أنها حملته معها وألقت به في البحر كما فعل كارستن نيبور.بقي يشرب بلا انقطاع وهو مغمض العينين والأمطار تتدفق إلى منزله بغزارة.أحس بالمياه تبلل مؤخرته وساقيه، ارتفعت المياه أكثر من ذلك فأحس الرجل بالغرق. ها هي الرياح تضرب السفينة والمياه تغمرها شيئاً فشيئاً، وهاهو البحار بيرغرين يوشك على الغرق. واصل الشرب مستسلماً لقدره، فقد ترك ديار العربية السعيدة خلف ظهره بعد موت رفاقه وهو الآن على ظهر سفينة من الخشب ذاهبة إلى الهند ويوشك أن

يموت.سرعان ما أحدثت المياه ماساً كهربائياً صاعقاً ظنّ الذين رأوه من العمارة المقابلة أنه برق. كان بيرغرين سعيداً في لحظاته الأخيرة تلك. في ضوء ذلك البرق الأخير رأى بيرغرين صديقه لوكاس طالعاً من المنجم وبيده قفصٌ لطائر على قيد الحياة.

أما فون هاڤن فحدث معه أمرٌ آخر..

فعندما وصلت العاصفة كان لا يزال يقرأ في شيء ما، ربما كان شيئاً غير النص الخاص به أو هو ذلك الجزء نفسه. في تلك الأثناء كان كارستن نيبور قد أخلد إلى النوم. بقي فون هاڤن على مقعده، ولم يقل سوى كلمة واحدة «اللعنة».أما نيبور فهبّ فزعاً إلى الصالون، أطفأ الأنوار وراح يحدق في الرياح من نافذة مطبخه تارة، ومن نافذة الصالون تارة أخرى. كان يدور مثل كلب قطعت له أرملةٌ ذيله، ويزمجر «قلتُ لها، الحمقاء لقد قلتُ لها». حاول فتح نافذة المطبخ قليلاً ليتأكد من قوة الرياح، ما إذا كانت مجرّد رياح قوية أو عاصفة، فصفعته النافذة حتى طيّرته إلى الأرض وتدفق المطر إلى الداخل. استغاث نيبور بصديقه، وفي لحظة تمكن الاثنان معاً من إغلاق النافذة وهما يلعنان الرياح ولم يذكرا العاصفة.

«هل جننت؟ تريد أن تختبر العاصفة» غمغم فون هاڤن وهو يقلب كفيه لينظر ما إذا كان قد أصيب بجرح.

«قلتُ لها إن موعدها الليلة فسخرت من كلامي» قال نيبور الذي ألقى بجسده إلى الأريكة ومد رجليه.

أصاخ كارستن نيبور سمعه للرياح، وبدا له إنها تعوي أحياناً، وربما مرت أمام عينيه المغمضتين فرآها على هيئة كلبة مجروحة الذيل. أنار برقٌ ظلام المنزل، وفي ضوئه خيّل إليه أن صديقه قد أصبح جثة.

«فون هاڤن» نادى،

فقال الأخير «أنا بخير»

قالت له حورية إن البرق لا يضرب سوى البيوت التي حلت بها الشياطين، وأنه كان في غابر الأيام إنما يضرب الحجيج والفلاحين «ابتلاء أو تطهيراً».تمتم نيبور بكلمات مناهضة للشيطان غير أنه، في قرارة نفسه، تمنى لو أن هذه الرياح تجد الشيطان، ثم تقوم بأمطارها وبرقها وتلقي بهذا المنزل إلى بحرٍ بعيد، على أن يكون بحراً قريباً من اليابسة.

استعاد في ذهنه بضعة سنوات من الانتظار والتفكير، من الشك واليقين، وها هي العاصفة التي كان من المفترض أن تفتح له الأبواب قد ولّت. لم يتحضروا لها كما ينبغي: لم يعترفوا بالذنوب قبلها، لم يشووا الخروف ساعة هبوبها، لم يصعدوا إلى أبراج الكنيسة في انتظار قبس إيمانويل، ولم يقولوا بعد من هي المرأة التي ستكون زوجةً للملك.

كان واثقاً، وهو يرى العلامات، إن العاصفة ستباغتهم، بيدَ أن الراهبة أورسولا بدت واثقة أكثر من كلامها وهي تقول «لدينا وقت كافٍ».صعد الدم إلى رأسه ثم هبط إلى أحشائه، كان دماً ضارياً ولولا أنه حاول السيطرة على أنفاسه لسمع خرير دمه في قاع الغرفة. خُيل إليه،

وهو يتنفس ببطء من خلال أنفه، أن دمه إذا قفز فإنه سيعض العاصفة في خصرها وقد تولي إلى الأبد. لقد عثر البارحة على المخرج، وجد الطريق، أو لنقل: اكتشف اللغز. لكن شخصاً ما في الدير سخر من اكتشافه. كم هي مؤلمة هذه الحقيقة، إن ألمها يبلغ بالمرء حد الاختناق، وعلى وجه أخص حين يتعلق الأمر بالأشياء التي لا تحدث سوى مرة واحدة ثم يصير كل شيء ماضياً.

ما الذي بمقدوره أن يفعله الآن؟ فكّر بأمر غاية في الطرافة: سيذهب إلى الدير في الليالي المقمرة، وهناك سيقوم بلعق برج الدير من الخارج حتى يدركه النعاس أو يسمع أنين الراهبات النائمات. إذا أنّت راهبة نائمة لأن رجلاً تسلق برج الدير فإن ريحاً واسعة ستضرب المدينة في الحال أو بعد عام. إنه يفكّر بمعادلة ما تكون قادرة على استفزاز الرياح وجلبها بدلاً عن انتظارها. ذلك ما دفع هذه الأفكار الضالة إلى التدافع في رأسه. الآن، وهذه الأفكار تعصف به، هبطت عليه السكينة وغطّ في النوم تاركاً العاصفة تفعل ما بدا لها.

أما صديقه فون هاڤن، الذي سرّه أن يرى نعشه يحمله بحّارون كاثوليكيون ثم يضعونه بين قبور الفرنسيين، فقد بقي يقظاً حتى الفجر. غادر فون هاڤن مع حلول الفجر منزل صديقه دون أن يترك خبراً خلفه، وكان ذلك آخر عهدهما معاً. حتى الأوراق التي تحمل النهاية اللائقة به تركها في مكانها.

في تلك الليلة رأى نفسه محمولاً إلى قبور الفرنسيين، سمع المشيعين

يقولون إن العالم خسر أفضل رجل يفهم الشرق،وقالت الأوراق إنه صار وإلى الأبد في حراسة رجل صالح اسمه الشاذلي. بعد أن انتهى من قراءة كل هذا هبّت العاصفة وملأت المدينة عويلاً، أما هو فقد سكّنت روحه وطهّرته. لقد عمّدت الرياح نهايته اللائقة.

بالنسبة لفون هاڤن، دعونا نفترض أن الأمور جرت معه على هذا النحو: فقد انتهت رحلته.

شاي لاثنين

انتظرت سيلڤيا حتى نهار الأحد. كما توقعتْ فقد لمحت الراهبة أورسولا وهي تدخل المقبرة بعد قدّاس الحادية عشرة. تظاهرت سيلڤيا بتأمل قبر، حتى إنها جثت على ركبتيها وراحت تنظف الشاهدة الرخامية وتقرأ عليها: كلما دنوتَ من قلبِك صرت قريباً من الله.ذهبت الراهبة إلى قبر لا يبعد كثيراً عن السور المحاذي للمستشفى، وهناك جلست على ركبتيها وبقيت ساكنة لبضع دقائق. عندما لاحظت أن ظلّاً يقترب منها هبّت واقفة، ولما وقعت عيناها على عيني سيلڤيا ارتبكت قليلاً. فهمت سيلڤيا في الحال أن رجلاً روسياً هو صاحب القبر، أو على الأقل كان الاسم روسياً.

خاضت السيدتان حديثاً حول أشياء لا علاقة لها بما تتوقعه كل منهما من الأخرى. قالت أورسولا «انظري،لم يأتِ الربيع بعد ومع ذلك فها هي الورود تغطي المقبرة من جديد. الورود دائماً على عجلة من أمرها».

وقالت سيلڤيا:

«هذه ورود عنيدة، لاحظي أن العاصفة لم تصبها بأذى»

«العاصفة» غمغمت أورسولا وهي تحرك رأسها يمنة ويسرة، ولمحت سيلڤيا غمة مفاجئة في ملامح الراهبة.

توقفت السيدتان وتقابلتا، وبدتا مستعدتين لآخر حديث بينهما.

«ما العمل الآن؟» ألقت سيلڤيا بسؤالها بلا مقدمات.

«بخصوص ماذا؟» ردت الراهبة متظاهرة بعدم الفهم.

«فيما يخص البحث عن العربية السعيدة»

«ألم أخبرك أني سأعمل في مكتبة المستشفى؟»

قالت وهي تشير بيدها إلى المبنى الكبير المقابل للكنيسة.

«لا لم تخبريني»

«أوه، ها أنتِ عرفتِ. جرت الأمور بسرعة، حتى إنهم وافقوا على ملابسي هذه. لا أبحث عن دخل جديد. تعرفين،يمكن للسأم أن يقتل امرأة بهذه السن. العمل في الكنيسة رتيب. شجعني كريمر على هذه الفكرة وسيساعدني بصورة غير رسمية. أنا سعيدة لأنه بجانبي، أثق بطيبته ورأيه. أبلغتني مديرة الرعاية الروحية في المستشفى إنها لا ترى مانعاً من ذلك»

لاحظت سيلڤيا أن الراهبة استعادت مرحها، مبتعدة تماماً عن الموضوع الذي تريد سيلڤيا الخوض فيه. من الواضح إن سيلڤيا ارتبكت وداهمتها خشية غريبة. ليس بمقدورها الحديث إلى امرأة في أمر تريد نسيانه إلى الأبد.

أرادت أن تسألها عن حورية غير أن شجاعتها خانتها. لقد حددت الراهبة طبيعة الحديث الذي يمكن أن يدور في هذه اللحظات، ومن المتوقع أن تنهي الحديث في أي لحظة وتمضي إلى الدير.مستقبلاً، فهمت سيلڤيا، ستدور الأحاديث بينهما بهذه الطريقة فيما لو رغبت الراهبة بالحديث. في اللحظات تلك قررت سيلڤيا نسيان الراهبة إلى الأبد.

سمعت سيلڤيا بموت بيرغرين وتمنّت لو أنها تحدثت مع الراهبة في ذلك الأمر، وفي أمور أخرى. لو أن الراهبة دلتها على عنوان كارستن نيبور. حسناً، جرى الحوار بتلك الطريقة وستتدبر سيلڤيا، العازمة على شيء ما، أمرها.

في اليوم التالي، الاثنين، كانت سيلڤيا تجلس في مكتبها. توصلت إلى عنوان الشاب كارستن نيبور من خلال قاعدة البيانات المتوفرة لدى جهاز الشرطة. تمام الرابعة مساء أنهت سيلڤيا عملها وركبت سيارتها قاصدة منزل نيبور. ضغطت على الزر ففتح نيبور الباب الخارجي دون أن يسأل عن هوية الضيف. وصلت سيلڤيا إلى الدور الثاني فوجدت باب شقته مواربا. طرقت الباب فجاءها صوت مشغول «ادخل».كان صوت نات كينغ كول يملأ المكان بأغنية «ولد الطبيعة». أخذتها الرهبة وهي تدلف إلى الداخل، كان الشاب نيبور يقلب كتاباً ضخماً ويكتب على حوافه شيئاً بقلم رصاص. بالقرب من النافذة كانت أسطوانة الموسيقى تدور بهدوء ونات كينغ كول يردد بصوته المليء بالشجن والتيه:

قالوا إن الولد جاب البحار والأراضي البعيدة

كان خجولاً وعيناه مليئتان بالحزن

وكان حكيماً أيضاً.

وفي يوم رأيته في طريقي وتحدثنا عن أشياء كثيرة

عن الملوك والحمقى

وإليكم ما قاله لي:

أعظم الأشياء التي ستتعلمها من هذه الحياة

هي أن تحب

وأن تحصل على الحب.

انتظرت سيلڤيا حتى قال نات كينغ كلمته الأخيرة في الأغنية: In Retuuurn. هنا رفع نيبور رأسه، فحيته سيلڤيا بابتسامة، وبقيت في مكانها. قام الرجل إليها مسرعاً. وهو يصافحها قال إنه كان ينتظرها، فسمحت لنفسها بتصديق كلامه.

«كأنك كنت تتحضر للخروج؟» قالت متسائلة.

«إنه المساء، هذا موعد ظهوري» قال مشدداً على كلمة ظهوري، وضحكا.

«ماذا حل بالمجموعة؟»

«انهارت، ببساطة. مات بيرغرين، وتركت حورية الدير إلى مكان غير معلوم، واختفى الآخرون»

«وماذا عن أورسولا؟»

«لقد وجدت لها عملاً آخر، هكذا قالت لي بالأمس. ولما سألتها عن مصير الرحلة كررت حديثها قائلة إنها وجدت عملاً آخر، وسلمتني ما بحوزتها من الكتب والأوراق» قال وهو يشير إلى المكان الذي كان يجلس عليه، هناك حيث يمكن للمرء أن يدرك ما الذي يريدنيبور قوله.

ألقت سيلڤيا نظرة على الكتب، وراحت تدور في المكان. كان نات كينغ قد انتقل إلى أغنيته التالية «ابتسم». أخذتها الأغنية،دوناً عن سواها، من أعماقها وعصرتها، أو لنقُل كأنها نفخت روحاً جبّارة في أحشائها. كان نات كينغ يغني لها، هي لوحدها، قائلاً:

ابتسم حتى وأنت ترى الأشياء تنهار.

سرعان ما عاد نيبور من المطبخ وهو يحمل كوبين من الشاي، قال وهو مرتبك:

Tea for two

قالت سيلڤيا: لنسمعها إذن.

توقعت أن تسمع نات كينغ كول وهو يعزف على البيانو «شاي لاثنين» غير أنها تفاجأت بصوت دوريس دي.

«دوريس داي؟» قالت متسائلة.

«في الخمسينيات كان أغلب نجوم الچاز يغنون الأغنية نفسها أو أغاني مختلفة بنفس العنوان» أجابها شارحاً.

«سأذهب إلى العربية السعيدة» استعادت سيلڤيا صرامتها بعد لحظة صمت قصيرة.

«وكيف ستفعلين ذلك» سأل نيبور.

«سأذهب بمفردي إذا لم تكن راغباً في مرافقتي»

«أنا لم أقل ذلك.خبريني أولاً بما لديك»

«انظر هنا» أخرجت من جيب سترتها ورقة عليها خارطة، على الخارطة بعض التفاصيل المكتوبة بخط اليد. شرحت سيلڤيا فكرتها. قالت إنها، أو إنهما، سيسافران بالطائرة إلى مدينة السويس بمصر. «هنا المحطة الأولى» وضعت أصبعها على الخارطة. من هناك سيستقلان قارباً، أو سفينة صغيرة، إلى ميناء المخا في اليمن، تقول الخطة. «هنا المحطة الثانية». سيدفعان مالاً كثيراً لقاء ذلك. «قد تكون خمسة آلاف دولار كافية. عند تحويلها إلى العملة المصرية تصبح أرقاماً كبيرة» قالت سيلڤيا.

واصلت شرحها للفكرة:

«لم أعد أدري لماذا أريد الذهاب إلى العربية السعيدة، عقلي مشوش بعض الشيء. شيء ما بداخلي يدفعني إلى الرحلة، كأن شيئاً ينتظرني. بالطبع ليس الملك فريدريك الخامس، بل شيء غامض لا أدري كنهه».

أكملت حديثها:

«في الشهور الماضية قرأت كل ما كتبه نيبور عن العربية السعيدة. قرأت التعديلات التي كانت حورية كامل وأورسولا تدخلانها على رواية نيبور. أيضاً قرأت كتابك الذي لم تكمله: الروس قادمون»

أخذته المفاجأة أكثر من ذي قبل. كان يهز رأسه محاولاً الابتسام. لم تدعه يتحدث، بادرته قائلاً:

«أنا شرطية، لدي مفاتيح كل شيء في المدينة»

بالنسبة له كانت هذه الجملة حاسمة، حتى إنه توقع معرفتها بأشياء أكثر فداحة.

اتفقا على لقاء آخر مساء الغد في منزلها. قلّبت كتاب «وصف العربية السعيدة» إلى أن عثرت على الصورة التي كانت تبحث عنها.

«تعال غداً مرتدياً هذه الثياب»، قالت وهي تشير إلى صورة رسمها باورنفايند لنيبور.

«ضحك وهو يقول: موافق»

أخذت سيلڤيا إجازة مفتوحة، فقد ادّعت إصابتها باكتئاب حاد. لم تستخدم الأدوية التي كتبها الطبيب، وزعمت أمامه في الأيام التالية أنها تتحسن بفعل العقاقير. قرر لها، وقد لاحظ تحسنها، رحلة استجمام لمدة ثمانية أسابيع في واحة لعلاج المرضى النفسيين قريبة من مدينة بازل على الحدود الإيطالية ـ السويسرية.

سيلفيا في مدينة الإنجليز

بعد ثلاثة أيام من التجول في ميناء السويس توصل كارستن نيبور ورفيقته إلى مبتغاهما. طلب صاحب المركب، الذي يذهب لاصطياد السمَك في أعالي البحار، سبعة آلاف دولار نظير أن يوصلهما إلى مكان مناسب على سواحل الأراضي اليمنية. حدد نيبور ميناء اللّحية على الخارطة التي في يده، أو بيت الفقيه. إلا أن صاحب المركب هزّ رأسه قائلاً إن الأمور تجري على نحو مختلف عندما يصبح المرء في البحر. وعدهما، حالفاً بشرفه، أن يوصلهما إلى مكان مناسب. قال الرجل إنه يعرف طريق الحوت جيداً، ولطالما اضطر للإبحار حتى أقصى الجنوب. قال إنه يعرف المياه اليمنية ويعرف أكثر جنّ تلك البلاد.

«قد تستغرق هذه الرحلة بضعة أيام إذا كان علينا أن نتوقف للاصطياد هنا أو هناك» قال الرجل.

ألقى بعقب سيجارته على الأرض وراح يدوسه ويحرك قدمه يمنة ويسرة، كما لو أنه يريد انتزاع فكرة ما.

«حسناً، سنصطاد في طريق العودة» قال، وأشار إلى ثلاثة من الصبيان الذين يعملون معه.أثنى أحدهم،في العشرينات من عمره، على فكرة المعلّم.

فجر اليوم التالي عند الخامسة وبضعة دقائق، في السابع والعشرين من أبريل، صعد كارستن نيبور وسيلڤيا على ظهر مركب طليت جوانبه بالأخضر الباهت. على الجانب الأيمن من المركب كان أحدهم قد خطّ باللون الأبيض «الأمير عُمر». تحرك القارب على الفور، وحصلت سيلڤيا ورفيقها على قهوة تركية قدمها أحد صبيان المعلم. في حجرة في مؤخرة المركب وضعا أشياءهما. كانا قد بلغا أعالي البحار عندما قال نيبور لسيلڤيا إنه لشيء محزن أن لا يكون لهذا المركب سارية وشراع.

على ظهر المركب اعتذر المُعلم لنيبور عن طلبه مبلغاً كبيراً من المال.

«أصبح البحرُ جافّاً ولم يعُد كريماً كما كان، وقد لا نجد سمكاً في طريق العودة» ردد بوقار معللاً تصرفه.

حدقت سيلڤيا، لبضع ثوانٍ، في صلعته ووجدت نفسها مستعدة لتصديقه.

استطاع القارب عبور «طريق الحوت» بلا مصاعب. بطلب من نيبور كان المعلم حُودة، هكذا عرّف بنفسه، يمر قريباً من البر مبطئاً بعض الشيء. وكانت سيلڤيا تفتعل الضجر وتقول للمعلم حودة «عُد بنا إلى طريق الحوت». كانت تتهجى الجملة بالعربية. وكان المعلم، ذواللحية

الخفيفة الخشنة والصلعة المُقنِعة، يقهقه. كان نيبور قد تعلم خلال السنوات الماضية القليل من العربية، وكان الصياد المصري يعرف القليل من الإنجليزية والألمانية، فهو يعرف السيّاح منذ أكثر من ثلاثين عاماً. أبدى المُعلم حودة سروراً عظيماً وهو يرى كيف تسبب الاسم الذي أطلقه على البحر في سعادة الزوجين. ظنّ إنهما زوجان. وكان صبيانه يراقبون كل ما تفعله سيلڤيا، التي ربما بدت لهم في تلك اللحظات مثل عروسات البحر، ويتهامسون.

دخل الليل ولا يزال مركب المعلم حودة ماضياً في طريق الحوت وأدرك سيلڤيا النعاس فنامت في الحجرة. بقي نيبور يقظاً. نصح الصبيان معلمهم بالإبحار حتى السواحل الجنوبية لليمن، إلى السواحل الممتدة بين المخا وباب المندب. لم يجد المعلم حودة من صعوبة في الاقتناع بالفكرة. فقد مضى زمن منذ عاد بقاربه محملاً بكميات كبيرة من أسماك السردين التي تكثر في ذلك الجزء من البحر.

«إذن سأنزلهما في منطقة قريبة من المخا في مكان مناسب» قال المعلم حودة وهو يدير ظهره لصبيانه.

وصل مركب المعلم حودة إلى سواحل المخا فجر الثامن والعشرين من أبريل.

تمنّى المعلم حودة للزوجين طريق السلامة، ونصحهما بالإصغاء لما يقوله العرب، أما مركبه فسلك جنوباً. لم يبرح نيبور ورفيقته ذلك المكان حتى ارتفعت الشمس قليلاً.

«ربما سننتظر حتى منتصف النهار حتى نرى عربياً» قال نيبور.

«ألم تقل إنك تملك بوصلة في حقيبتك؟» سألته سيلڤيا.

«صحيح، براڤو. نسيتُ الأمر تماماً» قال هو يفتح حقيبته الكبيرة.

اتخذا طريقهما قاصدين مدينة المخا ولم يستطع نيبور تحديد المسافة التي تفصلهما عنها وإن كان فهم من المعلم حودة أن المدينة تقع جنوباً. بعد ما يزيد عن ساعة من المشي، كل منهما يحمل حقيبة فوق ظهره، أبصرا ملاحات واسعة وقافلة من الإبل.اقتربا من الملاحات ولاحظا كيف نظر إليهما العرب بذهول، حتى إن أحدهمكان يحدق فيهما ويضرب جمَله بلا شعور. تقدمت سيلڤيا إلى العرب وسألت عن الطريق إلى المخا، ولم تسمع جواباً. غير أن أحد الرجال، وكان نصفه الأعلى عارياً مثل الآخرين، أشار بيده إلى الجنوب وقال جملة أو جملتين لم تدركهما سيلڤيا.

شاهدا في طريقهما بعض القوارب الخشبية الراسية على الرمل، وبعضها كان يبحر جنوباً أو شمالاً.لم يتوقف العربُ العراة عن التحديق في سيلڤيا الجميلة، ولا في كارستن نيبور الذي كان يضع على رأسه كاباً أبيض بمظلة سوداء. بعد ساعة أخرى كانا يقطعان رملاً قاحلاً وما من أثر للحياة، وكانت حرارة تلك البلاد لاهبة. قالت سيلڤيا لرفيقها إن حمارَ نيبور،قبل قرنين ونصف، سلك هذه الدروب مسرعاً ولو أبطأ لوصل المدينة بعد غلق الأبواب.

«وماذا لو أن المدينة لا تزال بعيدة؟» تساءل كارستن نيبور وهو يلهث.

انتصف النهار، وبانت قبّة بيضاء وبعض المنازل المبنية من الطين وسعف النخيل. واصل نيبور ورفيقته المشي بمحاذاة البحر متتبعين آثار الأقدام والحوافر، ما بدا لهُما أنه طريق مأمون يسلكه المسافرون. كان ذلك الطريق، بآثار الأقدام المرصوصة عليه، هو ما منحهما الأمان في تلك الأرض. نزلا في خان صغير يتزود منه المسافرون، وطلبا الماء والقهوة. كان الخان مجرد كوخ تدخل الشمس من خلال حيطانه. بعد هنيهة جاء بعض السكان الشاحبين واسترقوا النظر إلى الغرباء ثم ولوا هاربين. سألهما الرجل الذي قدم لهما القهوة ما إذا كانوا أتراكاً أو يونانيين، فقال نيبور: نحن ألمان. هز الرجل رأسه محيّيًا، ثم عاد إلى الصبي الذي يساعده في الكوخ وقال مزهواً بنفسه:

«ألم أقُل لك؟ إنهم أتراك»

غادرا الخان ولم يسألهما أحد آخر عن هويتهما ولا أين يريدان.وجدا كل شيء صامتاً، البحر، المدينة، والناس.لحق بهما صبي الخان وقال وهو يلهث»إذا كنتما تريدان المخا حيث الأوروبيون والأتراك فهي تبعد نصف نهار. اذهبا إلى قبة السبعة وتزودا بالماء. هذه قبة مباركة دفن تحتها سبعة من الأشقاء الأبرار».تهللت أسارير سيلڤيا ومنحته ابتسامة أضاءت له ما بقي من عمره، وواصلا طريقهما. قالت سيلڤيا لكارستن نيبور: ترى ماذا كان يريد أن يقول؟ فقال لها نيبور»كان يشير إلى القبة، ربما كان ينصحنا بالبيات فيها حتى الغد».

سمعا صهيل خيل فالتفتا إلى مصدر الصوت ولم يريا شيئاً.

ها هي الشمس تدنو من البحر، أو هي قد لامسته بالفعل. دخل نيبور ورفيقته مدينة المخا من بابها الشمالي. ووقف الرجلان اللذان كانا يتأهبان لإغلاق الباب صامتين. قال أحدهما للآخر: أظنهما مشردين. وقال الآخر وهو يمسك بمئزره: أو تاجري بُن.

على بعد بضع مئات من الأمتار كان»خان الأتراك« مفتوحاً. أبصرا رجلاً يرتدي ملابس ملونة يخرج من الخان وبيده طربوش أحمر اللون. مضى الرجل في طريقه وبعد بضعة خطوات وضع الطربوش على رأسه واعتدل في مشيته. دلف نيبور أولاً وألقى التحية باللغة العربية، وتبعته سيلڤيا التي أنّت وهي تلقي بحقيبتها على الحصيرة»أوه، إلهي«. لمحت سيلڤيا رجلاً هندياً، ملامحه الهندية لا يمكن أن تخطئها عينا سيلڤيا. كان يجلس في ركن الخان ويبدو في حالة سكر.همست سيلڤيا لرفيقها»يبدو أنهم يقدمون الخمر أو يسمحون بشربه«.اقترب النادل منهما وحدثهما بالإنجليزية، وكانت لحظة سعادة يصعب وصفها.قبل أن تفصح سيلڤيا عمّا تريده أثنت على إنجليزية الرجل فقال لها واثقاً:

«ألا تعلمين أن المخا مدينة الإنجليز؟»

ثم استدرك أمامها ضاحكاً:

«في الحقيقة عشت متنقلاً بين المخا وبومباي. خدمتُ الإمبراطورية في الهند لبعض الوقت»

طلبت سيلڤيا قليلاً من الماء، وقوبلت أمنية نيبور بالرفض. قال النادل بحذر:

«إذا كنت تقصد ذلك الهندي فهو صديق لصاحب الدولة وبمقدوره أن يفعل ما يشاء»

سألته سيلڤيا»هل تقصد أنه نديم صاحب الدولة؟»

فقال الرجل بلهجة مهذبة لا تخلو من الاستنكار:

«صاحب الدولة لا يشرب الخمر، إذا فعل ذلك فلن ينجو من غضب مولانا الإمام إسماعيل. كل ما في الأمر أنه يكرم ضيوفه الأوروبيين من تجار البُن ويبعث إليهم بهذا الهندي ليسكر معهم».

أحست سيلڤيا بالدوار، دوار الزمن. أما نيبور فبدا شارداً إلى أبعد الحدود.

بعد أقل من ثلث ساعة، لم يتبادل خلالها الرفيقان الكثير من الكلام، لاحظت سيلڤيا زبائن الخان وهم يسرعون إلى الباب. نقرت على كتف نيبور الذي كان يدس يده في حقيبته. هرعا، هما أيضاً، إلى الباب. من هناك أبصرا أناساً يحملون تابوتاً على الأكتاف. كان المشيعون يرتدون الملابس وبعضهم في زي الرهبان، ومن الواضح أنهم أوروبيون. اصطف الناس أمام منازلهم الطينية الشبيهة بالأكواخ وراحوا يراقبون الجنازة، ولم تكن كل أجسادهم مغطاة.

لاحظت سيلڤيا أن نادل الخان يقف أمام الباب ويشاهد الجنازة باهتمام ولكنه كان يسترق النظر إليها. اقتربت منه وسألته عن الجنازة فقال:

«جنازة أوروبي، هذه جنازة أوروبي من أرضكم»

عندما لاحظ أن حديثه قد جذب انتباه سيلڤيا أضاف معلومة أخرى:

«أظنه أحد الأوروبيين الذين يبحثون عن القمل والثعابين في بلادنا»

التحق كارستن نيبور وسيلڤيا بالجنازة، وتبادلا الصمت مع المشيعين. كان بعضهم يلبس ثياب بحّارة تعود إلى قرون خلت. لم يتحدثا مع أحد إلى أن أنزلت الجنازة في مقابر الفرنسيين خارج المدينة.

سأل كارستن نيبور أحد الرجلين اللذين كانا يحملان التابوت من المقدمة، فقال له الرجل بنبرة عميقة الحزن:

«إنه فون هاڤن، أعظم متخصص في أدب الشرق».

أما سيلڤيا فقد تجمدت دماؤها وانقطع نفسها إذ رأت كم هي ملامح الرجلين، كارستن نيبور وهذا الرجل الحزين، متشابهة.

13 مايو، 2018

Brun del: L.F. Clemens Sc.